مجرد أطفال
جذور الخير والشر

باول بلوم

مركز الرصد العقائدي
alrasd.net
الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

ترجمة: ضرغام الكَيار
مراجعة وتدقيق: صلاح الخاقاني

مصدر الفهرسة : IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم تصنيف LC : BJ45 .P3125 2020

المؤلف الشخصي : بلوم، بأول، -1963 -- مؤلف.

العنوان الاصلـي : Just babies : the origins of good and evil. Arabic

العـنـــوان : مجرد أطفال : جذور الخير والشر /

بيـان المسؤولية : باول بلوم ؛ ترجمة ضرغام الكيار ؛ مراجعة وتدقيق صلاح الخاقاني.

بيانات الطبـع : الطبعة الاولى.

بيـانات النشـر : كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الدينية، شعبة البحوث والدراسات 2020 / 1441 للهجرة.

الوصف المـادي : 144 صفحة ؛ 24 سم.

سـلسلة النشـر : (العتبة الحسينية المقدسة ؛ 755).

سـلسلة النشـر : (شعبة البحوث والدراسات، قسم الشؤون الدينية؛ 100).

تبصرة ببليوجرافية :يتضمن هوامش.

تبصرة لغـــة : الكتاب بالغة العربية مترجم عن اللغة الإنجليزية.

مصطلح موضوعي : الأطفال – علم النفس.

مصطلح موضوعي : الاطفال - نمو.

مصطلح موضوعي : الاخلاق - الجوانب النفسية.

مصطلح موضوعي : الخير والشر.

مصطلح موضوعي : القيم (فلسفة).

اسم هيئة اضافي : العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق)، شعبة البحوث والدراسات، قسم الشؤون الدينية. جهة مصدرة.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني: علي جبار

إشادات بكتاب مجرد أطفال

«نظرة رائعة ومتعمقة في كيفية تطور أخلاقنا في فترة الطفولة وما بعدها، يمكن أن تقدم حجة قوية عن التفاعل الخفي بين الجينات والبيئة الذي يجعلنا على ما نحن عليه ... لكل محبي العلوم الاجتماعية وأولياء الأُمور».

دان أرئيلي، أُستاذ في علم النفس والاقتصاد السلوكي في جامعة ديوك ومؤلف كتاب "غير العقلاني المتوقع".

«إن استكشافات باول بلوم الجذابة للتفضيلات الأخلاقية لدى الأطفال الرضع مهدت الطريق لكتاب لا يتعلق بـ "مجرد أطفال" لأنه يذهب إلى عمق الطبيعة الأخلاقية نفسها، بالنسبة لنا جميعًا. هذا الكتاب لكل من يريد معرفة المزيد عن طبيعة الكائنات الأخلاقية التي نحن عليها».

بيتر سينغر، أُستاذ في الأخلاقيات الحيوية في جامعة برنستون ومؤلف كتاب "الحياة التي يمكنك إنقاذها".

«لدى باول بلوم عقل مثير للإعجاب، ومن المتعة النادرة متابعته وهو يتتبع جذور الأخلاق الإنسانية. يوضح بلوم بوضوح وذكاء أن الأطفال لديهم الكثير والكثير لتعليمنا في هذه الصفحات الرائعة دروس مليئة بالدهشة والبهجة».

إميلي بازيلون مؤلفة كتاب "العصي والحجارة".

«"جذور الخير والشر" هو عنوان فرعي طموح، لكن هذا الكتاب يستحقه. يجمع باول بلوم بين الكتابة البارعة واللبقة مع الصرامة الفكرية لإنتاج سرد مقنع لكيفية وسبب كون الناس رائعين ومريعين للغاية ... هذا الكتاب، من خلال تعزيزه لتأمل الذات، هو في حد ذاته أداة للتنوير، ويمكن أن يساعد الإنسانية في اتخاذ خطوة أخرى نحو الخير».

روبرت رايت، مؤلف كتاب "الحيوان الأخلاقي".

«كتاب "مجرد أطفال" هو بالضبط مزيج من النظرة الثاقبة والعلوم المتطورة، والنثر الراقي الذي توقعه ملايين القراء من أحد أفضل كتب علم النفس وأذكاها».

دانييل جيلبرت، أستاذ علم النفس في جامعة هارفرد ومؤلف كتاب "التعثر في السعادة".

«باول بلوم هو عالم يعرف كيف يروي قصة رائعة وساحرة، وبصفتي والداً جديداً، فقد وجدت كتابه مجرد أطفال ليس فقط مليئاً بالرؤى الثاقبة عن الحس الأخلاقي النامي لدى طفلي الصغير ولكن أيضًا ممتع القراءة».

جوشوا فوير، مؤلف كتاب "المشي على القمر بصحبة آينشتاين".

"كتاب مجرد أطفال هو مساهمة حيوية في الدراسة العلمية للأخلاق التي تملأ فجوة كبيرة في فهمنا للطبيعة البشرية، وعلاوة على ذلك، إن قرائته مشوقة!"

مايكل شارمر، رئيس تحرير مجلة سكبتك ومؤلف كتاب "علم الخير والشر".

«باول بلوم هو واحد من أفضل كتاب علم النفس اليوم. يجمع في كتابه مجرد أطفال بين البيانات الموثقة مع الحكاية الساحرة والتحليل الثاقب لاستكشاف أحد أكثر الأسئلة التي واجهتها البشرية عمقًاً على الإطلاق: كيف أصبحنا كائنات أخلاقية، ويقدم

حججاً عميقة ومتقدة على أولوية التفكير والتفكر في حياتنا – وهي حقيقة تتم معالجتها باستخفاف في علم النفس الشعبي».

سالي ساتيل، دكتورة في الطب ومؤلفة مشاركة لكتاب "غسيل الدماغ".

«لقد كتب على الإنسان أن يعيش في مجتمع. إذن كان لا بدّ أن تتخذ أخلاقه الصورة التي تناسب هذا الهدف، فقد وهب لوناً من الإحساس بالصواب والخطأ – كحاسة السمع والبصر واللمس، وهذا هو الأساس الحقيقي للأخلاق . . . أن الحاسّة الخلقية – أو الضمير – جزء من الإنسان كرجله أو ذراعه تماماً، وهِبَ الآدميون جميعاً هذه الحاسة بدرجات تتفاوت قوة وضعفاً – كما تتفاوت قوى الأعضاء بينهم ويمكن تقويتها بالمرانة كما يمكن تقوية أي عضو من أعضاء الجسد».

توماس جفرسون ١٧٨٧ ميلادية

مقدمة الشعبة

القوة الكامنة في تكوين الإنسان والمسماة بالضمير...

ماهي العوامل المؤثرة في تكوينها؟

هل هي حس مكتسب أم أمر فطري؟

كل هذا، كان وما يزال مثار جدل واختلاف بين الفلاسفة والمفكّرين وعلماء النّفس.

لطالما كانت قضيّة "الضّمير" مثار جدل وذلك حول العوامل الّتي تؤثّر في تكوين الضّمير، وما إذا كان حسّاً مكتسباً أو أمراً فطريّاً. في السّابق، افترض بعض العلماء أنّ الأطفال يتلقّون المبادئ المشكِّلة للضّمير بعد ولادتهم وتأثّرهم بالمجتمع وبعائلاتهم، ويتطبعون حسب ما يستقونه من المحيط حول الخير والشّرّ والجمال والقبح. غير أن دراسة صادرة عن جامعة "يال"، تقول إنها حسمت الجدل بتأكيد امتلاك الأطفال للضّمير منذ ولادتهم، وقدرتهم على تمييز الخير من الشّر، أكدت على أنّ دور العائلات والمجتمع ينحصر في تطوير تلك المبادئ الموجودة أصلاً لدى الأطفال.

الطبيبة كارين واين تقول، في معرض شرحها لكيفية إجراء الدّراسة، أنها تعمل مع فريق من الباحثين منذ عقود على دراسة عقليّة الأطفال وسلوكهم، وقد ركّزت اهتمامها، خلال السنوات الثماني الأخيرة، على دراسة سلوك الأطفال دون العامين من العمر، لمعرفة مدى إدراكهم لمفاهيم الخير والشّرّ.

واعتمدت واين على سلسلة اختبارات بسيطة، بينها عرض صورة لفعل جيّد وأُخرى لفعل سيّئ، وترك الأطفال يختارون الأفضل بينهما، إلى جانب مراقبة ردود فعل الأطفال حيال عروض الدّمى الّتي تظهر فيها ممارسات جيّدة وأخرى سيّئة، فاتّضح أنّ ٨٠ في المائة من الأطفال أبدوا إعجابهم بالدّمى الّتي كانت تقوم بالممارسات الجيّدة.

ويقول باول بلوم، مؤلّف كتاب "مجرّد أطفال: جذور الخير والشّرّ"، إنّ الاختبار أكّد فرضيّة امتلاك الأطفال لضمير وحسّ منطقيّ، للتفريق بين الخير والشّرّ، ولكنّه ذكر أيضاً أنّ الأطفال يولدون مع مزايا أخرى سيّئة، من بينها العدائيّة تجاه الغرباء، وهو أمر يمكن أن يتركهم – في حال عدم معالجته – بلا ردّ فعل أخلاقيّ تجاه جرائم مثل الإبادة الجماعيّة، ما يحتّم بالتالي على الآباء والمجتمع مواصلة تلقين الأطفال المبادئ الإنسانيّة، وتنمية حسّ الضّمير لديهم.

ان هذه النتائج العلمية المتأتية من المختبر الغربي، تضعنا ـ بلاشك ـ أمام الحقيقة التي بيّنها ديننا الإسلامي الحنيف قبل قرون وهي أن الله سبحانه يهدي الإنسان منذ بداية خلقه، إلى السّبيل الّذي به يعرف نوازع الخير والشّرّ، على أساس مما تتفاعل به فطرته وما يدركه عقله. هذه الفطرة الدقيقة التي تعبّر عن سرّ من أسرار الله في تكوين خلقه، بحيث تتوسّع مدارك الطفل، وينفتح عقله أكثر، ليقف أمام اختبار الاختيار، وليواجه مسؤوليّته ومصيره في الوجود. في تفسير قوله تعالى **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾** السبيل الّذي يؤدّي به إلى الله، من خلال ما يدركه عقله، وما يتحرّك فيه سمعه وبصره، وما يوحي به الله إليه، أو يلهمه معرفته بفطرته الصّافية..، ومنحه حريّة الاختيار بين الخير

والشرّ، سواء في الالتزام بطاعة الله كتعبيرٍ حيٍّ عن شكره له من ناحيةٍ عمليةٍ، أو الالتزام بمعصيته كتجسيدٍ حيٍّ للكفر بالنّعمة، من ناحيةٍ واقعيّةٍ.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فهو بين هذين الخطّين، وما ينفتح عليه من خيارات، من دون أن يواجه أيّ ضغطٍ تكوينيٍّ في إبعاده عن عمليّة الاختيار.

وإذا أردنا أن نواجه مسألة الاختيار بين شكر النّعمة باختيار الإيمان، وكفرها باختيار الكفر والعصيان، فإنّنا نلاحظ أنّ النّاس بين مَنْ يستجيب لنداء فطرته الّتي تمثّل سرّ العمق في تكوينه، أو لإرشاد عقله الّذي يوازن بين الحسن والقبح في حقائق الأشياء، أو للاستماع إلى وحي الله وحديث الأنبياء اللّذين يفتحان حياة الإنسان على معرفة الخير والشّرّ، والصّلاح والفساد، ليختار الصّلاح بدلاً من الفساد، وليتبع الخير بدلاً من الشرّ، وبين من لا يستجيب لذلك كلّه، من خلال العوامل الطّارئة في حركة الغريزة لديه، أو في نوازع الذّات في شخصه، أو في نقاط الضّعف في حياته، أو في طبيعة الظّروف الضّاغطة المحيطة به.

وهكذا يقف الإنسان وجهاً لوجه أمام مسألة الهداية، في عنصرها الإيجابي أو السّلبي، ليواجه مصيره على أساس مسألة الاختيار لديه. فإنّ الله لم يضغط عليه ليحوّل إرادته إلى ما يحبّه له بالضّغط التكويني الّذي يشلّ إرادته ويمنعها عن الحركة، ولكنّه أثار أمامه النتائج الأُخرويّة، في مسألة الثواب والعقاب، ليضغط عليه ضغطاً معنويّاً في جانب الإحساس، ليكون اختياره خاضعاً للتّفكير في النتائج، كما هو خاضع للجانب الموضوعيّ الّذي تتحرّك فيه الأشياء.

المقدمة

في عام ٢٠٠٥، سمعت فرجينيا بوستريل[١] ـ كاتبة أمريكية تعيش في دالاس ـ أن سالي ـ إحدى معارفها ـ تعاني من مرض في الكلى، وستخضع قريبًا لعملية غسيل الكلى حيث تربط بجهاز لتصفية دمها ثلاثة أيام في الأُسبوع، ويمكن لها أن تتفادى ذلك إذا ما قام أحد ما بالتبرع لها بكلية صالحة. قررت فرجينيا حينها أن تتبرع لسالي بإحدى كليتيها، وبعد إجراء بعض الأبحاث والتحدث مع زوجها، سافرت إلى واشنطن العاصمة حيث تم زرع كليتها اليمنى في جسم المريضة سالي.

المميز في هذه العملية، أن عمليات التبرع بالكلى تحدث عادة بين أبناء الأُسرة الواحدة، في حين أن فرجينيا لم تكن حتى صديقة سالي المقربة، وقد أعربت عن الدافع من وراء قيامها بذلك بقولها «أنها شعرت بالتعاطف مع حالة سالي وأبدت إعجابها بفكرة التمكن من المساعدة بطريقة مباشرة».

هذه الصورة وصور أُخرى أكثر إمعاناً في الإيثار، حيث يصل الأمر بالبعض إلى قيامه بتسجيل الدخول إلى مواقع التبرع بالأعضاء وترتيب التبرع بالكلى والأعضاء الأُخرى لأُناس غرباء تماماً[٢]، يتعامل معها بعض الناس على أنها دليل أكيد على وجود حس أخلاقي زرعه الله فينا[٣]، ومن بين القائلين بذلك علماء بارزون مثل فرانسيس كولينز، رئيس المعاهد الوطنية للصحة، حيث يذهب اصحاب هذا الرأي إلى أن مثل هذه الأفعال

(1) S. Satel, "Desperately Seeking a Kidney," *New York Times Magazine*, December 16, 2007.

(2) L. MacFarquhar, "The Kindest Cut," *New Yorker*, July 27, 2009.

(3) Francis Collins, *The Language of God: A Scientist Presents Evidence for Belief* (New York: Free Press, 2006).

الدالة على نكران الذات تثبت أن أحكامنا الأخلاقية وأفعالنا الأخلاقية لا يمكن تفسيرها بالكامل بواسطة قوى التطور البيولوجي، ويقترحون تفسيراً لاهوتياً.

دائماً ما كانت الأخلاق تشغل كامل اهتمامنا، فالقصص التي نتمتع بها أكثر من غيرها، سواء أكانت خيالية (كما في الروايات والبرامج التلفزيونية والأفلام) أو حقيقية (كما هو الحال في الصحافة والكتب التاريخية)، هي قصص الخير والشر. نريد مكافأة الأشخاص الصالحين - ونريد حقًا رؤية الأشرار يعانون، ويمكن أن تصل نزعتنا للعقاب أحياناً إلى حد التطرف. ففي إنجلترا، قبل عدة سنوات، جرت حادثة شغلت الرأي العام لفترة. حيث فقد أحدهم قطته، ثم بحث عنها في كل مكان يعرفه، لكنه لم يجدها، ثم بعد يوم أو اثنين وجدها بالمصادفة في سلة القمامة بينما كان يرمي القمامة. دفع ذلك الأمر صاحب القطة للتساؤل: كيف دخلت هذه القطة إلى هنا؟ فقام بالبحث عن أي كاميرات في المنطقة ووجد إحداها بالفعل. سحب الفيديو وقام بمراقبة سلة القمامة ليصل إلى تلك اللحظة التي تضع فيها إحدى السيدات القطة في سلة القمامة. اقتطع صاحب القطة هذا الجزء من الفيديو ونشره على "فيسبوك" متسائلاً: هل يعرف أحدكم هذه السيدة؟ بعدها وجد الفيديو مشاهدات كبيرة جداً وظهرت بالفعل بعد أيام قليلة، سيدة متوسطة العمر تُدعى "ماري بيل"، قالت في الأخبار إنها فعلت ذلك بغرض التسلية. لكن رد فعل الجمهور كان قاسياً لدرجة أن أحدهم أنشأ صفحة فيسبوك بعنوان "الموت لماري بيل"[٤] فاضطرت الشرطة لوضع السيدة تحت المراقبة بسبب تلك

(4) L. M. Holson, "The New Court of Shame Is Online," *New York Times*, December 23, 2010.

التهديدات وغيرها. في الواقع، يُقتل العديد من الأشخاص على أيدي أُناس يعتقدون أنهم مذنبون بارتكاب أعمال غير أخلاقية.

كيف يمكن أن نفهم طبيعتنا الأخلاقية بشكل أفضل؟

تتفق الغالبية العظمى مع كولينز على أن مسألة الأخلاق هي مسألة لاهوتية، بينما يعتقد آخرون أن الأخلاق يمكن فهمها بشكل أفضل من خلال رؤى الروائيين والشعراء والكتاب المسرحيين. فيما يفضل آخرون أن يتعامل مع الأخلاق من منظور فلسفي، ولا ينظر إلى ما يفكر فيه الناس وكيف يتصرف الناس ولكن في مسائل الأخلاق المعيارية (نحو، كيف ينبغي أن يتصرف الشخص) والأخلاقيات الفوقية (نحو، طبيعة الصواب والخطأ).

وهناك معيار العلم أيضاً حيث يمكننا استكشاف طبيعتنا الأخلاقية باستخدام نفس الأساليب التي نستخدمها لدراسة جوانب أخرى من حياتنا العقلية، مثل اللغة أو الإدراك أو الذاكرة.

ويمكننا النظر في التفكير الأخلاقي عبر المجتمعات أو استكشاف كيف يختلف الناس داخل المجتمع الواحد – على سبيل المثال الليبراليون مقابل المحافظين في الولايات المتحدة، وأيضاً عبر فحص الحالات غير العادية، مثل المرضى النفسيين عديمي المشاعر.

يمكن لعلماء النفس الاجتماعيين استكشاف كيف تشجع الجوانب البيئية اللطف أو القسوة، ويمكن لعلماء الأعصاب النظر في أجزاء الدماغ التي تشارك في التفكير الأخلاقي.

سوف أتطرق إلى كل هذا في الصفحات التالية. لكنني أخصائي نفس تنموي، لذلك أنا مهتم إلى حد كبير باستكشاف الأخلاق من خلال النظر إلى جذورها عند الرضع والأطفال الصغار. سوف أسوق الحجج على أن الأبحاث التنموية الحديثة تخبرنا بشيء مذهل عن حياتنا الأخلاقية. يظهر أن توماس جيفرسون كان على صواب عندما كتب في رسالة إلى صديقه بيتر كار: «إن الحاسّة الخلقية – أو الضمير – جزء من الإنسان كرجله أو ذراعه تماماً، وهِبَ الآدميون جميعاً هذه الحاسة بدرجات تتفاوت قوة وضعفاً»[٥].

شارك بعض فلاسفة عصر التنوير في فترة جيفرسون، بمن فيهم آدم سميث[٦]، رأيه بأن لدينا شعوراً أخلاقياً متأصلاً. في أثناء إقامتي في أدنبره، الصيف الذي سبق إكمال هذا الكتاب، وجدت نفسي مفتوناً بنظرية المشاعر الأخلاقية. يعرف معظمهم سميث من خلال كتابه الأكثر شهرة، "بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم"، لكن سميث نفسه اعتقد أن كتابه الأول كان أفضل. العمل رصين ومكتوب بدقة ومليء بالرؤى الثاقبة عن العلاقة بين الخيال والتعاطف، وحدود الرأفة، ونزعتنا في معاقبة الآخرين على أفعالهم الخاطئة، وغير ذلك الكثير. من الممتع النظر إلى النتائج العلمية المعاصرة من خلال عيون سميث، وسأقتبس منه إلى درجة قد تصل إلى الإحراج، مثل طالب جامعي لم يقرأ سوى كتاب واحد فقط.

(5) For full text of the letter, see "Letter to Peter Carr" (August 10, 1787), www.stephenjaygould.org/ctrl/jefferson_carr.html. For discussion of Jefferson's view on moral psychology, see John Macnamara, *Through the Rearview Mirror: Historical Reflections on Psychology* (Cambridge, MA: MIT Press, 1999).

(6) For a thoughtful overview of Smith's ideas about morality, see Michael L. Frazer, *The Enlightenment of Sympathy: Justice and the Moral Sentiments in the Eighteenth Century and Today* (New York: Oxford University Press, 2010)

يصف الكثير من هذا الكتاب الحالي كيف أن علم النفس التنموي، بدعم من البيولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية، يفضل وجهة نظر جيفرسون وسميث بأن بعض جوانب الأخلاق هي جزء من فطرتنا الإنسانية، وتشمل هذه النعمة الفطرية التي لدينا:

- الحس الأخلاقي – بعض القدرة على التمييز بين الأفعال الطيبة والقاسية.
- التعاطف والرحمة – التألم من معاناة من حولنا والرغبة في جعل هذه المعاناة تنتهي.
- الشعور البدائي بالإنصاف – الميل إلى تفضيل التوزيع العادل للموارد.
- الشعور البدائي بالعدالة – الرغبة في رؤية الأعمال الجيدة تكافأ والأعمال السيئة تعاقب.

ومع ذلك فإن هذا الخير الفطري لدينا محدود وفي بعض الأحيان على نحو مأساوي. قال توماس هوبز، في عام ١٦٥١: إن الإنسان "في الحالة الطبيعية" شرير وأناني، وسأستكشف الطرق التي كان هوبز على حق فيها. نحن بطبيعتنا لا نبالي بالغرباء – بل حتى نعاديهم؛ نحن نميل إلى ضيق الأُفق والتعصب الأعمى. بعض من ردودنا العاطفية الغريزية، ولا سيما الاشمئزاز، تحفزنا على القيام بأشياء فظيعة، بما في ذلك أعمال الإبادة الجماعية.

ثم سأوضح كيف يمكن لتقدير الطبيعة الأخلاقية للأطفال أن يؤسس منظوراً جديداً في علم النفس الأخلاقي للبالغين، منظوراً يأخذ بجدية ميلنا الطبيعي لتقسيم العالم إلى أُسرة مقابل أصدقاء مقابل غرباء، وأختتم حديثي باستكشاف كيف وصلنا إلى التسامي فوق الأخلاق التي نولد عليها – كيف يؤدي خيالنا وتعاطفنا، وخاصة ذكاؤنا،

إلى ظهور رؤية أخلاقية وتقدم أخلاقي ونصبح أكثر من مجرد أطفال.

الفصل الأول
الحياة الأخلاقية للأطفال

مشهد لدمى ثلاث، في الوسط وعلى اليمين واليسار. الدمية التي في الوسط قامت بتمرير كرة صغيرة الى التي على اليمين، وهذه التي على اليمين قامت بدحرجة الكرة إلى دمية اليسار التي هربت بها مبتعدة عن الدميتين. تم هذا المشهد أمام طفل يبلغ من العمر سنة واحدة، وقد قدمت له بعد ذلك الدميتان "اللطيفة" و"المشاغبة" وقد وضع أمام كل واحدة منهما مكافأة وطلب منه سحب المكافأة من إحدى الدميتين. هنا بدا الطفل وكأنه قرر تحقيق العدالة بنفسه حيث لم يكتف بسحب المكافأة من الدمية المشاغبة، مثل معظم الأطفال الصغار في هذه التجربة بل تجاوز ذلك إلى صفع الدمية على رأسها[1].

لا شك في أن هكذا تجارب تدل بشكل واضح على أنه ليس كل ما في المنظومة الأخلاقية للإنسان يكتسب اكتساباً، وانما البعض منها نابع من فطرته، وأن هناك ما يمكن تسميته بالحس الأخلاقي الموجود ذاتياً في الإنسان والذي يوجه عواطف الإنسان وقراراته فيما يخص الحسن والقبيح، وهذا لا يعني أن نوازع الخير هي الموجود الوحيد في فطرة الإنسان، فهناك نوازع شر أيضاً. نحن البشر، بطبيعتنا، لطفاء مع الآخرين، في بعض الاحيان على الأقل، ولكن يوجد فينا غرائز قبيحة أيضاً، ويمكن لها أن تتحول إلى غرائز شريرة. إن القس توماس مارتن لم يكن مخطئاً تماماً عندما كتب في القرن التاسع عشر عن

(1) The anecdote is first reported in P. Bloom, "The Moral Life of Babies," *New York Times Magazine*, May 9, 2010.

"الفساد الأصلي" للأطفال وخلص إلى «أننا نجلب معنا إلى العالم طبيعة مفعمة بالميول الشريرة»[1].

أُدرك أن فكرة أن الأطفال مخلوقات أخلاقية تبدو سخيفة بالنسبة للبعض، لذلك سأبدأ بتوضيح ما أقوله بالضبط:

إنني أعني بكلمة أطفال، من هم في عمر يمكن إخضاعهم فيه إلى التجربة، والذين كما وصفهم شكسبير «يناغون.. يلاغون.. يتفيأون.. يتقيأون.. بين أحضان المربية يلعبون». لهذا فإني لن أتحدث كثيراً عن أطفال ما قبل سن الثلاثة أشهر، وذلك بسبب الصعوبة في دراسة عقولهم ومن ثم الحصول على بيانات تجريبية حولها، باستخدام الأساليب المتاحة لدينا، مما يجعل من الجزم في أن هذه المخلوقات الصغيرة تتمتع فعلياً بحياة أخلاقية عملية غير موفقة.

ربما قال قائل إن عدم الجزم هنا قد يؤدي الى الطعن فيما قلته آنفاً من أن بعض الأخلاق موجودة عندنا بالفطرة!

في معرض الرد، على الطعن، نذّكر في أن الكثير من الصفات الطبيعية لا تظهر في الإنسان على الفور، كما هو الحال في بعض أجزاء الجسم مثل النمش وأسنان العقل وشعر الإبط، والدماغ مثل بقية الجسم، يستغرق وقتاً طويلاً لينمو.

إن كل ما أدعيه باختصار هو أن بعض الأُسس الأخلاقية لدى الشخص لا تكتسب من خلال التعلم. فهي لا تأتي من حجر الأُم، أو من المدرسة أو الكنيسة بل هي هبة موجودة فينا من البداية.

(1) Quoted in Frank Keil, *Developmental Psychology* (New York: Norton, forthcoming).

وبالنسبة للأخلاق... فإن فلاسفة الأخلاق لا يتفقون على ماهية الأخلاق[1]، والكثير من غير الفلاسفة لا يرغبون في استخدام الكلمة على الإطلاق.. حين أخبرت الناس عن موضوع هذا الكتاب، قال لي أكثر من شخص بأنه "لا يؤمن بالأخلاق". حتى أن إحدى السيدات أخبرتني ـ ذات مرة – ولست متأكدًا إذا ما كانت تمزح – «بأن الأخلاق ليست أكثر من قواعد تتعلق بالجنس. مما يعني أن الجدال الناشئ من الفهم المختلف بين الناس لماهية الأخلاق ممل جداً. فكل شخص يحدد الفهم الخاص به للأخلاق».

نأتي الآن إلى الفهم الذي أُحدده للأخلاق، والذي يتجاوز ما يحدد السلوك الجنسي- أو غير ذلك من التصورات.

إليك مثالاً بسيطاً:

سيارة مليئة بالمراهقين تقترب ببطء من امرأة مسنة تنتظر عند محطة للحافلات. يخرج أحد المراهقين رأسه من النافذة ويصفع المرأة ويطرحها أرضاً، ويتابعون السير وهم يضحكون...

ما لم تكن مختلاً عقلياً، فأنت تدرك أن المراهقين، بهذا الفعل، قد ارتكبوا خطأً ما، ولكن أي نوع من الخطأ؟

إنه ليس حماقة اجتماعية مثل التجول وأنت ترتدي قميصك بالمقلوب، أو خطأً في تصور الواقع مثل التفكير في أن الشمس تدور حول الأرض. كما أنه ليس انتهاكاً لقاعدة

(1) J. Nado, D. Kelly, and S. Stich, "Moral Judgment," in *The Routledge Companion to the Philosophy of Psychology*, ed. John Symons and Paco Calvo (New York: Routledge, 2009), 621–33.

اتفاقية، كأن تحرك بيدقاً لثلاثة خانات للأمام في لعبة الشطرنج، وليس خطأً ذَوْقِيّاً، مثل الاعتقاد بأن أجزاء فيلم ماتريكس التالية كانت بجودة الجزء الأول[١].

إن فعل هؤلاء المراهقين يعدّ انتهاكاً أخلاقياً، ولهذا فهو يرتبط ببعض المشاعر والرغبات، مثل الشعور بالتعاطف مع المرأة والغضب من المراهقين؛ أو الرغبة في رؤيتهم يعاقبون، أو الإيمان بأنهم مدينون للمرأة بالاعتذار أو على الأقل، أن عليهم أن يشعروا بالسوء حيال ما فعلوه، وإذا ما تذكرت فجأة أن أحد المراهقين قد كان أنت، قبل سنوات عديدة، فستشعر بالذنب أو العار. إن ما فعله المراهقون بالمرأة هو انهم قاموا بضربها، وهذا الضرب يعد انتهاكاً أخلاقياً مباشراً، أي يقع على الضحية مباشرة، وقد قال عنه الفيلسوف والعالم القانوني جون ميخائيل «إن فعل ضرب شخص عن قصد دون إذنه ينطوي على سوء فوري خاص يستجيب له جميع البشر»[٢]، وفي هذا الصدد هناك قاعدة أخلاقية تتجاوز المكان والزمان تنص على أنه: إذا ما قمت بلكم شخص ما في وجهه، فمن الأفضل أن يكون لديك سبب وجيه لذلك.

هناك نمط آخر من الانتهاكات الأخلاقية أقل مباشرة، أي أن تأثيره لا يقع على الضحية بالشكل المباشر التي كانت عليه الحالة الأُولى، كما لو أن المراهقين قد ألقوا قرميداً على المرأة. أو أنهم صدموا سيارتها من الجانب عن عمد، مما أدى إلى الإضرار بها وهذا سيؤذيها حتى لو لم تكن المرأة هناك لمشاهدة ما فعلوه. ربما قتلوا كلبها. او ربما لم يكونوا

(1) These are among the criteria used by Elliot Turiel and his colleagues to distinguish moral transgressions from what they call "socio-conventional transgressions." See Elliot Turiel, "The Development of Morality," in *Handbook of Child Psychology*, ed. William Damon and R. M. Lerner, vol. 3, ed. N. Eisenberg (New York: Wiley, 2006), 789–857.

(2) John Mikhail, *Elements of Moral Cognition: Rawls' Linguistic Analogy and the Cognitive Science of Moral and Legal Judgment* (New York: Cambridge University Press, 2010).

بوعيهم واصطدموا بها عن طريق الخطأ– سيكون ذلك خطأ حتى لو لم يكن لديهم نية خبيثة، لأنه كان ينبغي عليهم أن ينتبهوا إلى أفعالهم بشكل أفضل.

هناك أفعال من نمط الانتهاكات الأخلاقية الأقل مباشرة ويكون الانتهاك فيها على الصعيد المعنوي وليس المادي، ويمكن أن يتم عن بعد. كأن يوجه أُولئك المراهقون – الشتائم العنصرية إليها، وتهديدها بالقتل من خلال رسائل عبر بريدها الإلكتروني، ونشر إشاعات خبيثة عنها، وابتزازها، ونشر صور فاضحة لها على الإنترنت، وهكذا ...

إن هذا النمط من الانتهاكات والذي يتم عن بعد، أمر يدعو للذهول في سهولة القيام به. حتى أنني صعقت، ذات مرة، في أثناء جلوسي على جهاز الكمبيوتر الخاص بي في وقت متأخر من الليل، لمجرد التفكير بعدد الأشياء الرهيبة وغير القانونية التي يمكنني القيام بها دون مغادرة مكتبي. يعيش كل واحد منا الآن على بعد بضع نقرات على لوحة المفاتيح عن الجناية، وقد يصل الفعل الدال على الانتهاك الأخلاقي في ابتعاده عن الشكل المباشر إلى الحالة السلبية، فيكون عدم القيام بفعلٍ ما هو الانتهاك الأخلاقي، كامتناع بعض الآباء والأمهات عن تقديم الطعام لأطفالهم، أو ترك كلب أو قطة تتضور جوعًا حتى الموت.

إن القانون يحيد، في بعض الأحيان، عن الحس السليم في هذا الصدد. فلا يقوم بتجريم بعض الأفعال المنافية للحس الإنساني السليم والداخلة ضمن مفهوم الانتهاك الأخلاقي ومن ثم نص العقوبة عليها.. تأمل حالة الشابين – جيريمي سترومير وديفيد كاش جونيور – اللذين دخلا كازينو نيفادا في عام ١٩٨٨. سترومير تبع طفلة تبلغ من العمر سبع سنوات الى حمام النساء واعتدى عليها وقتلها[1]. إن خطأ تصرف سترومير

(1) C. Booth, "The Bad Samaritan," *Time*, September 7, 1998.

واضح من منظور أخلاقي وقانوني، ولكن ماذا عن كاش الذي كان مع سترومير في الحمام، والذي حاول بتراخٍ أن يوقفه؟ وحين لم يأبه له سترومير استسلم وذهب ليتمشى.. مبرراً فعله في منع عملية الاغتصاب بقوله ـ لاحقاً ـ «إنني لا أُضحي بنومي بسبب مشاكل شخص آخر».

اقتيد سترومير إلى السجن جراء فعلته، ولكن كاش بقي حراً، لأن الفشل في إيقاف حدوث جريمة لم يكن أمراً مخالفاً للقانون في ولاية نيفادا. رغم هذا، كان هناك شعور لدى الكثيرين بأنه كان مذنباً. حتى أن الجامعة التي يدرس فيها شهدت مظاهرات طلابية تطالب بطرده، وعلى إثر ذلك قام المشرعون بتغيير القانون في ولاية نيفادا استجابةً لهذه القضية بالذات، مما جعله أكثر انسجاماً مع المشاعر العامة.

لم يكتف الناس، ممن سمعوا بالحادثة، بما حدث لكاش بعد أن حكموا عليه أنه شخص سيء. لقد صار البعض منهم متحمساً لجعله يعاني، حيث جعلوه مطارداً على الإنترنت؛ يتحدث الأشخاص عن مكان وجوده، على أمل تدمير فرصه في الحصول على وظيفة والعثور على أصدقاء، ويرغبون في تدمير حياته. لقد فعلوا ذلك بالرغم من أنهم لم يتأثروا بشكل شخصي بفشله في التصدي للجريمة، وهذا يوضح مدى أهمية المخالفات الأخلاقية بالنسبة لنا، فنحن لا نرى أن كاش شخص سيئ فحسب، وإنما البعض منا متحمس لجعله يعاني.

هناك أنواع أخرى من الأخطاء الأخلاقية، التي فيها قضية الضرر ليست واضحة المعالم[1]. فكّر في:

الحنث في وعدٍ لشخص بعد موته أو تدنيس العلم الوطني وأكل لحوم البشر بالتراضي (شخص يرغب في أن يأكله آخر بعد وفاته). نجد أن هناك نسبة كبيرة من الناس لديهم نفس ردود الفعل التي يمكن أن تنشأ عن فعل مثل الاعتداء الجسدي – مثل الغضب على الجناة، والرغبة في معاقبتهم، وما إلى ذلك.

قد تبدو الأمثلة الواردة في هذا النمط من الاخطاء الأخلاقية الغريبة أو المفتعلة، ولكن يمكننا بسهولة الإشارة إلى أفعال أُخرى من نفس النمط في العالم الواقعي، وبلا ضحية، وتثير نفس النوع من الغضب الأخلاقي. مثل العلاقات المثلية التي يُنظر اليها، عند أغلب الشعوب على أنها رذيلة محضة، وقد يصل الحال ببعض الدول إلى الحكم على مثل هذه العلاقة بالإعدام.

في كثير من المجتمعات، يُعتقد أن ممارسة المرأة للجنس قبل الزواج هو تلطيخ لشرف أُسرة المرأة، وفي الولايات المتحدة وأوروبا لدينا قوانين ضد الدعارة وتعاطي المخدرات والقتل الرحيم وزواج الأشقاء وبيع أعضاء الجسم. إن هذه الممارسات، قد ينظر إلى رفضها، أو الحكم عليها بأنها انتهاك أخلاقي، على انه ناشئ من الضرر الناجم عنها، وهذا لاينفي أن لرفضها اجتماعياً وإنسانياً أساساً من شعور نفسي- يصف هذه الأفعال بالخاطئة، وأنها تنتهك الكرامة الإنسانية.

(1) See, for example, R. Shweder and J. Haidt, "The Future of Moral Psychology: Truth, Intuition, and the Pluralist Way," *Psychological Science* 4 (1993): 360–65; Jonathan Haidt, *The Righteous Mind: Why Good People Are Divided by Politics and Religion* (New York: Pantheon, 2012).

إلى هنا لابد من الإشارة إلى أننا فيما ذكرناه قد تناولنا الأفعال المحكوم عليها أخلاقياً بالخطأ، وأن هناك ممارسات إنسانية يحكم عليها بالأخلاقية لكونها صواباً، مثل تبرع الكثير من الناس بالوقت أو المال أو حتى بالدم لمساعدة الآخرين، ولا تقتصر- مثل هذه المبادرات الأخلاقية على من هم من ذوي القربى والعلاقات المتينة، بل إن هناك من يبادر بها حتى مع الغرباء. كما لا تقتصر- على الكبار البالغين من دون الأطفال الصغار.. ثمة دراسة صممها عالما النفس فيليكس وأرنيكين ومايكل توماسيلو، سميّت بالمساعدة التلقائية. في إحدى حالات الدراسة، يكون الطفل في غرفة تحضرها والدته، ثم يمر شخص بالغ ويداه ممتلئتان بالأغراض ويحاول فتح باب خزانة. لا أحد ينظر إلى الطفل أو يطالبه أو يطلب منه المساعدة، ومع ذلك، فإن ما يقرب من نصف الأطفال كانوا يساعدون.. يقفون بشكل عفوي، ويتمايلون، ويفتحون الباب أمام الكبار. لا شك في أن مثل هذه الأفعال تلهم العواطف مثل الفخر والامتنان[1].

إذن فنطاق الأخلاق واسع، يشمل الحسن والقبيح من الأفعال الإنسانية، وكما قال آدم سميث - «الكرم والإنسانية والعطف والرحمة والصداقة والاحترام المتبادلة، وكل المشاعر الخيرية والاجتماعية»[2].

إن المنظومة الأخلاقية وما فيها من أحكام مثل حسن بعض الأفعال أو قبحها، تختلف من مجتمع لآخر تبعا لثقافته وطبيعته، وهذه الحقيقة يمكن لأي شخص إدراكها

(1) F. Warneken and M. Tomasello, "Altruistic Helping in Human Infants and Young Chimpanzees," *Science* 311 (2006): 1301–3.

(2) Adam Smith, *The Theory of Moral Sentiments* (1759; repr., Lawrence, KS: Digireads.com, 2011), 30.

بسهولة من خلال الاطلاع على واقع المجتمعات بمختلف الوسائل كالسفر بين البلدان أو القراءة.

ومن الأمثلة على التباين في المعتقدات الأخلاقية ما نشـــهده اليوم، اعتماداً على ثقافة العصر، من تخطئة من يكره شخصاً ما بسبب لون بشرته السوداء. في حين أن مثل هذا الكره العنصري لم يكن مذموماً بالنسبة لمعظم تاريخ البشرية.

لقد أوضح هيرودوت هذه النقطة منذ ٢٥٠٠ عام في مقطع من كتابه "التواريخ"[1]، منطلقاً من ملاحظة أن «الجميع بلا اســتثناء يؤمنون أن تقاليدهم وأعرافهم المحلية التي تربوا عليها هي الأفضل دائماً». ثم يروي قصة عن داريوش ملك بلاد فارس:

«استدعى داريوش الإغريق الذين يعيشون في بلاده، وسألهم عن الثمن الذي يرضونه كي يلتهموا آباءهم حين يتوفوا، فأجابوه بأنّه لا شيء البتة على ظهر الأرض يمكن أنْ يغريهم بفعل هذا. حينئذٍ استدعى داريوش الكالاتيين الذين يأكلون آباءهم بالفعل، وفي حضور الإغريق بمعونة من يترجم لهم، سأل الكالاتيين عن الثمن الذي قد يرضونه لكي يحرقوا جثث آباءهم حين يتوفون. فكان أنْ تعالت صرخاتهم وناشدوه ألا يذكر مثل هذه الشناعة».

على صعيد شخصي، إن ملخصي المفضل للاختلافات الأخلاقية المعاصرة، هو ما قام به عالم الإنثروبولوجيا الثقافية ريتشارد شويدر من تقديمه قائمة طويلة من الأشياء التي تعتبرها المجتمعات المختلفة محايدة أو جديرة بالثناء أو مروعة مثل:

(1) Herodotus, *The Histories*, rev. ed., trans. Aubrey de Selincourt (New York: Penguin, 2003).

النشــوز، تعدد الزوجات، الإجهاض، الختان، العقاب البدني، عقوبة الإعدام، الرأسـمالية، الديمقراطية، حرق العلم، الشـعر الطويل، عدم وجود شـعر، أكل اللحوم، التلقيح الطبي، الطلاق، زواج الأرملة، الزواج المدبر، الآباء والأُمهات الذين لا ينامون مع أطفالهم في نفس السرير، الآباء والأُمهات الذين ينامون مع أطفالهم في نفس السرير، السماح للنساء بالعمل، عدم السماح للنساء بالعمل[١].

إن مقطعي هيرودوت وشويدر يوضحان التنوع، لكنهما ـ رغم ذلك ـ يشيران إلى وجود قواسم مشتركة. فالتقارير الإثنوغرافية غالباً ما تتجاهل المشتركات البشرية، ويرجع ذلك جزئياً إلى ميل علماء الإنثروبولوجيا إلى المبالغة في التركيز على مناحي الاختلاف بين أفراد البشر[٢] (وقد وصف هذه الحالة عالم الإنثروبولوجيا موريس بلوخ بأنه "سوء تصرف احترافي") ويرجع ذلك جزئياً إلى أنه من منظور إنثروبولوجي لا يوجد شيء مثير للاهتمام يمكن أن نقوله عن القواسم المشتركة؛ لأنه سيكون أشبه بأن تقرأ في دليل السفر أن الأشخاص الذين ستواجههم لديهم أنوف ويشربون الماء ويكبرون بمرور الزمن، ولا شك في أن مثل هذه الأُمور الطبيعية معروفة ولا تحتاج إلى تبيان.

على نفس المنوال، فإننا نعتبر من المسـلّم به أن الناس في كل مكان لديهم اسـتنكار طبيعي تجاه أعمال مثل الكذب وحنث الوعد والقتل. إن هيرودوت لا يتحدث عن الأشـخاص الذين لا يكترثون بما يُفعل بجثث الموتى؛ وشـويدر لا يصـف الأشـخاص

(1) R. Shweder, "Are Moral Intuitions Self-Evident Truths?," *Criminal Justice Ethics*13 (1994): 26. In other writings, though, Shweder is clear that moral universals exist as well; see, for example, R. Shweder, "Relativism and Universalism," in *Companion to Moral Anthropology*, ed. Didier Fassin (New York: Wiley), 85–102.

(2) M. Bloch, "The Past and the Present in the Present," *Man* 12 (1977): 278–92, quote from 285.

الذين لا يمتعضون عند سماعهم بشناعة مثل سفاح المحارم. لأن هؤلاء الناس لا وجود لهم.

ننتهي بهذا إلى أننا يجب أن نأخذ على محمل الجد فكرة أن لدينا مفاهيم أخلاقية فطرية ومشتركة. لكن لا يمكننا معرفة ما إذا كانت هذه الفكرة صحيحة قبل أن نقوم بدراسة عقول الأطفال، ومثل هذه الدراسة يصعب إجراؤها بسبب صعوبة معرفة ما يجري داخل رأس الطفل.

عندما كان أبنائي صغاراً، كنت أحدق فيهم وأتساءل ما الذي يحدق بي بالضبط؟

كانوا مثل كلبي، لكنهم أكثر روعة. (الآن أصبحوا مراهقين، رائعين من نواح كثيرة، لكنهم أقل إثارة للاهتمام من الناحية المهنية – أعرف كيف يكون الشعور بكونك مراهقًا).

يقول عالم النفس التنموي جون فلافيل ذات مرة أنه مستعد للتضحية بجميع شهاداته وتكريماته مقابل معرفة ما يفكر فيه طفل عمره عامان لمدة خمس دقائق فقط[1]، وانا مستعد للتضحية بشهر من حياتي من أجل تلك الدقائق الخمس – وسأضحي بستة أشهر من أجل خمس دقائق في رأس طفل رضيع.

جزء من المشكلة هو أننا لا نتذكر. الممثل الكوميدي لويس سيكيلي شبّه دماغ الطفل بلوحة الرسم المغناطيسية التي تمسحها نهاية كل يوم، فالذكريات لا تلتصق في أدمغتهم. حتى الأطفال الصغار لا يتذكرون طفولتهم، وعالم النفس تشارلز فيرنيهوغ

(1) Alison Gopnik, *The Philosophical Baby: What Children's Minds Tell Us About Truth, Love, and the Meaning of Life* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2009).

يصف سؤاله لإبنته البالغة من العمر ثلاث سنوات عن شعورها عندما كانت طفلة أصغر. حاولت الطفلة أن تكون مفيدة، فقالت: «أتعرف يا أبي؟ ... عندما كنت صغيرة، كان الجو مشمسًا جدًا»[1].

ان دراسة الأطفال أكثر صعوبة حتى من دراسة الفئران والحمام، والتي يمكنها على الأقل الجري في المتاهات أو النقر على العتلات.

لقد حقق بعض الباحثين النفسيين وعلماء الأعصاب بداية واعدة في مجال تصوير أدمغة الأطفال. لكن طرق تصوير الدماغ المصممة للاستخدام مع البالغين غالباً ما تكون غير مناسبة للأطفال لأنها خطرة جداً عليهم أو لأن الأشخاص ـــ الخاضعين للتصوير ـ يجب أن يظلوا مستيقظين وثابتين لفترة طويلة من الزمن.

يمكن استخدام بعض التقنيات الخاصة، مثل التحليل الطيفي للأشعة تحت الحمراء القريبة، بسهولة أكبر مع الأطفال، وقد تكون هناك اكتشافات مهمة في المستقبل. لكن في هذه المرحلة، لا تخبرنا البيانات المقدمة – حول التغيرات في أُوكسجين الدم في أجزاء من الدماغ – الشيء الكثير عن تفاصيل الحياة العقلية. إذا كنت تريد معرفة مكان حدوث بعض العمليات الإدراكية في دماغ الطفل، فهذه الطرق هي رائعة للغاية. لكنها عادة ما تكون غير قادرة على الإجابة على أسئلة أكثر دقة حول كيفية تفكير الأطفال وما يعرفونه.

(1) Charles Fernyhough, *A Thousand Days of Wonder: A Scientist's Chronicle of His Daughter's Developing Mind* (New York: Avery, 2009), 5.

لحسن الحظ، لدينا أساليب أفضل، ففي الثمانينيات من القرن الماضي، بدأ علماء النفس في الاستفادة من أحد السلوكيات القليلة التي يمكن للأطفال الصغار التحكم فيها: ألا وهي حركة أعينهم. فهي تعتبر حقاً نوافذ تمكننا من الدخول إلى عقل الطفل. مدة الوقت التي يحدق فيها الأطفال في جسم ما أو شخص ما - "مدة الانتباه" - يمكن أن تخبرك بالكثير عن فهمهم، وأحد أساليب مدة الانتباه أُسلوب الاعتياد. حيث يكون الأطفال ـ كما البالغين ـ إذا رأوا الشيء نفسه مراراً وتكراراً، فسيشعرون بالملل ويشيحون عنه بنظرهم.

"الملل" أو "الإعتياد" - هو استجابة لحالات الرتابة، لذلك تكشف هذه الطريقة عما يراه الأطفال متشابهاً ومختلفاً. لنفترض أنك مهتم بما إذا كان الأطفال يمكنهم معرفة الكلاب من القطط. اعرض عليهم صور القطط مراراً وتكراراً، حتى يشعروا بالملل من القطط. ثم اعرض عليهم صورة كلب. إذا ما نظروا اليها بانتباه وتحمس، يعني انهم يستطيعون التمييز. أما إذا كانوا لا يزالون يشعرون بالملل، فيعني أنهم لا يستطيعون ذلك، وبشكل عام، يمكن أن تساعد أساليب البحث في تقييم ما يراه شخص ما شيئا جديدًا أو مثيرًا للاهتمام أو غير متوقع، وهذه الأساليب مناسبة بشكل خاص للأطفال.

تشير أخصائية علم النفس أليسون جوبنيك إلى أنه يمكن لفت انتباه البالغين من خلال أحداث خارجية. نحن نلتفت بشكل غريزي إذا ما نادى شخص ما باسمنا، ولكننا عادةً ما نسيطر على ما نشاهده بمحض إرادتنا، مثل امكانية اختيار التفكير في قدمنا اليسرى، أو تصور ما تناولناه في وجبة الإفطار، وما إلى ذلك. لكن الأطفال هم إلى حد كبير تحت رحمة البيئة. حيث أن جزء الدماغ المسؤول عن الكبح والسيطرة، القشرة الجبهية

الأمامية، هي من بين آخر من ينمو. تقارن جوبنيك وعي الطفل بوقفة شخص بالغ في وسط مدينة أجنبية، مبهوراً تماماً ويتلفت باستمرار لرؤية أشياء جديدة، ويعاني من أجل فهم كل شيء. الأُمور هنا أسوأ بالنسبة للطفل، لأنه حتى أكثر الأشخاص توتراً يمكن أن يختاروا التفكير في شيء آخر: مثل التطلع إلى العودة إلى الفندق؛ أو تصور كيف سنصف رحلتنا إلى الأصدقاء؛ أو الاستعانة بالخيال أو أحلام اليقظة أو الصلاة. لكن الأطفال محددون بالزمان والمكان فقط[1]. فلا عجب أنهم في كثير من الأحيان يكونون صعبي الإرضاء. لحسن الحظ بالنسبة للباحثين، فإن افتقارهم إلى السيطرة على أنفسهم يجعل منهم عرضة لأساليبنا البحثية.

غالباً ما تكون الدراسات التي تعتمد مدة الانتباه صعبة الإجراء، ويرجع ذلك ـ جزئياً ـ إلى ضرورة الحرص على التأكد من استجابة الأطفال للشيء الصحيح. على سبيل المثال، وجدت العديد من الدراسات أن الأطفال يميزون بين كائنين من ثلاثة كائنات. إذا جعلت الأطفال يشعرون بالملل من خلال عرضهم على سلسلة من الصور لكائنين – كلبين، وكرسيين، وحذاءين، وما إلى ذلك – وبعد ذلك عرضت عليهم صورة لثلاثة كائنات، فسينظرون لمدة أطول، مما يشير إلى أنهم يستطيعون معرفة الفرق بين الاثنين والثلاثة. لكن أحد المشككين سيشير إلى أن كائنين يشغلان عادة مساحة أقل مما تشغله ثلاثة كائنات، لذلك ربما يستجيب الأطفال للفضاء الذي تملؤه الكائنات (أقل مقابل أكثر). يمكن للمرء أن يحاول معالجة ذلك من خلال مقارنة كائنين أكبر بثلاثة كائنات أصغر، بحيث يملآن المساحة الكلية نفسها، لكن حينها سيُقلق المشككين أن الأطفال

(1) Gopnik, *Philosophical Baby*.

يستجيبون، ليس لعدد الكائنات بل لحجمها. لقد أصبح الأمر معقداً، بشكل رائع لتصميم دراسة تعزل المتغيرات فقط ذات الصلة، لكنه ممكن.

لقد أدى تطور أساليب مدة الانتباه إلى إحداث ثورة في طريقة تفكيرنا حول عقول الأطفال. الدراسات الأُولى التي استخدمت هذه الطريقة ركزت على معرفة الطفل المبكرة بالأشياء المادية – "الفيزياء الساذجة" لدى الأطفال[1]، وقد أظهر علماء النفس للأطفال حيلاً سحرية، تتمثل بممارسات تبدو كأنها تنتهك بعض قوانين الكون، مثل إزالة الدعامات من تحت كتلة وجعلها تطفو في الجو، غير مسنودة؛ أو جعل كائن يختفي ثم يظهر في مكان آخر؛ أو يمكنك وضع مكعب خلف حجاب وجعل الحجاب يسقط إلى الخلف على مساحة فارغة. إذا توقع الأطفال أن العالم يعمل وفقًا لمبادئ الفيزياء، فلابد أن يجدوا هذه النتائج مفاجئة، ومدد انتباههم تظهر أنهم بالفعل يجدونها مفاجئة. فالأطفال ينظرون إلى هذه المشاهد لفترة أطول من المشاهد المماثلة في جميع النواحي التي لا تنتهك القوانين الفيزيائية.

لقد أشارت مجموعة كبيرة من الأبحاث الآن إلى أن الأطفال – على عكس ما تدرسه جحافل علم النفس منذ عقود – يفكرون في الأشـياء إلى حد كبير كما يفكر الكبار، بأنها كتل متصلة تتحرك كوحدات صلبة وخاضعة للجاذبية، وتتحرك في مسارات مستمرة عبر المكان والزمان.

(1) See, for example, R. Baillargeon, "Object Permanence in 3½ and 4½ Month Old Infants," *Developmental Psychology* 23 (1987): 655–64; E. Spelke, "Principles of Object Perception," *Cognitive Science* 14 (1990): 29–56. For a review, see E. S. Spelke and K. D. Kinzler, "Core Knowledge," *Developmental Science* 10 (2007): 89–96.

في دراسة كلاسيكية، وجدت كارين وين أن الأطفال يتمكنون من القيام بعمليات الرياضيات البدائية على الأشياء[١]. وإثبات ذلك بسيط جداً؛ اعرض الطفل على مسرح دمى خال، ضع ستارة في منتصف المسرح، وضع دمية ميكي ماوس وراء الستارة، ثم ضع دمية ميكي ماوس أخرى وراء الستارة. الآن ارفع الستارة. سيتوقع البالغون مشاهدة دميتين، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأطفال البالغين من العمر خمسة أشهر؛ إذا رفعت الستارة لتكشف عن دمية أو ثلاث دمى، فإن الأطفال سينظرون لمدة أطول مما يفعلون إذا ما كشفت الستارة عن دميتين. لقد استخدم الباحثون هذه الأساليب ـ أيضًا ـ لاستكشاف توقعات الأطفال عن الأشخاص.

لقد عرفنا منذ فترة طويلة أن الأطفال يستجيبون بطريقة خاصة لأشخاص آخرين. ينجذبون لهم، تعجبهم نبرة الأصوات البشرية، خاصة تلك التي يعرفونها، وتعجبهم ملامح الوجوه البشرية[٢]. وهم ينزعجون عندما لا تجري التفاعلات الكلامية بالطريقة التي يتوقعونها. إليك طريقة لإخراج الطفل عن طوره: اجلس في الجانب الآخر من الطفل، وتفاعل معه لفترة من الوقت، ثم اصمت فجأة. إذا استمر هذا الأمر لأكثر من بضع ثوانٍ دون أن تتحرك، فسيستاء الطفل حقاً[٣]. في إحدى الدراسات، جلس الأطفال الذين يبلغون من العمر شهرين على شاشة تعرض والدتهم، وعندما تفاعلت الأُم مع

(1) K. Wynn, "Addition and Subtraction by Human Infants," *Nature*358 (1992): 749–50. For a review of extensions and replications, see K. van Marle and K. Wynn, "Quantitative Reasoning," in *Encyclopedia of Cognitive Science*, ed. Lynn Nadel (London: Nature Publishing Group, Macmillan, 2002). For a study of babies' understanding of ratios, see K. McCrink and K. Wynn, "Ratio Abstraction by 6-Month-Old Infants," *Psychological Science* 18 (2007): 740–46.

(2) For review, see Paul Bloom, *Descartes' Baby: How the Science of Child Development Explains What Makes Us Human* (New York: Basic Books, 2004).

(3) E. Tronick, H. Als, L. Adamson, S. Wise, and T. B. Brazelton, "The Infant's Response to Entrapment Between Contradictory Messages in Face-to-Face Interaction," *Journal of American Academy of Child Psychiatry* 17 (1978): 1–13.

الأطفال عن طريق التداول بالفيديو في الوقت الفعلي، استمتع الأطفال بذلك، ولكن عندما كان هناك تأخير زمني لبضع ثوان، أصبح الأطفال متوترين[١].

أخصائية علم النفس أماندا وودوارد صممت دراسة بحثية لإظهار أن الأطفال يعرفون أن للأفراد أهدافاً[٢]. تعتمد الدراسة على وضع طفل أمام شيئين كالطابة واللعبة وجعله يشاهد يداً تمتد لأخذ أحد هذه الأشياء. ثم عكس الباحثون مواقع الأشياء. فتوقع الأطفال أنه عندما تمتد اليد مرة أخرى، يجب أن تذهب لنفس اللعبة، وليس لنفس الموقع. فتوقع الأطفال هذا كان يخص الأيدي فقط. إذا رأوا كماشة معدنية تمتد الى اللعبة، فإن النتيجة تكون بعيدة.

في مجموعة أُخرى من الدراسات، أوضح الأخصائيان في علم النفس كريستين أُونيشي ورينيه بايلارجون أن الأطفال بعمر خمسة عشر شهراً يمكنهم توقع سلوك الشخص على أساس اعتقاده الخاطئ[٣]. شاهد الأطفال شخصاً بالغاً وهو ينظر إلى شيء ما في أحد الصناديق، ثم لاحظوا أن الشيء ينتقل إلى صندوق آخر بينما كانت عينا الشخص معصوبة، وبعدها توقع الأطفال أن يصل الشخص البالغ إلى الصندوق الأصلي، وليس إلى الصندوق الذي يحتوي على الشيء بالفعل. هذا استنتاج نفسي متطور، وهو نوع من الفهم الثري للعقول الأُخرى والذي كان معظم علماء النفس يعتقدون أنه يبدأ في الأطفال عند سن الرابعة أو الخامسة.

(1) T. Field, N. Vega-Lahar, F. Scafidi, and S. Goldstein, "Effects of Maternal Unavailability on Mother-Infant Interactions," *Infant Behavior and Development* 9 (1986): 473–78; Tronick, Als, Adamson, Wise, and Brazelton, "Infant's Response to Entrapment."

(2) A. Woodward, "Infants Selectively Encode the Goal of an Actor's Reach," *Cognition* 69 (1998): 1–34.

(3) K. H. Onishi and R. Baillargeon, "Do 15-Month-Old Infants Understand False Beliefs?," *Science* 308 (2005): 255–58.

إذن حتى في مرحلة مبكرة من حياتنا نحن كائنات اجتماعية تملك تقديراً أساسياً لعقول الآخرين.

الدراسة التي دفعتني إلى البحث في الحياة الأخلاقية للأطفال لم تكن مصممة للنظر في الأخلاق على الإطلاق. كان الهدف منها استكشاف تطور الفهم الاجتماعي للأطفال. كنت أنا وزملائي مهتمين في ما إذا كان بإمكان الأطفال التنبؤ بدقة بكيفية استجابة الأفراد لشخص كان لطيفاً أو قاسياً بالنسبة لهم. تساءلنا على وجه الخصوص ما إذا كان الأطفال يفهمون أن الأفراد يميلون إلى التعامل مع أولئك الذين ساعدوهم وتجنب أولئك الذين أضروا بهم.

تجدر الإشارة هنا بأن جميع دراسات الأطفال التي شاركت فيها تُجرى في مركز إدراك الأطفال الرضع في جامعة ييل، الذي تديره زميلتي في العمل (وزوجتي) كارين وين. حيث تتم هذه التجارب دائماً بالتعاون مع كارين وفريقها من طلبة البكالوريوس والدراسات العليا وزملاء في دراسات ما بعد الدكتوراه.

قبل الوصول إلى نتائجنا، سأُعطيك نظرة عامة على كيفية إجراء مثل هذا البحث في المختبر: تستغرق التجربة النموذجية حوالي خمس عشرة دقيقة وتبدأ مع أحد الوالدين وهو يحمل الطفل في غرفة اختبار صغيرة. في معظم الأوقات يجلس الوالد على كرسي واضعاً الطفل في حضنه، رغم أنه في بعض الأحيان يكون الطفل مربوطاً بكراس مرتفعة ويجلس الوالد خلفه. في هذه المرحلة، فإن بعض الأطفال يكونون إما نائمين أو متعبين للغاية؛ في المتوسط، ينتهي هذا النوع من الدراسة بخسارة حوالي ربع المشاركين.

في دراستنا الأولية، بقيادة الزميلة في دراسات ما بعد الدكتوراه، فاليري كوهلمير، كنا بحاجة إلى اطلاع الأطفال على تفاعلات لطيفة وسيئة. التفاعل السيء الأكثر وضوحاً يتمثل في أن يقوم شخص ما بضرب شخص آخر، لكننا قلقون من أن بعض الآباء – وربما هي لجنة أخلاقيات البحوث التي تجري على البشر في جامعة ييل – لن يكونوا مرتاحين لمشاهدة الأطفال وهم يشاهدون التفاعلات العنيفة. لذا قررنا، الاعتماد على العمل السابق لعالم النفس ديفيد بريماك وزوجته آن بريماك، اللذين عرضا أفلاماً متحركة للأطفال يعرض فيها أحد الكائنات وهو يساعد كائناً آخر على الدخول إلى فجوة أو يعرقله من الدخول إليها[1]. النتائج التي توصلوا إليها تشير إلى أن الأطفال كانوا ينظرون إلى أعمال المساعدة على أنها إيجابية وأعمال العرقلة على أنها سلبية.

بناءً على هذا البحث، أنشأنا رسوماً متحركة تظهر فيها الأشكال الهندسية وهي تساعد أو تعيق بعضها البعض[2]. على سبيل المثال، تم عرض كرة حمراء وهي تحاول جاهدة صعود منحدر حاد. في بعض الحالات، قام مربع أصفر بالتدخل ودفع الكرة بلطف إلى أعلى المنحدر (مساعدة)؛ ولكن في حالات أُخرى، تدخّل مثلث آخر أخضر ودفعها إلى الأسفل (عرقلة). بعد ذلك، رأى الأطفال أفلاماً تتعامل فيها الكرة مع المربع

(1) D. Premack and A. J. Premack, "Infants Attribute Value +/- to the Goal-Directed Actions of Self-Propelled Objects," *Journal of Cognitive Neuroscience* 9 (1997): 848–56.

(2) V. Kuhlmeier, K. Wynn, and P. Bloom, "Attribution of Dispositional States by 9-Month-Olds: The Role of Faces," under review; V. Kuhlmeier, K. Wynn, and P. Bloom, "Attribution of Dispositional States by 12-Month-Old Infants," *Psychological Science* 14 (2003): 402–8; J. K. Hamlin, K. Wynn, and P. Bloom, "Social Evaluation by Preverbal Infants," *Nature* 450 (2007): 557–59. To see examples of what the babies are shown, go to "Social Evaluation by Preverbal Infants," 2007, www.yale.edu/infantlab/socialevaluation/Helper-Hinderer.html

أو مع المثلث. سمح لنا هذا باستكشاف توقعات الأطفال حول كيفية تصرف الكرة في وجود هذه الشخصيات المساعدة والمعرقلة.

وجدنا أن الأطفال في عمر تسعة أشهر واثني عشر شهراً ينظرون لمدة أطول عندما تقترب الكرة من الشخصية التي أعاقتها، وليس تلك التي ساعدتها. كما وجدنا هذا التأثير قوياً عندما كانت الشخصيات المتحركة لها عيون، مما يجعلها تبدو أشبه بالأشخاص، وهذا يدعم فكرة أن ثمة حساً اجتماعياً طيباً يصاحب الأطفال في أحكامهم، وعندما تم نزع سمات الوجه البشري (العيون والفم على سبيل المثال) عن تلك الأشكال تغيرت أنماط وقت الانتباه عند الأطفال في عمر اثني عشر شهراً، واختفى التأثير لدى الأطفال الذين يبلغون من العمر تسعة أشهر (نظروا في كل سيناريو بالمقدار نفسه من الوقت).

يبدو أن هذا الفهم يظهر في مرحلة ما بين الشهر السادس والتاسع من العمر، وقد خلصت دراسة لاحقة، تستخدم شخصيات ثلاثية الأبعاد عليها سمات الوجه البشري، إلى نفس النتائج على عينة جديدة من الأطفال بعمر عشرة أشهر ولكنها لم تجد أي تأثير على الأطفال بعمر ستة أشهر.

تستكشف هذه الدراسات توقعات الأطفال حول كيفية تصرف الشخصيات تجاه المساعد والمعرقل لهم، لكنها لا تخبرنا بما يفكر فيه الأطفال أنفسهم بشأن المساعد والمعرقل. هل لديهم تفضيل بينهما؟

من منظور البالغين، المساعد هو شخصٌ شهم والمعرقل هو شخصٌ وغد.

في سلسلة من التجارب التي أُجريت بقيادة كيلي هاملين، طالبة الدراسات العليا آنذاك، سألنا عما إذا كان لدى الأطفال الانطباع نفسه.

حيث استخدمت مجموعتنا الأُولى من الدراسات أشكالاً هندسية ثلاثية الأبعاد يمكن مسكها مثل الدمى بدلاً من الرسوم المتحركة[1]. (قد يبدو غريباً أننا استخدمنا أشكالاً هندسية بدلاً من أن نستعين بأشخاص حقيقيين، ولكن الأطفال والأطفال الصغار غالباً ما يكونون غير مستعدين للتعامل من الغرباء البالغين)، وبدلاً من استخدام مقاييس مدة الانتباه، والتي تعتبر مثالية لاستكشاف توقعات الأطفال، اعتمدنا مقاييس الوصول، التي تعتبر وسيلة أفضل لتحديد ما يفضله الأطفال أنفسهم. كانت السيناريوهات هي نفسها المستخدمة في التجربة السابقة. إما أن تحصل الكرة على مساعدة للوصول إلى أعلى المنحدر أو يتم عرقلتها ودفعها إلى أسفل المنحدر. ثم وضع الباحثون الأشكال المساعدة والمعرقلة أمام الطفل لمعرفة الشخص الذي سيصل إليه.

(بعض التفاصيل التجريبية: للتأكد من أن الأطفال كانوا يستجيبون للسيناريو الفعلي، وليس فقط للألوان والأشكال الخاصة بالأشكال الهندسية المختلفة، قمنا بشكل منتظم بتغيير الأشكال المساعدة والمعرقلة – على سبيل المثال، حصل نصف الأطفال على المربع الأحمر كمساعد؛ وحصل نصف على المربع الأحمر كمعرقل، وكان هناك شاغل آخر يتعلق بالإدراك اللاواعي: إذا كان الكبار من حول الطفل يعرفون من هم الأشخاص الطيبون والأشرار، فقد ينقلون هذه المعلومات بطريقة ما. لتجاوز هذه

(1) Hamlin, Wynn, and Bloom, "Social Evaluation by Preverbal Infants."

المشكلة، منعنا المجربة التي تحمل الشخصيات من رؤية عرض العرائس لذا لم تعرف الإجابة "الصحيحة"، كما أغلقت والدة الطفل عينيها في لحظة الاختيار).

كما توقعنا، فضل الأطفال بعمر ستة أشهر وعشرة أشهر بأغلبية ساحقة الفرد المساعد على الفرد المعرقل. لم يكن هذا فرقاً إحصائياً طفيفاً؛ فقد اختار جميع الأطفال تقريباً الشكل الطيب.

هذه النتيجة مفتوحة لثلاثة تفسيرات. قد يبدي الأطفال ـ فقط ـ انجذاباً إلى الشخص المساعد، أو فقط نفوراً من الشخص المعرقل، أو كليهما. لاستكشاف ذلك، قدمنا شخصية جديدة لم تساعد أو تعرقل. فوجدنا أنه، في حالة الاختيار، فضل الأطفال الشخصية المساعدة على الشخصية المحايدة وفضلوا الشخصية المحايدة على الشخصية المعرقلة، مما يشير إلى أن الأطفال قد انجذبوا إلى الشخصية اللطيفة ونفروا من الشخصية الخبيثة. مرة أُخرى، لم تأت هذه النتائج بفارق بسيط؛ كان الأطفال في كل مرة تقريباً يظهرون هذا النمط من الاستجابة.

ثم تابعنا هذا الأمر مع زوج من الدراسات التي تتعامل مع أطفال في عمر ثلاثة أشهر[1]. الأطفال في هذا العمر أشبه بالدودة؛ إذ لا يمكنهم التحكم في أطرافهم بالصورة التي تتناسب مع أساليبنا البحثية المعتادة. لكننا لاحظنا شيئاً مع الأطفال الأكبر سناً وهو ما أعطانا فكرة عن كيفية المضي قدماً. بعد تحليل مقاطع الفيديو، وجدنا أنهم لم يختاروا الشخصية المساعدة فحسب؛ وإنما نظروا إليها طويلاً أيضاً. هذا يشير إلى أنه

(1) J. K. Hamlin, K. Wynn, and P. Bloom, "3-Month-Olds Show a Negativity Bias in Social Evaluation," *Developmental Science* 13 (2010): 923–39.

بالنسبة للأطفال الأصغر سناً، يمكننا استخدام اتجاه رؤيتهم كمؤشر على التفضيل. عندما أظهرنا الشخصيتين للأطفال في الوقت نفسه، كان التأثير قوياً حيث كان الأطفال البالغون من العمر ثلاثة أشهر يفضلون أن ينظروا إلى الأشخاص الطيبين.

في دراسة ثانية عرضت فيها شخصية محايدة، حصلنا على نمط مثير من النجاح والفشل. مثل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ستة وعشرة أشهر، نظر الأطفال الأصغر سناً لفترة أطول إلى الشخصية المحايدة لفترة أطول من نظرهم إلى الشخصية المعرقلة. لكنهم لم يفضلوا الشخصية المساعدة على الشخصية المحايدة. يتماشى ذلك مع "الانحياز السلبي"[1] الذي يتم العثور عليه غالباً في البالغين والأطفال: الحساسية للسوء (في هذه الحالة، الشخصية المعرقلة) هي أكثر قوة، وتبرز في وقت أبكر من الحساسية للخير (الشخصية المساعدة).

نُشرت دراسات الشخصية المساعدة والمعرقلة الأولية في مجلة "نيتشر" المرموقة، وأثارت الكثير من النقاش، سواء من المتحمسين لها أو المشككين، وصار يخشى زملاؤنا الأكثر نقداً من أن الأطفال ربما لم يستجيبوا فعلياً لحسن التفاعل أو سوئه، بل لبعض الجوانب غير الاجتماعية للمشهد. نحن أنفسنا أصبحنا قلقين حيال الشيء نفسه ولكن تجاربنا كانت تتمتع بمقومات معينة نأمل فيها أن تستبعد هذا الاحتمال. لقد اختبرنا الأطفال في سيناريوهات أُخرى تم فيها استبدال "الكرة المتسلقة" بكتلة خالية من ملامح الوجه البشري لا تتحرك من تلقاء نفسها، وقامت الشخصيتان المساعدة والمعرقلة بنفس

(1) A. Vaish, T. Grossmann, and A. Woodward, "Not All Emotions Are Created Equal: The Negativity Bias in Social-Emotional Development," *Psychological Bulletin*134 (2008): 383–403; P. Rozin and E. Royzman, "Negativity Bias, Negativity Dominance, and Contagion," *Personality and Social Psychology Review* 5 (2001): 296–320.

الحركات الجسدية، لكنهما الآن لم يقوما فعلياً بالمساعدة أو العرقلة. تسبب هذا التبديل في اختفاء التفضيل لدى الأطفال، مما يشير إلى أن الأطفال كانوا يستجيبون بالفعل للتفاعلات الاجتماعية، وليس فقط للحركات.

وفي مشروع تقوده ماريكو ياماغوتشي،[1] التي كانت آنذاك طالبة بكالوريوس في مختبر كارين، قام فريق البحث بإعادة اختبار الأطفال الذين تم اختبارهم قبل سنوات في الدراسات الأصلية التي قادتها فاليري كوهلمير التي تنبأ الأطفال فيها بسلوك الكرة التي تتعرض للعرقلة والمساعدة. اتضح أن أداءهم في تجربة المساعدة والمعرقلة الأصلية كان مرتبطاً بمهاراتهم في التفكير الاجتماعي كأطفال في الرابعة من العمر. يشير هذا أيضاً إلى أن تجارب المساعدة والعرقلة حقاً تستفيد من الفهم الاجتماعي للأطفال.

ومع ذلك، كان من المهم معرفة ما إذا كانت ستتحقق النتائج نفسها إذا ابتعدنا عن سيناريوهات الشخصيات المساعدة والمعرقلة الأصلية، لذلك ابتكرت كيلي وكارين مجموعات مختلفة من مسرحيات الأخلاق وعرضتها على الأطفال[2]. في إحدى هذه المسرحيات، كافحت إحدى الشخصيات من أجل رفع الغطاء عن الصندوق. في التجارب المتعاقبة، كانت إحدى الدمى تمسك الغطاء وتفتحه على الآخر، فيما تقفز دمية أُخرى على الصندوق وتغلقه. في سيناريو آخر تضمن أرنباً من الفرو يلعب بكرته ثم تذهب منه بعيداً، يتقدم بعدها أرنبان آخران مختلفا اللون، أحدهما يعطيه الكرة من جديد،

(1) M. Yamaguchi, V. Kuhlmeier, K. Wynn, and K. van Marle, "Continuity in Social Cognition from Infancy to Childhood," *Developmental Science* 12 (2009): 746–52.

(2) J. K. Hamlin and K. Wynn, "Five- and 9-Month-Old Infants Prefer Prosocial to Antisocial Others," *Cognitive Development* 26 (2011): 30–39.

والآخر يأخذ الكرة ويمضي. في معظم الحالات كان الأطفال الذين هم بعمر خمسة أشهر يختارون الشخصيات الجيدة - الشخصيات التي ساعدت في فتح الصندوق والتي ساعدت صاحب الكرة - وفضلوهم على الشخصيات السيئة.

تشير هذه التجارب إلى أن الأطفال لديهم تقدير عام للسلوك القبيح والحسن، وهو يشمل مجموعة من التفاعلات، بما فيها تلك التي لم يسبق أن رآها الأطفال من قبل.

الآن، بالتأكيد لم نثبت أن الفهم الذي يوجه اختيارات الأطفال يمكن أن يعد شيئاً أخلاقياً بالفعل. لكن استجابات الأطفال هذه لها بعض الخصائص المميزة لأحكام البالغين الأخلاقية. إنها أحكام محايدة، تتعلق بالسلوكيات التي لا تؤثر على الأطفال أنفسهم، وهي أحكام تتعلق بالسلوكيات التي يصفها البالغون بأنها جيدة أو سيئة. في الواقع، عندما أظهرنا المشاهد ذاتها للأطفال الصغار وسألناهم «من كان لطيفاً؟ من كان جيداً؟ من كان سيئاً؟ من كان لئيماً؟» أجابوا كما فعل الكبار، واعتبروا المساعد لطيفاً والمعرقل لئيماً[1].

أعتقد أننا نجد في الأطفال، ما وصفه الفلاسفة في عصر التنوير الإسكتلندي بالمعنى الأخلاقي. هذا ليس نفس الدافع للقيام بالخير وتجنب القيام بالشر. بل هو القدرة على إصدار أنواع معينة من الأحكام - للتمييز بين الخير والشر، واللطف والقسوة، ورغم أن آدم سميث يشك في وجود الحس الأخلاقي إلا أنه يصفه بأنه «يشبه إلى حد ما الحواس

(1) J. K. Hamlin, K. Wynn, and P. Bloom, "Social Evaluation by Preverbal Infants," poster presented at the meeting of the Society for Research in Child Development, Boston, 2007.

الخارجية. مثل الأجسام المتنوعة التي من حولنا، من خلال التأثير عليها بطريقة معينة، سيظهر أنها تمتلك الصفات المختلفة للصوت والذوق والرائحة واللون. كذلك فإن التأثيرات المختلفة للعقل الإنساني، من خلال لمس هذه الكلية المعينة بطريقة معينة، تمتلك الصفات المختلفة من الود والبغض، والفضيلة والشر، والصواب والخطأ»[1].

أعتقد أننا نملك حساً أخلاقياً بالفطرة، وسأعود إلى هذه النقطة مراراً وتكراراً في الصفحات التالية. لكن الأخلاق تنطوي على ما هو أكثر من مجرد القدرة على التمييز. فهي تستلزم بعض المشاعر والدوافع، مثل الرغبة في مساعدة الآخرين المحتاجين، والتعاطف مع أولئك الذين يعانون من الألم، والغضب تجاه القسوة، والشعور بالذنب تجاه تصرفاتنا المشينة والفخر تجاه تصرفاتنا الطيبة. لقد تفحصنا حتى الآن في الرأس؛ ماذا عن القلب؟!

(1) Smith, *Theory of Moral Sentiments*, 222.

الفصل الثاني
التعاطف والشفقة

لا يمكن للناس أن يكونوا ذوي أخلاق دون القدرة على تمييز الصواب من الخطأ. لكن إذا كنا نريد أن نوضح من أين تأتي الأعمال الأخلاقية ولماذا نتصرف أحياناً بلطف وإيثار، بدلاً من القسوة والأنانية – فهذا الحس الأخلاقي لا يكفي.

لمعرفة السبب، تخيل شخصاً يعاني من مشاكل نفسية كبيرة، وفي الوقت نفسه ينعم بذكاء عال ومهارات اجتماعية جيدة وببعضٍ من نفس الدوافع التي يتمتع بها الأشخاص العاديون، مثل الجوع والشهوة والفضول، لكنه يفتقر إلى الاستجابة الطبيعية تجاه معاناة الآخرين ويفتقد كذلك لبعض المشاعر مثل الامتنان والعار، وبسبب وجود تركيبة بغيضة من الجينات والتربية وتجربة شخصية غير اعتيادية[1]، أصبح بلا مشاعر أخلاقية.

لا حاجة إلى أن يكون مختلنا النفسي مهووساً بالأخلاق. يمكنه امتلاك القدرات البسيطة التي تحدثنا عنها في الفصل الأول. حتى مع كونه طفلاً مختلاً، فقد يفضل الشخص الذي يساعد الآخرين لصعود المنحدر على الشخص الذي يدفعهم إلى الأسفل، وبينما يكبر، سوف يتعلم قواعد مجتمعه وأعرافه. سيعرف مختلنا النفسي أنه من "الصواب" إنقاذ طفل ضائع و"من الخطأ" الاعتداء على امرأة فاقدة للوعي. لكنه لا يشعر بأي من المشاعر الأخلاقية المرتبطة بذلك، لذا فإن تقديره للصواب والخطأ يشبه

(1) E. Viding, R. J. R. Blair, T. E. Moffitt, and R. Plomin, "Evidence for Substantial Genetic Risk for Psychopathy in 7-Year-Olds," *Journal of Child Psychology and Psychiatry* 46 (2005): 592–97.

تقدير شخص أعمى منذ الولادة يستطيع قول إن العشب "أخضر" وإن السماء "زرقاء". يعني معرفة صحيحة من الناحية الوقائعية دون التجارب المعتادة المصاحبة.

تخيل أنك تحاول إقناع مريضك النفسي أن يكون لطيفًا مع الآخرين. قد تخبره أنه يحتاج إلى قمع أهوائه الأنانية من أجل الآخرين. يمكنك إلقاء بعض النصائح الفلسفية عليه، بعرض وجهة نظر الفلاسفة النفعيين بأنه يجب علينا التصرف بلطافة وقمع الأنانية لزيادة مجموع السعادة الإنسانية، أو بإخباره عن ضرورة إيمانويل كانط الحتمية، أو عن حجاب الجهل لجون راولز، أو عن مراقب آدم سميث المحايد. يمكنك إجراء تجربة أستراتيجية يستخدمها الآباء في كثير من الأحيان مع أطفالهم[1] وتسأله كيف سيكون شعوره إذا عامله شخص ما بنفس الطريقة التي يعامل بها الآخرين.

يمكنه أن يجيب على كل هذا، بأنه ببساطة لا يهتم بزيادة مقدار السعادة البشرية، وليس لديه أية مصلحة في الضرورة الحتمية أو أي شيء آخر. إنه يقدّر التكافؤ المنطقي بين إيذائه للآخرين وايذاء الآخرين له – فهو ليس أحمق رغم كل شيء، ولكن لا يزال هذا لا يحفزه على معاملة الناس بلطف.

المرضى النفسيون الحقيقيون يقدمون إجابات متشابهة إلى حد كبير. يروي عالم النفس ويليام دامون في مقابلة أجرتها صحيفة نيويورك تايمز مع معتدٍ يبلغ من العمر ١٣ عامًا هاجم بوحشية الضحايا المسنين[2]، بما فيهم امرأة عمياء. لم يبد أي ندم على أفعاله، معلقاً أنه يعتبر استهدافه للمكفوفين منطقياً لأنهم لن يتمكنوا من التعرف عليه لاحقاً. كتب

(1) Martin L. Hoffman, *Empathy and Moral Development: Implications for Caring and Justice* (New York: Cambridge University Press, 2000).

(2) William Damon, *The Social World of the Child* (San Francisco: Jossey-Bass, 1977), 18.

المراسل عن المقابلة: عندما سألت المهاجم عن الألم الذي سببه للمرأة، فوجئ الولد بهذا السؤال وأجاب: «ما الذي يدعوني للاهتمام بهذا؟ أنا لست هي. أما القاتل الشهير تيد بوندي فقد أعرب عن حيرته[1] من كل هذه الضجة حول جرائم القتل التي ارتكبها قائلاً: «أقصد، هناك الكثير من الناس»، ويلخص السفاح غاري جيلمور[2] حالة الأشخاص الذين لا يملكون مشاعر أخلاقية: «كنت دائماً قادراً على القتل..، ويمكنني أن أجرد نفسي تماماً من أي مشاعر تجاه الآخرين، وأُصبح دون عواطف. أعلم أنني أفعل شيئاً خاطئاً. لكن لا يزال بإمكاني المضي قدماً والقيام بذلك».

أو خذ هذه المقابلة مع بيتر وودكوك[3]، الذي اغتصب وقتل ثلاثة أطفال في سن مراهقته. بعد عقود في المصحة النفسية، مُنح تصريحاً للتجول لمدة ثلاث ساعات من دون رقابة. خلال هذه الفترة، قام بدعوة مريض آخر، وهو صديق مقرب له، للتجول معه في الغابة، ثم قتله بفأس.

المذيع: ما الذي كان يدور في ذهنك في ذلك الوقت؟ كان هذا شخصا تحبه.

وودكوك: الفضول، في الواقع، والغضب. لأنه رفض كل تقدماتي.

المذيع: ولماذا شعرت أن شخصاً ما يجب أن يموت نتيجة لفضولك؟

وودكوك: أردت فقط أن أعرف ما هو إحساس قتل شخص ما.

المذيع: لكنك قتلت ثلاثة أشخاص من قبل!

(1) Quoted in Paul Bloom, *Descartes' Baby: How the Science of Child Development Explains What Makes Us Human* (New York: Basic Books, 2004).

(2) Quoted in Bloom, *Descartes' Baby.*

(3) From Jon Ronson, *The Psychopath Test: A Journey Through the Madness Industry* (New York: Riverhead, 2011), 91.

وودكوك: نعم، لكن ذلك كان منذ سنوات وسنوات وسنوات.

ولك أن تقارن هذه الصور المزعجة مع المشاعر الأخلاقية التي تنشأ في أثناء الطفولة الطبيعية. لقد ذكر تشارلز داروين بعض الأمثلة التوضيحية[١] عن هذه المشاعر الأخلاقية في مقالته "سيرة ذاتية لطفل رضيع" المنشورة عام ١٨٧٧ في مجلة "مايند" الفلسفية المرموقة، التي جاءت بتأثير من قراءته لمقال عن نمو الطفل في المجلة نفسها، مما دفعه إلى التفكير في الملاحظات التي جمعها قبل سبعة وثلاثين عاماً عندما راقب نمو ابنه ويليام، الصبي الذي وصفه بفخر بأنه «معجزة تجسد الجمال والذكاء».

ذكرت اليوميات ردود فعل وليام الجسدية في البداية «العطس، والفواق، والتثاؤب، والتمدد، وبالطبع المص والصراخ، كلها كان يؤديها طفلي بشكل جيد»، وقد تبعت ردودَ الفعل الجسدية تلك البيانات التي وصفها داروين بأنها "العواطف الأخلاقية" بحلول نصف العام الأول من حياته، حيث بدأ وليام بالاستجابة لما كان يلاحظه من معاناة الآخرين[٢]، كما ذكر داروين: «فيما يتعلق بشعور التعاطف، فقد تجلى بوضوح بعد ستة أشهر وأحد عشر يوماً من خلال وجهه الحزين وبزوايا فمه المكتئبة، عندما تظاهرت مربيته بالبكاء».

وبعد ذلك، لاحظ داروين رضا ويليام عن تصرفاته الطيبة[٣]: «عندما كان عمره سنتين وثلاثة أشهر، أعطى آخر قطعة من كعكة الزنجبيل لأُخته الصغيرة، ثم صرخ

(1) Charles Darwin, "A Biographical Sketch of an Infant," *Mind* 2 (1877): 285–94.

(2) Darwin, "Biographical Sketch," 289.

(3) Darwin, "Biographical Sketch," 291.

بدرجة عالية من الاستحسان الذاتي "دودي لطيف، دودي لطيف"»، وبعد أربعة أشهر من ذلك، بدت عليه أُولى علامات الشعور بالذنب والخجل[1]: «التقيت به وهو يخرج من غرفة الطعام وفي عينيه بريق استثنائي، ومضيت خلفه إلى الغرفة المجاورة لمعرفة من كان هناك، فوجدت أنه كان يتناول السكر المطحون، الذي سبق وأن منعناه عنه، وبما أنه لم يسبق أن تعرض للعقوبة بأي شكل من الأشكال (سواء على تناول السكر أو غير ذلك)، فمن المؤكد أن أسلوبه الغريب لم يكن بسبب الخوف، وأفترض أنه كان إثارة ممتعة تتصارع مع ضمير».

بعد أسبوعين كتب داروين قائلاً: «لقد قابلته وهو يخرج من نفس الغرفة، وكان يتطلع إلى مريلته التي قام بلفها بعناية؛ ومرة أخرى، كان أُسلوبه غريباً للغاية لدرجة أنني عقدت العزم على رؤية ما كان داخل مريلته، على الرغم من أنه قال إنه لا يوجد شيء وأمرني مراراً وتكراراً "بالرحيل"، وجدتها ملطخة بعصير المخلل؛ كان خداعاً مخططاً له بعناية»[2].

لا شك في أننا نرى في سلوك الطفل وليام انطباعاً واضحاً عن معركة الخير والشر- التي تمثل الحياة اليومية.

غالباً ما يتصرف الأشخاص العاديون بشكل سيء للغاية إذا اعتقدوا أنهم لن يُحاسبوا على أفعالهم، ويمكننا جميعاً كبح جماحنا في بعض الأحيان عندما نواجه السكر المطحون والمخللات وغيرها من الإغراءات. لكن من الواضح أيضاً أن الضمير يبرز في سن مبكرة

(1) Darwin, "Biographical Sketch," 292.

(2) Darwin, "Biographical Sketch," 292.

لمساعدتنا على مقاومة تلك الرغبات. في الواقع، أننا في العديد من الحالات، لا نحتاج إلى التهديد بالعقاب حتى نصبح صالحين، لأن التصرف بأنانية أو قسوة يمكن أن يكون مزعجاً بحكم طبيعته. أحد الأمثلة على ذلك يأتي من دراسة أُجريت في الثلاثينيات من القرن الماضي حيث طرحت أسئلة من قبيل «ما هو المبلغ الذي سيجعلك تخنق قط بيديك؟»[1] كان متوسط الإجابة ١٠٠٠٠ دولار – حوالي ١٥٥٠٠٠ دولار بالقيمة الحالية للدولار. طلب نفس الأفراد نصف المبلغ فقط للموافقة على سحب أحد أسنانهم الأمامية.

لكن المريض النفسي– سيخنقها مقابل مبلغ أقل من ذلك بكثير. في الواقع، إذا كان يرغب بخنق القطة، فقد يفعل ذلك مجاناً – طالما لم يكن هناك أحد يراقب، لأنه ربما يكون ذكياً بما يكفي ليعرف أن هذا سيزعج الناس وأن النبذ والعقاب الناتج سيكونان عائقاً أمام الأهداف الأُخرى التي كان يرغب في تحقيقها. فالاشمئزاز الذي يحصل عند الناس العاديين تجاه خنق القطط غير موجود عنده.

إن العديد من الروايات والأفلام والبرامج التلفزيونية، اليوم، تصور المرضى النفسيين على أنهم أفضل من الآخرين في بعض الجوانب – مخيفين ورائعين وناجحين، مثل الطبيب النفسي آكل لحوم البشر هانيبال ليكتر أو السفاح المحبوب ديكستر مورغان. يعتقد بعض علماء النفس وعلماء الاجتماع أن الاعتلال النفسي يمكن أن يكون مفيداً في

(1) Michael Sandel, *Justice: What's the Right Thing to Do?* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2009).

مجالي الأعمال والسياسة[١]. ونتيجة لذلك، فإن الصفات السيكوباتية ممثلة أكثر مما ينبغي في الأشخاص الناجحين.

إن المرضى النفسيين لديهم أوجه قصور معينة، بعضها خفي. فقد وجدت أخصائية علم النفس أبيجيل مارش وزملاؤها أن المرضى النفسيين بشكل ملحوظ لا يملكون إحساساً تجاه التعبير عن الخوف. يتعرّف الأشخاص العاديون على الخوف ويتعاملون معه كإشارة استغاثة، ولكن يعاني المختلون النفسيون من مشاكل في رؤيته، ناهيك عن التعامل معه بشكل مناسب. تروي مارش حكاية عن مريض نفسي تم اختباره بسلسلة من الصور وفشل مراراً وتكراراً في التعرف على تعبيرات الخوف، حتى اكتشف أخيراً ذلك قائلاً: «هذه هي النظرة التي يرمقني بها الناس قبل أن أطعنهم»[٢].

أوجه القصور الأُخرى هي أعمق من ذلك. إن النقص العام في المشاعر الأخلاقية – وعلى وجه التحديد عدم احترام الآخرين – قد يتحول إلى أن ينحدر بالمريض النفسي إلى أسفل السافلين. نحن، غير المختلين نفسياً، نقيّم باستمرار بعضنا البعض، نبحث عن الطيبة والعار وما شابه ذلك، ونستخدم هذه المعلومات لتحديد الأشخاص الذين يمكننا أن نثق بهم والأشخاص الذين يمكننا الانتماء إليهم.

المريض النفسي يحبذ التظاهر بذلك. لكن هذا صعب. من الصعب إجبار نفسك على الامتثال للقواعد الأخلاقية من غير التقدير العقلاني لما يتوقع منك القيام به. إذا كنت تشعر بالرغبة في خنق القطة، فستجد في نفسك صراعاً لكبح رغبتك تلك لكونك

(1) Paul Babiak and Robert D. Hare, *Snakes in Suits: When Psychopaths Go to Work* (New York: HarperCollins, 2006).
(2) A. A. Marsh and E. M. Cardinale, "Psychopathy and Fear: Specific Impairments in Judging Behaviors That Frighten Others," *Emotion* 12 (2012): 892–98.

تعلم أنها فعل مرفوض ومستنكر. فمن دون المقدار الطبيعي من الشعور بالعار والذنب، سيستسلم المرضى النفسيون إلى دوافعهم السيئة، وسيقومون بأشياء فظيعة بدافع الخبث والجشع أو حتى الملل البسيط، وعاجلاً أم آجلاً يتم القبض عليهم.

على الرغم من أن المرضى النفسيين يمكن أن يكونوا ناجحين على المدى القصير، إلا أنهم يميلون إلى الفشل على المدى الطويل وغالباً ما ينتهي بهم المطاف في السجن أو ما هو أسوأ.

دعونا نلق نظرة فاحصة على ما يفصلنا نحن العاديين عن المرضى النفسيين:

هناك العديد من أعراض الاعتلال النفسي، بما في ذلك الكذب القهري المرضي وعدم الندم أو الشعور بالذنب، لكن العجز الأساسي هو عدم الاكتراث بمعاناة الآخرين. فالمريض النفسي يفتقر إلى الشعور بالشفقة.

لفهم كيفية عمل الشفقة معنا جميعاً نحن غير المرضى النفسيين، يجب التمييز بين الشفقة والتعاطف. الآن، يستخدم بعض الباحثين المعاصرين المصطلحين بشكل متبادل، ولكن هناك فرق كبير بين الاهتمام بشخص (الشفقة) ووضع نفسك مكانه (التعاطف).

لم يستخدم آدم سميث كلمة التعاطف – لقد صيغت في عام ١٩٠٩، استناداً إلى كلمة Einfühlung الألمانية التي تعني "الشعور بالداخل" – لكنه وصفها جيدًا[1]: «نحن ندخل – إذا جاز التعبير – داخل جسد [الآخر]، ونصبح معه الشخص نفسه». التعاطف هو الدافع القوي، الذي لا يقاوم في أغلب الأحيان.

(1) Adam Smith, *The Theory of Moral Sentiments* (1759; repr., Lawrence, KS: Digireads.com, 2011), 13.

يقودنا التعاطف إلى الفرح بسعادة الآخرين. إن ردة فعلنا تجاه سعادة شخص آخر معقد يمكن أن تشوبها الغيرة – لماذا هو أكثر سعادة مني؟

ولكن لاتزال عدوى السعادة موجودة بوضوح. ابحث في يوتيوب عن مقطع فيديو باسم Hahaha، حيث يصدر رجل خلف الكاميرا أصواتاً غريبة بينما يضحك طفل يجلس على مقعد مرتفع بشكل هستيري كردة فعل على تلك الأصوات. أو ابحث عن فيديو آخر باسم "Baby Laughing Hysterically at Ripping Paper"، الذي حقق أكثر من ٥٨ مليون مشاهدة، مما يجعله أكثر شعبية من الكثير من مقاطع الفيديو على يوتيوب. تكمن جاذبية هذه المقاطع في متعة الأطفال؛ كما لو أنها تنتقل بالسحر، من رؤوسهم إلى رؤوسنا.

يقدم آدم سميث مثالاً آخر[1]: «عندما نقرأ كتاباً أو قصيدة مراراً لدرجة أننا لم نعد نجد أي متعة في قراءتها، لا يزال بوسعنا أن نسعد بقراءتها إلى رفيق. فهي بالنسبة له ما تزال جديدة. فنخوض معه في الدهشة والإعجاب التي تثيرها بشكل طبيعي فيه ...، ونتأمل في جميع الأفكار التي تقدمها في ضوء ما يظهر له..، ونسر ونستمتع بالتعاطف مع سعادته». سميث قد شرح للتو واحدة من أعظم متع الإنترنت: إعادة نشر النكات، ومشاركة صور الحيوانات اللطيفة، ومنشورات المدونة، ومقاطع الفيديو، وما إلى ذلك، ويجسد تحليله أيضاً أحد روائع كونك والداً – يحصل الأب على بعض التجارب الممتعة مثل الذهاب إلى حديقة الحيوان وتناول الآيس كريم، للمرة الأولى مع أطفاله من جديد.

(1) Smith, *Theory of Moral Sentiments*, 13.

هناك نظرية عصبية شائعة لشرح كيفية عمل التعاطف - شبكة الخلايا العصبية المرآتية[١]. تم العثور على هذه الخلايا في الأصل في أدمغة قرود المكاك، وقد لوحظ تفعيل للخلايا الدماغية عند مشاهدتها حركات معينة يشابه التفعيل المتولد حين تقوم القردة بهذه الحركة نفسها، فهي لا تفرق بين الذات والآخر، وهي موجودة في الرئيسيات الأُخرى، بما في ذلك البشر.

تسبب اكتشاف هذه الخلايا العصبية بضجة كبيرة، حيث قام أحد علماء الأعصاب البارزين بمقارنتها باكتشاف الحمض النووي[٢]، ويقوم العلماء بدمج الخلايا العصبية المرآتية في نظريات اكتساب اللغة والتوحد والسلوك الاجتماعي، وما زالت هذه الخلايا العصبية تحظى بنفس الاهتمام الذي كانت تحظى به منذ عدة سنوات: عندما يناقش الناس أي جانب مثير للاهتمام من جوانب الحياة العقلية، فإن من البديهي أن أحدهم سوف يوحي في النهاية أنه يمكن تفسير ذلك كله عن طريق الخلايا العصبية المرآتية.

هذا يقودنا إلى نظرية الشفقة البسيطة التي يتم فيها:

الشخص (س) يرى الشخص (ص) وهو يتألم، فيشعر (س) بالألم من خلال قوة الخلايا العصبية المرآتية؛ ويريد (س) أن يختفي ألم (ص) لأنه بذلك سيختفي ألمه هو.

إن التعاطف، مدفوعاً بالخلايا العصبية المرآتية، يذيب الحدود بين الناس؛ حيث يصبح ألم شخص آخر بمثابة ألمك أنت، وتتحول المصلحة الشخصية إلى وجدان. مثل

(1) V. Gallese, L. Fadiga, L. Fogassi, and G. Rizzolatti, "Action Recognition in the Premotor Cortex," *Brain* 119 (1996): 593–609; G. Di Pellegrino, L. Fadiga, L. Fogassi, V. Gallese, and G. Rizzolatti, "Understanding Motor Events: A Neurophysiological Study," *Experimental Brain Research* 91 (1992): 176–80.

(2) V. S. Ramachandran, "Mirror Neurons and Imitation Learning as the Driving Force Behind 'the Great Leap Forward' in Human Evolution," 2009, Edge video, transcript at www.edge.org/3rd_culture/ramachandran/ramachandran_index.html.

هذه النظرية مبعث أمل لأن تكون مختزلة بالمعنى الأفضل وهو أن يتم شرح ظاهرة محيرة ومهمة – كاهتمامنا بالآخرين – في ضوء وجود آلية نفسية أساسية – التعاطف – وهذا ما يُفسَّر بدوره بواسطة آلية محددة في الدماغ.

هناك الكثير مما يمكن قوله عن هذه النظرية الأنيقة والسليمة. لكن مرة أُخرى، كما قال آينشتاين ذات مرة، «لا بد أن يكون كل شيء بسيطاً قدر الإمكان، ولكن ليس الأكثر بساطة» .

لقد أصبح من الواضح الآن أن المزاعم الأولية المتعلقة بالخلايا العصبية المرآتية مبالغ فيها إلى حد كبير[1]. إذ لا يمكن أن تكون الخلايا العصبية المرآتية كافية لتنمية قدرات مثل اللغة والتفكير الاجتماعي المعقد، وذلك لأن قرود المكاك مثلاً، التي تمتلك هذه الخلايا العصبية، لا تملك لغةً وتفكيراً اجتماعياً معقداً. كما أن هذه الخلايا لا يمكن ـ أيضاً ـ أن تكون كافية حتى لتقليد سلوك الآخرين، لأن قرود المكاك هي الأُخرى لا تقلد أمثالها من قرود المكاك.

توجد الخلايا العصبية المرآتية في أجزاء من الدماغ تختلف عن المناطق الضالعة في التعاطف، ويعتقد العديد من علماء النفس وعلماء الأعصاب أنه على الأرجح ليس لديها وظيفة اجتماعية على الإطلاق ولكنها متخصصة في تعلم الحركات (وفي صحة هذا الاعتقاد هناك جدل دائر حتى الآن).

---

(1) G. Hickok, "Eight Problems for the Mirror Neuron Theory of Action Understanding in Monkeys and Humans," *Journal of Cognitive Neuroscience* 21 (2009): 1229–43; Steven Pinker, *The Better Angels of Our Nature: Why Violence Has Declined* (New York: Viking, 2011); Alison Gopnik, "Cells That Read Minds? What the Myth of Mirror Neurons Gets Wrong About the Human Brain," *Slate*, April 2007, www.slate.com/articles/life/brains/2007/04/cells_that_read_minds.html.

على أية حال، الخلايا العصبية المرآتية هي الجزء الأقل إثارة للاهتمام من النظرية. لدينا القدرة على التعاطف، وهذا التعاطف لا بد أن يظهر بطريقة أو بأُخرى من أدمغتنا – إن لم يكن من خلال الخلايا العصبية المرآتية، فمن خلال آلية أخرى. الأمر المهم هنا لا يتعلق بالتشريح العصبي أو الفسيولوجيا العصبية؛ الأمر يتعلق بدور التعاطف في نظرية علم النفس الأخلاقي.

لا أعتقد أن مقدرة كبيرة كالتعاطف موجودة كحادث بيولوجي غريب بل الاحتمال الأكبر أن تكون له وظيفة، والتفسير الأكثر قبولاً هنا هو أن ـ التعاطف ـ يحفزنا على الاهتمام بالآخرين. يدفعنا الجوع إلى البحث عن الطعام؛ وتحفز الشهوة سلوكنا الجنسي؛ والغضب يؤدي إلى الشراسة ضد أي نوع من أنواع التهديد، والتعاطف موجود لتحفيز الشفقة والرحمة والإيثار[١].

ومع ذلك، فإن الفارق بين مفهوم التعاطف (بمعنى عكس مشاعر الآخر على نفسك) ومفهوم الشفقة (بمعنى الشعور والتصرف بلطف تجاه الآخر) أشد دقة مما يعتقده الكثير من الناس[٢]. ويتبين هذا الفارق بالنقاط التالية:

أولاً، على الرغم من أن التعاطف يمكن أن يكون تلقائياً ولا شعورياً (يمكن أن يؤثر الشخص الذي يبكي على حالتك المزاجية، حتى لو لم تكن على دراية بأن هذا يحدث وتفضل ألا يحدث) لكننا نختار غالباً ما إذا كنا نريد التعاطف مع شخص آخر. أستطيع

(1) For discussion, see C. Daniel Batson, *Altruism in Humans* (New York: Oxford University Press, 2011). For a review of empathy and sympathy from a developmental perspective, see Hoffman, *Empathy and Moral Development.*

(2) See also J. Prinz, "Is Empathy Necessary for Morality?," in *Empathy: Philosophical and Psychological Perspectives*, ed. Amy Coplan and Peter Goldie (New York: Oxford University Press, 2010).

أن أسمع عن التعذيب الذي تعرض له سجين سياسي، ومن خلال أحد أفعال الإرادة، ابدأ في تخيل كيف كان شعوره (بدرجة أقل بالطبع). أستطيع أن أشاهد شخصاً ما على خشبة المسرح وهو يحصل على جائزة وأختار أن أشعر بتوتره وفخره. لذلك عندما يكون التعاطف موجوداً، فقد يكون نتاج اختيار أخلاقي، وليس سبباً له.

يتأثر التعاطف أيضاً بما يفكر فيه الشخص الآخر.[1] في إحدى الدراسات، انخرط المشاركون الذكور في تفاعل مالي مع شخص غريب يقوم إما بمكافأتهم أو خداعهم. ثم شاهدوا ذلك الشخص الغريب يتعرض إلى صعقة كهربائية خفيفة. عندما يتعرض الشخص الغريب الذي كان لطيفاً معهم للصعقة، يظهر المشاركون استجابة عصبية تتسق مع التعاطف – وبالفعل كان يضيء نفس الجزء من أدمغتهم الذي يضيء عندما تعرضوا هم أنفسهم للصعقة. لكن عندما تعرض الشخص الغريب الذي قام بخداعهم للصعقة، لم يكن هناك أي تعاطف؛ بدلاً من ذلك أضاءت أجزاء الدماغ المرتبطة بالمكافأة والسرور. (من ناحية أُخرى، كانت النساء أقل تمييزاً أو أكثر طيبة ببساطة؛ لقد أظهرن استجابة متعاطفة بغض النظر عن الطريقة التي عاملهم بها الشخص الغريب).

ثانياً، ليس من الضرورة أن يكون التعاطف دافعاً للشفقة، ولكي تتيقن من صحة ذلك، إليك مثالاً من الفيلسوف بيتر سينغر عن أحد الأفعال الجيدة بشكل واضح[2]:

(1) T. Singer, B. Seymour, J. P. O'Doherty, K. E. Stephan, R. J. Dolan, and C. D. Frith, "Empathic Neural Responses Are Modulated by the Perceived Fairness of Others," *Nature* 439 (2006): 466–69.

(2) P. Singer, "Famine, Affluence, and Morality," *Philosophy and Public Affairs* 1 (1972): 229–43.

«أنت تمشي- بجوار بحيرة وترى طفلة صغيرة تصارع في الماء. البحيرة بعمق بضعة أقدام، لكن الطفلة تغرق، والداها لم يكونا موجودين بالقرب منها. إذا كنت مثل معظم الناس، فستنزل إلى البحيرة وتخرجها، حتى لو دمرت بذلك حذاءك».

يبدو أن الفلاسفة مولعون بأمثلة الأطفال الغارقين؛ فمنذ حوالي ألفي عام، كتب العالم الصيني منسيوس[1] أنه «لا يوجد إنسان يخلو من قلب يشعر بمعاناة الآخرين ... لنفترض أن رجلاً رأى فجأة طفلاً صغيراً على وشك السقوط في بئر. من المؤكد أنه سيشعر بالشفقة».

التعاطف قد يؤدي إلى الشفقة. أظن أن هذه العلاقة ممكنة التصور، وهي بدورها تكون مدعاة لقيام الشخص بالتصرف الملائم لها: ترى فتاة مرعوبة وتلهث من أجل الهواء، فينتابك الشعور نفسه، ولكن تحرص على التخلص منه، قد يحفزك إحساسك بشعورها للمبادرة بإنقاذها، ولكن المبادرة إلى إنقاذ الغريق لا يشترط فيها الإحساس بشعوره - الغريق - دائماً. حيث أن الطبيعي هو أن يبادر المرء لعملية الإنقاذ أحس بشعور الضحية أم لم يفعل.

كما يشير عالم النفس ستيفن بينكر «إذا كانت هناك طفلة خائفة من كلب ينبح ودفعها خوفها للصراخ، فإن ردة فعلي المتعاطفة لن تكون بالصراخ والخوف معها، بل بجعلها تشعر بالراحة والحماية»[2].

(1) Quoted in S. Darwall, "Empathy, Sympathy, Care," *Philosophical Studies* 89 (1998): 261–82.

(2) Pinker, *Better Angels*, 576.

ثالثاً، في حالات بشرية معينة، يوجد شعور بالشفقة من دون الشعور بالتعاطف، وبالعكس. في هذه الحالة يتملك الإنسان الشعور بألم شخص ما ورغم هذا يرغب بالتخلص من ذلك الشعور من دون أي تصميم على القيام بما يخفف معاناته، ويكتفي ذلك الانسان بالابتعاد عن الشخص كي يتخلص من الشعور بالألم. إحدى الحالات الواقعية، التي وصفها الفيلسوف جوناثان جلوفر، هو تصرف امرأة عاشت بالقرب من معسكرات الموت في ألمانيا النازية وشهدت سجناء ينازعون لعدة ساعات قبل أن يموتوا بعد إطلاق النار عليهم. كانت منزعجة بما يكفي لكتابة هذه الرسالة: «غالباً ما يكون المرء شاهداً غير راغب على مثل هذه الانتهاكات. أنا على أي حال مصابة بالغثيان ومثل هذا المنظر يشكل ضغطاً كبيراً على أعصابي لا أستطيع تحمله على المدى الطويل. أطلب أن يتم الترتيب لوقف مثل هذه الأعمال اللاإنسانية، أو أن تتم في أماكن بعيدة عن أنظار الناس»[1].

كانت متعاطفة بدرجة كافية لتجعلها تتألم لرؤية هؤلاء الناس يقتلون، ولم تكن غير مكترثة تماماً لوحشية هذه الأفعال، ووصفتها بأنها "انتهاكات" و "أعمال غير إنسانية". لكنها مع ذلك، يمكنها أن تعيش مع هذه الجرائم التي تحدث، طالما تم ارتكابها بعيداً عن الأنظار. هذه حالة متطرفة، لكن لا ينبغي أن تكون مبهمة بالنسبة لنا. حتى الأشخاص الطيبون في بعض الأحيان يشيحون بأنظارهم عندما يواجهون صوراً للألم والمعاناة في أراضٍ بعيدة، أو عند مرور شخص بلا مأوى في أحد شوارع المدينة.

(1) Jonathan Glover, *Humanity: A Moral History of the Twentieth Century* (New Haven: Yale University Press, 2000), 379–80.

في حالات أُخرى، تشعر بألم شخص آخر ولكن بدلاً من أن يثير فيك شعور الشفقة، فإنه يثير شعوراً ليس له كلمة تعرفه باللغة الإنجليزية. ربما هناك كلمة تعرفه بشكل مثالي باللغة الألمانية: schadenfreude "الشماتة"، وتعني أن تستمتع بمعاناة الآخرين وتريدها أن تستمر أو حتى تسوء. السادية هي أحد أمثلتها الصارخة، وتتمثل بأن أفرح بفكرة أن غريمي ينال جزاءه، متخيلاً ما يشعر به وأستمتع بالتجربة.

لقد تحدثت حتى الآن عن مدى اختلاف التعاطف والشفقة. من الواضح كذلك أن الشفقة تختلف عن الأخلاق. تخيل مجرماً يطالب ضابط شرطة بإطلاق سراحه. قد يشعر الضابط بالرحمة والشفقة ولكن يجب ألا يستسلم، لأن هناك مبادئ أخلاقية أخرى يجب احترامها، وكمثال آخر أقل مأساوية، قد يأتيني طالب راسب ويتوسل إلي كي أرفع درجاته. قد أشعر بالشفقة تجاه هذا الطالب، لكن إذا أذعنت لطلبه لن يكون من العدل بالنسبة لبقية الطلاب.

يمكننا أن نرى الصدام العرضي بين التعاطف والأخلاق في المختبر من خلال التجارب التي أجراها عالم النفس دانيال باتسون[1] وزملاؤه وقد توصلت إلى أن مطالبتهم بتبني منظور شخص آخر تجعل المشاركين أكثر ميلاً إلى تفضيل ذلك الشخص على الآخرين. على سبيل المثال، هم أكثر ميلاً لجعل فتاة مريضة قبل الجميع على قائمة انتظار العمليات المنقذة للحياة. هذا تصرف رحيم، لكنه ليس أخلاقياً، لأن هذا القرار يجب أن يستند إلى إجراءات موضوعية وعادلة، وليس إلى من يثير الانفعال العاطفي

(1) C. D. Batson, T. R. Klein, L. Highberger, and L. L. Shaw, "Immorality from Empathy-Induced Altruism: When Compassion and Justice Conflict," *Journal of Personality and Social Psychology* 68 (1995): 1042–54.

الأقوى. إن جزءاً من كونك شـخصـاً جيداً ينطوي على التغلب على شـفقتك المفرطة، بدلاً من تنميتها.

رغم أن الشـفقة في حد ذاتها ليسـت من الأخلاق وأحياناً تصـطدم بها، إلا أنها ضرورية. حيث لن تكون هناك أخلاق إذا لم نهتم بالآخرين.

نحن نتعامل مع الأشخاص الآخرين منذ ثواني حياتنا الأولى. لا يوجد طفل منعزل تماماً. حتى الأطفال حديثو الولادة يسـتجيبون لتعابير الآخرين[1]: إذا قام أحدهم بإخراج لسانه لطفل ما، يميل الطفل إلى فعل الشيء نفسه، ولأن الطفل لم ينظر من قبل إلى المرآة، فلا بد أنه يعلم غريزياً أن لسـان الراشـد يتوافق مع هذا الشيء الذي في فمه والذي لم يسـبق أن رآه أبداً. قد توجد هذه المحاكاة لإنشـاء رابط بين الطفل والبالغين المحيطين به، بحيث تصـبح مشـاعرهم مرتبطة ببعضـها البعض. في الواقع، الآباء والأمهات والأطفال في كثير من الأحيان يعكسون لا شعورياً تعابير بعضهم البعض[2].

الأطفال يتفاعلون أيضاً مع آلام الآخرين (تذكر كيف أبدى الصغير ويليام داروين وهو في عمر ستة أشهر "تعاطفاً"، من خلال "وجهه الحزين" عندما تظاهرت ممرضته بالبكاء).

(1) A. N. Meltzoff and M. K. Moore, "Imitations of Facial and Manual Gestures by Human Neonates," *Science* 198 (1977): 75–78.

(2) C. Trevarthen, "The Concept and Foundations of Infant Intersubjectivity," in *Intersubjective Communication and Emotion in Early Ontogeny*, ed. Stein Bråten (New York: Cambridge University Press, 1998), 15–46.

حتى بعد أيام قليلة من ولادتهم، فإن الأطفال يتأذون عند سماعهم لصوت البكاء، فهو يجعلهم يبكون[١]، وهذا ليس استجابة ساذجة لصوت الضوضاء، والأطفال يتأثرون عند سماعهم صوت بكاء طفل آخر أكثر من تأثرهم لسماع صوت بكاء أنفسهم، ولا يبكون كثيراً عندما يسمعون ضوضاء بنفس مستوى الصوت متولدة من جهاز حاسوب، أو عندما يسمعون بكاء طفل الشمبانزي[٢]. إن المخلوقات الأُخرى أيضاً تشعر بالسوء عندما يكون أفراد من جنسها في حالة ضيق؛ فقرود المكاك الجائعة في المختبر تتجنب سحب عتلة تدر عليها الطعام إذا كان ذلك سيؤدي إلى إصابة قرد آخر بصعقة كهربائية مؤلمة[٣]، والفئران تقوم بالضغط على قضيب معدني إذا كان ذلك سينزل فأراً آخر معلقا في الهواء أو أنه يطلق فأراً محاصر في خزان مملوء بالماء[٤].

قد تعكس هذه السلوكيات الشفقة. لكن هناك تفسيراً متهكماً يقول إن القرود والجرذان – وربما البشر أيضاً – يجدون (في طبيعتهم) آلام الآخرين مزعجة بالنسبة لهم، دون الشعور بالاهتمام الحقيقي بالأشخاص الذين يعانون. إنهم يشعرون بالتعاطف ربما، ولكن ليس بالشفقة.

(1) A. Sagi and M. Hoffman, "Empathic Distress in the Newborn," *Developmental Psychology* 12 (1976): 175–76.

(2) G. B. Martin and R. D. Clark, "Distress Crying in Infants: Species and Peer Specificity," *Developmental Psychology* 18 (1982): 3–9; M. Dondi, F. Simion, and G. Caltran, "Can Newborns Discriminate Between Their Own Cry and the Cry of Another Newborn Infant?," *Developmental Psychology* 35 (1999): 418–26.

(3) S. Wechkin, J. H. Masserman, and W. Terris Jr., "Shock to a Conspecific as an Aversive Stimulus," *Psychonomic Science* 1 (1964): 47–48; J. H. Masserman, S. Wechkin, and W. Terris, " 'Altruistic' Behavior in Rhesus Monkeys," *American Journal of Psychiatry* 121 (1964): 584–85.

(4) G. E. Rice and P. Gainer, " 'Altruism' in the Albino Rat," *Journal of Comparative and Physiological Psychology* 55 (1962): 123–25; G. E. J. Rice, "Aiding Behavior vs. Fear in the Albino Rat," *Psychological Record* 14 (1964): 165–70.

ومع ذلك، عندما ننظر إلى كيفية تصرف الرضع والأطفال الصغار نرى شيئاً أعمق. إذ أنهم لا يبتعدون ببساطة عن الشخص المتألم، فهم يحاولون التخفيف عنه ومواساته، ولاحظ علماء النفس التنمويون منذ فترة طويلة أن الأطفال الذين يبلغون من العمر عاماً واحداً يربتون على أكتاف الآخرين الذين هم في ضيق أو ألم[١].

عالمة النفس كارولين زان واكسلر وزملاؤها وجدوا في بحوثهم، أنه عندما يرى الأطفال الصغار الأشخاص من حولهم يتصرفون وكأنهم يشعرون بالألم (كأن تصيب أُمهم ركبتها ، أو تجعل إصبعها يعلق في مشبك الأوراق) ، فإنهم في كثير من الأحيان يحاولون التسكين والمواساة[٢]، والفتيات أكثر ميلاً للتسكين والتهدئة من الأولاد،[٣] الأمر الذي ينسجم تماماً مع مجموعة أوسع من البحوث التي تشير إلى قدر أكبر من التعاطف والرحمة عند الإناث[٤]، ويمكنك أن ترى سلوكاً مشابهاً في الرئيسات الأُخرى؛ وفقًا لعالم الرئيسات فرانس دي وال، فإن الشمبانزي – وليس القرد – يضع ذراعه حول ضحية تعرضت لهجوم ويربت عليها[٥].

إن محاولات الرضع والأطفال الصغار للمواساة والتسكين مازالت بعيدة عن الكمال؛ بمعنى أنها لا تصل إلى الوتيرة المنشودة – حيث أن نسبة الأطفال الصغار الذين يقومون بعملية المواساة أقل مما هي عليه عند من هم أكبر سناً، ونسبة المواساة عند هؤلاء

(1) For review, see Hoffman, *Empathy and Moral Development.*

(2) C. Zahn-Waxler, J. L. Robinson, and R. N. Emde, "The Development of Empathy in Twins," *Developmental Psychology* 28 (1992): 1038–47; C. Zahn-Waxler, M. Radke-Yarrow, E. Wagner, and M. Chapman, "Development of Concern for Others," *Developmental Psychology* 28 (1992): 126–36.

(3) Zahn-Waxler, Robinson, and Emde, "Development of Empathy in Twins."

(4) N. Eisenberg and R. Lennon, "Sex Differences in Empathy and Related Capacities," *Psychological Bulletin* 94 (1983): 100–131.

(5) Frans de Waal, *The Ape and the Sushi Master: Cultural Reflections of a Primatologist* (New York: Basic Books, 2001).

الأكبر سناً أقل مما هي عليه عند البالغين. يتفاعل الأطفال الصغار أحياناً مع آلام الآخرين من خلال الانزعاج والحرص على تخلصهم من الشعور بالألم بمعزل عما يعانيه الآخر.

إن الشعور بالمعاناة، النابع من التعاطف، أمر مكدر جداً، وقد يكون هذا التكدير عارماً، وهذا ينطبق على الفئران أيضاً. في إحدى الدراسات التي أُتيحت فيها للفئران فرصة الضغط على قضيب معدني لمنع الفئران الأُخرى من التعرض لصعقات كهربائية مؤلمة، لم يضغط الكثير من الفئران على القضيب ولكن «تراجعت إلى زاوية الصندوق الخاص بها لتبتعد عن الحيوان المتألم والصارخ وجلست هناك بلا حراك»[1].

الأطفال الصغار أيضاً يتفاعلون أحيانًا بشكل نرجسي مع آلام الآخرين، مما يعني أن سلوكهم يعكس الطريقة التي يرغبون في أن يعاملوا بها[2]. على سبيل المثال، يصف عالم النفس مارتن هوفمان طفلاً يبلغ من العمر أربعة عشر شهراً وهو يحضر صديقاً يبكي إلى والدته، وليس والدة الصديق. يقول هوفمان (ينشأ هذا الالتباس عند الأطفال لأنهم لم يكتسبوا التعقيد المعرفي اللازم لأخذ منظور الآخر)، ولكن في الواقع يمكن أن يكون الأشخاص من جميع الأعمار نرجسيون عند تفاعلهم مع آلام الآخرين. منذ فترة قريبة بينما كنت جالساً بجوار زوجتي في أحد المطاعم، قالت لي أنها تشعر بعطش شديد. فأعطيتها بأدب عصير العنب الذي كنت أشربه، فرمقتني بنظرة، فتذكرت أنها تكره عصير العنب، وأنا أُحب عصير العنب.

---

(1) Rice, "Aiding Behavior vs. Fear," 167. For discussion, see S. D. Preston and F. B. M. de Waal, "Empathy: Its Ultimate and Proximate Bases," *Behavioral and Brain Sciences* 25 (2002): 1–71.

(2) Hoffman, *Empathy and Moral Development.*

إحدى المظاهر المختلفة للشفقة التي تظهر في الأطفال الصغار هي المساعدة. على مدى العقود القليلة الماضية، كانت هناك العديد من الحكايات والدراسات التي تبين المساعدة التلقائية[١]. في عام ١٩٤٢، قال باحث عن ابنه: «إنه كثير الاهتمام هذه الأيام. عندما جئت في هذا الصباح، قال: "أبي يريد الخفين" وهرع ليأتي بهما»[٢]. في عام ١٩٦٦، كتبت عالمة نفسانية عن طفلة تبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً «تساعدني في الحديقة، ويمكنها استخدام المجرفة بشكل جيد إلى حد ما ... في المنزل تساعد في دفع المكنسة الكهربائية أو الممسحة ... [وتتوقع] احتياجات والدها في ارتداء الملابس أو في إضرام النار في الموقد»[٣]، ووصفت عالمة نفس أُخرى قامت، في أوائل الثمانينيات، بتحويل مختبرها إلى منزل تتوزع فيه قطع الأثاث بشكل فوضوي وهي عبارة عن طاولة بحاجة إلى إعداد، وسرير غير مُرتب، وكتب وبطاقات على الأرض، وملابس بحاجة إلى طي، وما إلى ذلك. غالبية الأطفال (الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر وثلاثين شهراً) الذين أحضرتهم إلى المختبر ساعدوها بحماس على النظافة، قائلين أشياء مثل: «أنا أُساعدك، أحمل هذا المصباح الصغير»[٤].

في الآونة الأخيرة، كما ذكرنا في الفصل السابق، وجد علماء النفس أن الأطفال الصغار يساعدون البالغين الذين يجدون صعوبة في التقاط شيء بعيد عن متناول اليد أو

(1) For review, see D. F. Hay, "The Roots and Branches of Human Altruism," *British Journal of Psychology* 100 (2009): 473–79.

(2) C. W. Valentine, *The Psychology of Early Childhood* (London: Methuen, 1942), 321.

(3) Joseph Church, ed., *Three Babies: Biographies of Cognitive Development* (New York: Random House, 1966), 71–72.

(4) H. L. Rheingold, "Little Children's Participation in the Work of Adults, a Nascent Prosocial Behavior," *Child Development*53 (1982): 114–25.

لفتح الباب عندما تكون أيديهم مشغولة[١]. يقوم الأطفال الصغار بذلك دون أي دعوة من البالغين، ودون حتى أن ينظروا إليهم. هذا السلوك مثير للإعجاب[٢]، لأن المساعدة – مثل المواساة – تفرض تحديات معينة. يجب على الطفل أن يعرف أن هناك شيئاً ما خاطئاً، ويعرف ما يجب فعله لتحسينه، ويكون متحمساً للسعي إلى المساعدة.

وهنا قد يقول أحد المشككين بأننا لا نعرف سبب حدوث هذه المساعدة، فغالباً ما يقوم البالغون بالمساعدة دون أن يكون دافعهم الشفقة. عندما يتمايل أحدهم أمام باب مغلق ويداه مليئتان بالكتب، ستقفز لفتحه قبل أن يقول لك أي شيء. قد يكون الدافع وراء هذا ليس لطفاً بقدر ما هو عادة، كأن تقول لشخصٍ ما "يرحمكم الله" بعد عطسه، أو ربما يستمتع الأطفال الصغار بفعل المساعدة دون أن يبالوا بالشخص الذي يساعدونه. إذا كان شخص بالغ يحاول الوصول إلى شيء خارج عن متناول يده وقام طفل بتسليمه إياه فقد يكون دافع الطفل هو فكرة أن هذه المشكلة يجري حلها. أو ربما يقوم الأطفال بأعمالهم المفيدة ليس من أجل إسعاد البالغين ولكن من أجل استحصال استحسانهم[٣]. عندما يحاول الأطفال المساعدة، نجدهم رائعين. ربما هذا هو المغزى – ربما تكون مساعدتهم عبارة عن سلوك تكيفي يهدف إلى تحبيبهم إلى أُولئك القائمين على رعايتهم، كما يفعل جمالهم وسحرهم البدني كعيونهم الكبيرة وخدودهم المستديرة.

(1) F. Warneken and M. Tomasello, "Altruistic Helping in Human Infants and Young Chimpanzees," *Science* 311 (2006): 1301–3; F. Warneken and M. Tomasello, "Helping and Cooperation at 14 Months of Age," *Infancy* 11 (2007): 271–94. For review, see Michael Tomasello, *Why We Cooperate* (Cambridge, MA: MIT Press, 2009).

(2) K. A. Dunfield, V. A. Kuhlmeier, L. O'Connell, and E. Kelley, "Examining the Diversity of Prosocial Behavior: Helping, Sharing, and Comforting in Infancy," *Infancy* 16 (2011): 227–47.

(3) K. Wynn, "Constraints on Natural Altruism," *British Journal of Psychology*100 (2009): 481–85.

لكن لدى الباحثين أدلة تشير إلى أن المساعدة – على الأقل من قبل الأطفال الأكبر سناً – يحفزها اهتمام حقيقي بالآخرين. أجرى عالمان هما علياء مارتن وكريستينا أولسون تجربة يلعب فيها شخص بالغ مع طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات ويطلب منه أن يسلم أشياء معينة للقيام بمهام معينة. على سبيل المثال، كان لدى الشخص البالغ جرة ماء بجانبه وسأل الطفل: «هل تستطيع أن تعطيني الكأس حتى أتمكن من سكب الماء؟» عندما يكون الشيء المطلوب مناسباً – كأن يكون كوب غير مكسور مثلاً – كان الأطفال عادةً ما يقومون بتسليمه. لكن في بعض الأحيان، لم يكن الشيء المطلوب مناسباً للمهمة، ككوب مفطور، وجدت مارتين واُولسون أن الأطفال كانوا غالباً ما يتجاهلون العنصر المطلوب ويسعون إلى إحضار عنصر مناسب – مثل كوب سليم في جزء آخر من الغرفة. لذا فإن الأطفال لم يطيعوا الشخص البالغ بسذاجة؛ أرادوا مساعدته في إكمال المهمة[١].

أيضاً، إذا كان الأطفال حقاً يساعدون مع أخذهم مصلحة الشخص المقابل بعين الاعتبار، فلابد أن يكونوا انتقائيين باختيار الشخص الذي يساعدونه، وجدت عالمة النفس أمريشا فايش وزملاؤها أن الأطفال الذين تبلغ أعمارهم ثلاث سنوات كانوا أكثر ميلاً لمساعدة شخص سبق له أن ساعد شخصاً آخر وأقل ميلاً لمساعدة شخص كان قاسياً على شخص آخر[٢]، وحصلت عالمتان نفسيتان، كريستين دانفيلد وفاليري كولماير، على نتائج مماثلة عندما أجرتا دراسة مع أطفال يبلغون من العمر ٢١ شهراً. جلس الأطفال

(1) A. Martin and K. R. Olson, "When Kids Know Better: Paternalistic Helping in 3-Year-Old Children," *Developmental Psychology*, forthcoming.

(2) A. Vaish, M. Carpenter, and M. Tomasello, "Young Children Selectively Avoid Helping People with Harmful Intentions," *Child Development* 81 (2010): 1661–69.

الصغار مقابل اثنين من المجربين، كل منهم يحمل لعبة "على ما يبدو" لتسليمها للطفل، ومع ذلك، لم تصل أي لعبة إلى الطفل، لأن أحد المجربين كان يضايقه ويرفض إعطاءها، في حين حاول المجرب الآخر أن يعطيها للطفل ولكنه أسقطها. في وقت لاحق، عندما حصل الأطفال الصغار على لعبتهم الخاصة لتسليمها إلى مجرب، كانوا يميلون إلى إعطائها للشخص الذي بذل مجهوداً، وليس الشخص الذي أزعجهم[١].

المشاركة هي مظهر آخر من مظاهر التعاطف والإيثار، حيث يبدأ الأطفال في المشاركة تلقائياً في النصف الثاني من السنة الأُولى من حياتهم، وترتفع درجة المشاركة في عامهم الثاني[٢]. إذ يقومون بالمشاركة مع العائلة والأصدقاء، ولكن قلما يشاركون مع الغرباء.

بعض العلماء وبعض الآباء، قلقون من أن الأطفال لا يشاركونهم بما فيه الكفاية، ويتساءلون ما إذا كان هذا يعكس بعض عدم النضج الأخلاقي من قبلهم، ولكن هذا قد لا يكون من الأنصاف، عندما لا تشعر طفلة تبلغ من العمر عامين بالراحة عند تسليم ألعابها لطفلة قابلتها للتو في أحد مختبرات علم النفس، فهل هذا مختلف عن عدم رغبة أي شخص بالغ في تسليم مفاتيح سيارته لشخص غريب؟!

(1) K. A. Dunfield and V. A. Kuhlmeier, "Intention-Mediated Selective Helping in Infancy," *Psychological Science* 21 (2010): 523–27.

(2) H. L. Rheingold, D. F. Hay, and M. J. West, "Sharing in the Second Year of Life," *Child Development* 47 (1976): 1148–58; D. F. Hay, "Cooperative Interactions and Sharing Between Very Young Children and Their Parents," *Developmental Psychology* 6 (1979): 647–58; D. F. Hay and P. Murray, "Giving and Requesting: Social Facilitation of Infants' Offers to Adults," *Infant Behavior and Development* 5 (1982): 301–10; Rheingold, Hay, and West, "Sharing in the Second Year."

لذلك ليس من المستغرب أن لا تجد التجارب التي تبحث عن المشاركة عند الأطفال الصغار أية نتائج مهمة.

عالمة النفس سيليا براونيل وزملاؤها قاموا بتعديل طريقة تجريبية مصممة أصلاً لاستكشاف الإيثار في الشمبانزي، حيث وضع الباحثون الطفل بين عتلتين وتركوا له خيار سحب واحد. أعطت إحدى العتلات هديةً للطفل وهدية أُخرى لشخص مشارك بالتجربة يجلس على الجانب الآخر منه. أما العتلة الثانية فقد أعطت الطفل هديةً ولكنها لم تقدم شيئاً إلى الشخص على الجانب الآخر.

عندما كان المتلقي على الجانب الآخر صامتاً، قام كل من الأطفال بعمر ثمانية عشر شهراً والأطفال بعمر خمسة وعشرين شهراً بسحب العتلات بشكل عشوائي، دون أية محاولة لإعطاء الهدايا للبالغين. عندما قال المجرب، «أنا أحب البسكويت. أريد بسكويت»، قام الأطفال الذين هم في عمر خمسة وعشرين شهرًا بالمساعدة، لكن الأطفال الأصغر سناً استمروا بالتصرف بشكل عشوائي.

ركز الباحثون في بحثهم على الجانب المشرق: الأطفال الذين يبلغون من العمر عامين «يشاركون الآخرين ـ طواعية ـ مقتنياتهم الثمينة مع أشخاص لا تربطهم بهم أية علاقة عندما لا يكلفهم فعل ذلك شيئاً». هذا أمر مثير للإعجاب حقاً، لكن ما يدهشني هو عدم مشاركة الأطفال لمقتنياتهم من دون تشجيع، حتى في المواقف التي كانوا فيها لا يملكون شيئاً يخسرونه. أعتقد أن هذا كان لأنهم كانوا يتعاملون مع شخص بالغ غريب عبر الطاولة. أما إذا كان ذلك الشخص هو والدهم أو جدهم، على سبيل المثال، سيكون

الأطفال أكثر لطفاً[١]، وقبل سن الرابعة تقريباً، يُظهر الأطفال لطفاً بسيطاً تجاه البالغين الغرباء.

(النقطة الأخيرة تستحق التأكيد عليها، وسنعود إليها مراراً وتكراراً في بقية أجزاء الكتاب)

تجد بعض الدراسات التي ناقشناها للتو سلوكاً لطيفاً – مثل المساعدة – تجاه البالغين الذين ليسوا أصدقاء أو اقارب. لكن ضع في اعتبارك أن البالغين في هذه الدراسات ليسوا في الواقع غرباء جداً. قبل أن تبدأ الدراسة النموذجية، يتفاعل الطفل (بوجود والده أو والدته) مع المجرب البالغ كجزء من جلسة "الإحماء"، حيث يشاركون في أنشطة متبادلة ودية مثل تحريك الكرة ذهاباً وإياباً، وهذا يحدث فرقاً. أخصائيا علم النفس رودولفو كورتيز باراجان وكارول دويك وجدا أنه إذا لم يكن لديك هذا النوع من التفاعل المتبادل – مجرد تحية ودية من قبل الكبار والشكر الحار على موافقتك على المشاركة – يتناقص مقدار المساعدة اللاحقة للأطفال بمقدار النصف تقريباً. أُراهن أنه إذا لم يكن هناك تفاعل إيجابي مسبق على الإطلاق – إذا كان الشخص البالغ غريباً في اللحظة التي احتاج فيها إلى المساعدة – فستكون لطافة الطفل العفوية ضئيلة جداً تجاه هذا الشخص الغريب البالغ، هذا إن لم تكن معدومة[٢].

———

(1) C. A. Brownell, M. Svetlova, and S. Nichols, "To Share or Not to Share: When Do Toddlers Respond to Another's Needs?," *Infancy* 14 (2009): 117–30, quote from 125.

(2) R. C. Barragan and C. Dweck, "Young Children's 'Helpfulness': How Natural Is It?," unpublished manuscript, Stanford University, 2013.

وقد استكشفنا حتى الآن استجابات الناس – وإجراءاتهم المتخذة – تجاه الآخرين. لكن الكائنات الأخلاقية تحكم على نفسها أيضاً. نشعر بالفخر حيال أعمالنا الطيبة وبالذنب حيال أفعالنا السيئة، وهذه المشاعر الأخلاقية تساعدنا على تقرير ما يجب وما لا يجب أن نفعله في المستقبل. بالنسبة للبالغين، على الأقل، وجد علماء النفس علاقة حميمة بين الحكم على الآخرين والحكم على أنفسهم[١]. إذا كنت تميل إلى التعاطف مع شخص ما، فمن المرجح أنك تشعر بالذنب بسبب إيذائه، وإذا كنت من النوع الذي يتميز بدرجة عالية من التعاطف، فمن المحتمل أن تكون من النوع الميال للشعور بالذنب.

إن دراسة التقييم الذاتي عند الأطفال على درجة من الصعوبة فنحن لا نعرف الكثير عن نموهم. إن من السهل ـ بما فيه الكفاية ـ تنظيم حالة نُظهر فيها للأطفال رجلاً طيباً ورجلاً سيئاً ونستكشف كيف يستجيبون لهذه الشخصيات، ولكن من الصعب (ليس من المستحيل) تنظيم حالة نجعل فيها الأطفال أنفسهم يتصرفون بطرق مختلفة وأن ننظر في ردود أفعالهم على صلاح أفعالهم أو سوئها.

ومع ذلك، يمكننا أن نلاحظ علامات التقييم الذاتي في وقت مبكر. فغالباً ما يُظهر الرضع والأطفال الصغار علامات الشعور بالفخر، كما في قصة فرحة ويليام عندما أعطى كعك الزنجبيل لأُخته الصغيرة، ولكن في الأطفال ثمة شعور بالذنب أيضا. فالأطفال في السنة الأُولى من حياتهم يشعرون بالضيق عندما يؤذون الآخرين، ويصبح هذا الشعور أكثر توتراً مع تقدم العمر[٢].

(1) R. F. Baumeister, A. M. Stillwell, and T. F. Heatherton, "Guilt: An Interpersonal Approach," *Psychological Bulletin* 115 (1994): 243–67. For discussion, see Pinker, *Better Angels.*

(2) For review, see Hoffman, *Empathy and Moral Development.*

في عام ١٩٣٥، كشفت عالمة النفس شارلوت بوهلر عن تجربة ذكية في إثارة الشعور بالذنب لدى الأطفال[1] حيث تم وضع شخص بالغ وطفل في غرفة معاً، وقام البالغ بمنع الطفل من لمس لعبة موضوعة أمامه. ثم انصرف الشخص البالغ عن المكان وغادر الغرفة لبعض الوقت، ووجد الباحثون أن جميع الأطفال الذين يبلغون من العمر عاماً أو عامين "يفهمون أن الحظر يتم إلغاؤه عندما ينقطع الاتصال مع الشخص البالغ، ويبدأون باللعب في اللعبة"، ولكن عندما عاد الشخص فجأة، كان ٦٠٪ من الأطفال البالغين من العمر ستة عشر شهراً وجميع (١٠٠٪) الأطفال البالغين من العمر ثمانية عشر شهراً "يُظهرون حرجاً كبيراً وتحمر خدودهم وينظرون الى الكبار بتعابير مرعوبة". حاول الأطفال البالغون من العمر واحداً وعشرين شهراً تعويض ما حدث من خلال إعادة اللعبة بسرعة إلى مكانها". قد يكون الخوف الذي أبداه الأطفال خالٍ من المحتوى الأخلاقي، لكن الإحراج - الاحمرار! - يظهر أن شيئاً آخر كان يحدث أيضاً. تستبدل مثل هذه المظاهر الانعكاسية للذنب بأفعال واضحة من التبرير الأخلاقي مع تقدم الأطفال في السن: حاول الأطفال الذين يبلغون من العمر عامين في الدراسة "اللجوء الى العصيان، على سبيل المثال، من خلال المطالبة باللعبة باعتبارها ملكًا لهم".

كما رأينا، فإن الأطفال يستطيعون تمييز الأفعال الجيدة والسيئة التي يقوم بها الآخرون قبل وقت طويل من قدرتهم على فعل أي شيء جيد أو سيء بأنفسهم. يبدو من المحتمل، إذن، أن "الحس الأخلاقي" يمتد أولاً ليشمل الآخرين، ثم في مرحلة لاحقة

(1) Charlotte Buhler, *From Birth to Maturity: An Outline of the Psychological Development of the Child* (London: Kegan Paul, 1935), 66–67, cited in Peter Hobson, *The Cradle of Thought: Exploring the Origins of Thinking* (London: Macmillan, 2002).

من النمو يتحول إلى الداخل. عند هذه المرحلة، يأتي الأطفال ليروا أنفسهم كعملاء أخلاقيين، وهذا الإدراك يتجلى من خلال الشعور بالذنب والعار والفخر.

لقد رأينا محدودية تعاطف الأطفال وشفقتهم، لكن هذا لا ينبغي أن يصرف انتباهنا عن مدى روعة العثور على مثل هذا السلوك الأخلاقي والمشاعر الأخلاقية في هذه المخلوقات الصغيرة. عبر صموئيل جونسون عن ذلك بأفضل تعبير (لكن في سياق مختلف تماماً) بقوله: «ككلب في حفلة رقص.. ستندهش لرؤيته وقد فهم دوراً؛ ولكن رقصته لاتزال عرجاء وسيئة».

لكن تعاطفنا الطبيعي لم يكن مفاجئاً لداروين أو للعديد من العلماء والفلاسفة واللاهوتيين الذين سبقوه. لقد كان استنتاجاً تم التعبير عنه ببلاغة بواسطة أحد أبطال هذا الكتاب. اشتهر آدم سميث بعمله "ثروة الأمم" الذي صدر عام ١٧٧٦، والذي يوضح فيه أن الرخاء يمكن أن ينبثق من تفاعلات العملاء الأنانيين. لكنه لم يعتقد أبداً أن الناس هم كائنات مهتمة بالكامل بمصالحها الذاتية؛ لقد كان مدركاً بشكل كبير للتأثير النفسي للشفقة. في نظرية المشاعر الأخلاقية، يبدأ سميث بثلاث جمل توضح المسألة ببلاغة وقوة:

«مهما بلغت الأنانية بالإنسان، فإنّ ثمّة مبادئ في طبيعته تثير اهتمامه لحظ الآخرين، وتجعل سعادتهم ضرورية له، على الرغم من أنه لا يستمدّ شيئاً منها سوى اللذة في رؤيتها، ومن هذا النوع من الشفقة، أو العاطفة التي يشعر بها تجاه بؤس الآخر، عندما

نقوم بتصويره على نحو قوي التأثير إننا نضع أنفسنا في موقعه عن طريق الخيال ..إننا ندخل، إذا جاز التعبير، إلى بدنه كأننا هو إلى حدّ ما»[1].

(1) Smith, *Theory of Moral Sentiments*, 9.

الفصل الثالث
العدالة والمكانة والعقاب

الممثل الكوميدي لويس سيكيلي يتحدث، في فقرة له، عن فهم ابنته للعدالة قائلاً «في أحد الأيام انكسرت إحدى ألعاب ابنتي ذات الخمس سنوات، فطالبتني بأن أكسر لعبة أُختها لجعل الأمر عادلاً». فهي إذن ترى أن هذا من شأنه أن يجعل الأُختين متساويتين. نفذت لها طلبها رغم أنى لم أكن أشعر أنني على صواب، حتى انني كنت على وشك البكاء، على عكسها، حيث أنها كانت ترسم على وجهها ابتسامة مريبة.

هناك بديهيات أُخرى بشـأن العدالة أبسـط من هذا. فمثلاً، تخيل أن لديك لعبتين وطفلين، وأنك تعطي كلتا اللعبتين لأحدهما. إذا كان الطفل الآخر بعمر يسـتطيع فيه الكلام، فسوف يعترض، قد يقول: «هذا ليس عدلاً!»، وسيكون محقاً.

إن من شأن القسمة العادلة أن تزيد من السعادة الإجمالية للأطفال إلى الحد الأقصى. فأنت حين تمنح كل طفل لعبة واحدة سـيسـعد ذلك كليهما، وإذا قمت بتوزيع الألعاب بشكل غير متساو، فسيكون الطفل الذي لا يحصل على شيء بائساً وحزيناً، بل سيفوق حزنه متعة الطفل الذي يحصل على لعبتين، ولكن الأمر الأكثر أهمية هنا هو أنه من الخطأ أن تؤسس لعدم المساواة عندما لا تكون مضطراً إلى ذلك.

إن مسـائل العدالة والمسـاواة تعتبر من بين أكثر القضـايا الأخلاقية إلحاحاً في العالم الواقعي. على سبيل المثال، يتفق معظم الناس على أن المجتمع العادل يشجع المساواة بين مواطنيه، ولكن في هذه الحالة نجد أنه يتم إراقة الدماء حول نوع المسـاواة الأفضـل من

الناحية الأخلاقية؛ فمن حيث المساواة في الفرص أو المساواة في النتائج، نجد أمامنا عدة أسئلة....

هل من العدل أن يملك الناس الأكثر إنتاجية أكثر من الآخرين، طالما انطلقوا من فرص متساوية؟ هل من العدل أن تأخذ الحكومة أموالاً من الأثرياء لتعطيها للفقراء؟ – وهل يتغير الجواب إذا كان هدف إعادة التوزيع هذا ليس مساعدة الفقراء بالمعنى المادي؟، بل جعل الناس أكثر مساواة، كما في قصة لويس سيكيلي في كسر لعبة ابنته الأخرى؟

عالم النفس ويليام دامون، استخدم، في سلسلة من الدراسات المؤثرة في السبعينيات، المقابلات لاستكشاف رأي الأطفال في العدالة فوجد أنهم يركزون على المساواة في النواتج ويتجاهلون الاعتبارات الأخرى[1].

وكإيضاح، ضع في اعتبارك هذا المقتطف من إحدى دراساته وفيها يتم إجراء حوار مع أنيتا ـــ طفلة عمرها ٧ سنوات وأربعة أشهر (يتم سؤال الأطفال عن تقسيم غير متكافئ للبنسات):

المجرب: هل تعتقدين أنه يجب أن يحصل البعض على أكثر من البعض الآخر؟

أنيتا: كلا، لأن هذا ليس عدلاً. شخص ما لديه خمسة وثلاثون سنتاً وشخص آخر لديه سنت واحد. هذا ليس عدلاً.

(1) William Damon, *The Social World of the Child* (San Francisco: Jossey-Bass, 1977), 81. The example that I give here is also cited in S. Nichols, "Emotions, Norms, and the Genealogy of Fairness," *Politics, Philosophy and Economics* 9 (2010): 275–96.

المجرب: قالت كلارا إنها صنعت أشياء أكثر من الآخرين وعليها أن تحصل على المزيد من المال.

أنيتا: لا، لا يجب أن تحصل على المزيد من المال، كأن تحصل على دولار، ولا يحصل البقية سوى على سنت واحد.

المجرب: هل يجب أن تحصل على المزيد؟

أنيتا: لا. يجب أن يحصل الناس على نفس القدر من المال.

إن هذا الانحياز للمساواة يظهر حتى بين الأطفال الأصغر سناً[1].

طلبت عالمتا النفس كريستينا أولسون وإليزابيث سبيلك من أطفال في الثالثة من العمر مساعدة دمية في توزيع الموارد (مثل الملصقات وقطع الحلوى) بين شخصيتين، قيل للاطفال إن لهما صلة بالدمية بطرق مختلفة: في بعض الأحيان كانا شقيق الدمية وصديقها، وفي أحيان أخرى، كان أحدهما شقيق الدمية والآخر غريباً، وفي أحيان أُخرى صديق وغريب، وجدت أولسون وسبيلك أنه عندما تلقى الأطفال البالغون من العمر ثلاث سنوات عدداً متساوياً من الموارد لتوزيعها، كانوا يريدون دائماً أن تعطي الدمية القدر نفسه لكلا الشخصيتين، بغض النظر عمن كانا، وهذا يظهر أن الانحياز للمساواة قوي جداً عند الأطفال[2]. أخبرت أولسون وباحث آخر يدعى أليكس شو، الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ستة وثمانية أعوام بقصة "مارك" و"دان"، اللذين قاما بتنظيف غرفتهما وتم مكافأتهما بمحايات، ثم سألتا الاطفال «لا أعرف كم عدد

(1) K. R. Olson and E. S. Spelke, "Foundations of Cooperation in Preschool Children," *Cognition* 108 (2008): 222–31.

(2) A. Shaw and K. R. Olson, "Children Discard a Resource to Avoid Inequity," *Journal of Experimental Psychology: General* 141 (2012): 382–95.

المحايات التي يتوجب علي منحها لهما، هل يمكنكم مساعدتي بهذا؟ عظيم. ستقررون عدد المحايات التي سيحصل عليها مارك ودان. لدينا هذه المحايات الخمس. لدينا واحدة لمارك وواحدة لدان وواحدة لمارك وواحدة لدان. آه! لدينا واحدة متبقية».

عندما سأل الباحثون: «هل يجب أن نعطيها [الممحاة المتبقية] إلى دان أم يجب أن نتخلص منها؟» كان الأطفال دائماً ما يرغبون في التخلص منها، وقد تم اكتشاف النتيجة نفسها عندما أكد الباحثون أنه لا مارك ولا دان يعرفان عن الممحاة الإضافية، لذلك لا يمكن أن يكون هناك شماتة أو حسد. حتى هنا، كان الأطفال يريدون تحقيق المساواة، لدرجة أنهم سيتلفون شيئاً ما من أجل الحصول عليها.

أتساءل عما إذا كان الكبار سيفعلون الشيء نفسه؟

تخيل أنه يتم إعطاؤك خمس ورقات نقدية من فئة مائة دولار لتضعها في مظروفين وترسلهما إلى شخصين مختلفين. هنا لا توجد وسيلة لتحقيق المساواة إلا بأن تضع العملة الخامسة في آلة التمزيق، فهل ستفعل ذلك؟

يبدو أن الأطفال في دراسات شو وأُولسون يهتمون بالمساواة أكثر من اللازم، وقد يتساءل المرء عما إذا كان هذا التركيز الضيق الأُفق يرجع إلى تجاربهم خارج المنزل. بعد كل شيء، فإن الحضانات ومراكز الرعاية النهارية التي يجري فيها علماء النفس الأمريكيون تجاربهم هي عادة مؤسسات يتم فيها حشر معايير المساواة باستمرار في رؤوس الأطفال. هذه مجتمعات يحصل فيها كل طفل على جائزة ويكون الجميع فوق المتوسط.

ربما يكون لهذا النوع من التعليم بعض التأثير، ولكن هنا تظهر سلسلة من الدراسات الحديثة تبين أن التحيز للمساواة يظهر قبل أن تتاح للمدارس وللرعاية النهارية فرصة لتشكيل تفضيلات الأطفال بفترة طويلة.

في واحدة من هذه الدراسات، جعل عالما النفس ألساندرا جيراسي ولوكا سوريان أطفالاً بعمر عشرة أشهر إلى ستة عشر شهراً يشاهدون عرضاً للدمى قام فيه كل من الأسد والدب بتوزيع قرصين متعددي الألوان على حمار وبقرة. الأسد (أو الدب، في تجارب بديلة) أعطى لكل حيوان قرصاً واحداً، وقدم الدب (أو الأسد) قرصين لأحد الحيوانات (إما البقرة أو الحمار) فيما لم يعط للآخر أي شيء. ثم أظهروا الأسد والدب للأطفال وسألوا الأطفال: «من هو الصالح؟ أرجو أن تدلني على الشخص الطيب». اختار الأطفال في عمر عشرة أشهر بشكل عشوائي. لكن الأطفال في سن ستة عشر شهراً فضلوا الموزع العادل[١].

أجرى علماء النفس ماركو شميدت وجيسيكا سومرفيل دراسة مماثلة مع أطفال في عمر خمسة عشر شهراً مستخدمين أشخاصاً حقيقيين بدلاً عن دمى الحيوانات، وجعلوا الأطفال أنفسهم يشاهدون تقسيماً عادلاً وآخر غير عادل، فوجدوا أن الأطفال في هذا السن قد نظروا الى التقسيم غير العادل لفترة أطول، مما يشير إلى أنهم وجدوه مفاجئاً[٢].

(1) A. Geraci and L. Surian, "The Developmental Roots of Fairness: Infants' Reactions to Equal and Unequal Distributions of Resources," *Developmental Science* 14 (2011): 1012–20.

(2) M. F. H. Schmidt and J. A. Sommerville, "Fairness Expectations and Altruistic Sharing in 15-Month-Old Human Infants," *PLoS ONE* 6, no. 10 (2011): e23223.

هناك أبحاث أُخرى تشـير إلى أنه يمكن للأطفال في بعض الأحيان أن يتجاهلوا مفهوم المسـاواة. ففي تجربة أجراها علماء النفس سـتيفاني سـلون ورينيه بايلارجيون وديفيد بريماك، قام أطفال يبلغون من العمر تسعة عشر شهراً، بمراقبة شخصين يلعبان بالألعاب ثم يأتي شـخص ثالث ويأمرهما بأن يشرعوا في التنظيف. عندما قام كلا الشـخصـين بالتنظيف، توقع الصـغار من المجرب أن يكافئ هذين الشـخصـين لاحقاً بالتسـاوي، وكانوا ينظرون لفترة أطول إذا لم يكافئهما بالتسـاوي، ولكن عندما قام أحدهما بعمله بالكامل، بينما كان الآخر يتكاسـل ويسـتمر باللعب، نظر الأطفال لفترة أطول عندما كافأ المجرب كلا الشخصين بالتساوي. نستنتج من هذا أن الأطفال ــ على ما يبدو ـ لم يتوقعوا مكافأة متساوية لجهد غير متكافئ[1].

وأيضـاً، عند إعطاء الأطفال عدداً غير متسـاو من الموارد لتوزيعها، يكونون أذكياء بشأن ما يجب فعله بالموارد الإضافية.

كما ذكر أعلاه، يفضّـل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ و ٨ سنوات التخلص من ممحاة خامسة بدلاً من تقسيم غير متساوٍ بين شخصين قاما بتنظيف الغرفة، ولكن إذا أضـفت جملة واحدة فقط وهي «قام دان بعمل أكثر من مارك» – فإن جميع الأطفال تقريباً يغيرون إجاباتهم. بدلاً من التخلص من الممحاة، سيريدون إعطاءها لدان. أيضاً، أنت تذكر التجربة التي جعل الباحثون فيها الأطفال يوزعون الموارد عن طريق دمية، فكانوا يميلون إلى توزيعها بالتساوي عندما كان هناك عدد زوجي من الموارد، وقد وجد

(1) S. Sloane, R. Baillargeon, and D. Premack, "Do Infants Have a Sense of Fairness?," *Psychological Science* 23 (2012): 196–204.

الباحثون أنفسُهم أنه إذا كان هناك عدد فردي من الموارد ولم يُمنح الأطفال خيار التخلص من الباقي، فإن الأطفال الذين يبلغون من العمر ثلاث سنوات سيجعلون الدمية تعطي الباقي للشقيق والصديق بدلاً من الغريب، ولشخص سبق أن أعطى الدمية شيئاً بدلاً من شخص لم يعطها أي شيء، ولشخص كان كريماً مع الآخرين بدلاً من شخص لم يكن كذلك[١].

يتصف الأطفال الصغار بأنهم لا يعرفون كل شيء. فإن بعض التجارب، التي أجريتها مع أخصائي علم النفس كولين ماكينتري ولوري سانتوس، تجد أن الأطفال الأكبر سناً والبالغين يفكرون في الكرم النسبي من حيث التناسب – فالشخص الذي يمتلك ثلاثة عناصر ويعطي اثنين يعتبر "ألطف" من شخص لديه عشرة عناصر ويعطي منها ثلاثة – بينما يركز الأطفال الصغار على القيمة المطلقة فقط.[٢] وتجد دراسات أُخرى أن فهمنا للعوامل التي يمكن أن تبرر عدم المساواة – مثل الحظ والجهد والمهارة – يتطور حتى خلال فترة المراهقة[٣].

رغم ذلك فإن ما نراه في جميع الأعمار هو انحياز كلي نحو المساواة. يتوقع الأطفال المساواة، ويفضلون أولئك الذين يقسمون الموارد بالتساوي، ولديهم ميل كبير إلى تقسيم الموارد بالتساوي، وهذا يتناسب بشكل كبير مع صورة معينة للطبيعة البشرية، وهي أننا نولد وعندنا نوع من غريزة الإنصاف؛ أي نحن عادلون بالفطرة، وكما يقول عالم

(1) Shaw and Olson, "Children Discard a Resource"; K. R. Olson and E. S. Spelke, "Foundations of Cooperation in Preschool Children," *Cognition* 108 (2008): 222–31.

(2) K. McCrink, P. Bloom, and L. Santos, "Children's and Adults' Judgments of Equitable Resource Distributions," *Developmental Science* 13 (2010): 37–45.

(3) I. Almas, A. W. Cappelen, E. O. Sorensen, and B. Tungodden, "Fairness and the Development of Inequality Acceptance," *Science* 328 (2010): 1176–78.

الرئيسيات فرانس دي وال: «كان روبن هود على حق، فان أقوى رغبة للبشرية هي توزيع الثروة»[1].

يبدو أننا نريد توزيع الثروة عندما يتعلق الأمر بالأفراد الآخرين. لكنني لا أعتقد أن نظرية روبن هود تصح عندما يتعلق الأمر بنا. بدلاً من ذلك، نسعى للحصول على ميزة نسبية، فنحن لا تحركنا الرغبة في المساواة بل المخاوف الأنانية حول ثروتنا ومكانتنا، ويمكن ملاحظة ذلك في أنماط الحياة في المجتمعات الصغيرة الحجم، وفي الدراسات المختبرية مع البالغين الغربيين، والأهم من ذلك كله، في الخيارات التي يتخذها الأطفال الصغار عندما يكون لديهم شيء ما يخسرونه.

دعونا ننظر إلى المجتمعات أولاً، فكما هو واضح في معظم تاريخنا المدوّن، إننا عشنا في ظروف تتسم بالمظالم وانعدام المساواة. يروي ألكساندر سولجينتسين قصة مثيرة للقلق عن حال مجتمع يتسم بالظلم وانعدام المساواة من روسيا القرن الماضي:

عقد مؤتمر للحزب في مقاطعة موسكو، وقد ترأسه الأمين الجديد للجنة حزب المقاطعة، ليحل محل الأمين السابق الذي اعتقل مؤخراً، وفي نهاية المؤتمر أُطلقت دعوة لتحية الرفيق ستالين فقفز الناس من أماكنهم وانفجروا في التصفيق الحار؛ دقيقة...دقيقتين...٣ دقائق...٥ دقائق..٧..٩، تصفيق عاصف وهتاف حار، لم يملك أي فرد الجرأة على التوقف عن التصفيق لأنهم كانوا يعرفون أن البوليس السري

(1) Frans De Waal, *The Age of Empathy: Nature's Lessons for a Kinder Society*(New York: Random House, 2009), 200.

يراقبهم، واستمر التصفيق حتى تورمت الكفوف وتشنجت الأذرع المرفوعة وحتى أنهار بعض كبار السن وأُغمى عليهم في مكانهم من الإنهاك والإعياء الذي تسببت فيه نوبة التصفيق، واستمرت نوبة التصفيق المسعورة التي بدت بلا نهاية ؛ الجميع كانوا يتمنون أن يكف أحدهم عن التصفيق ويتحمل التوابع. إلى أن اصبح الأمر سخيفاً بشكل لا يحتمل حتى لأولئك الذين كانوا يعشقون ستالين حقاً، وبعد أكثر من ١١ دقيقة من التصفيق قرر أحد الحضور (مدير مصنع الورق المحلي) أن يتوقف، وتوقف وجلس، وفي غمضة عين تبعه الجميع، وكالمتوقع بعد المؤتمر تم القبض على ذلك الرجل في الليلة نفسها وحكم عليه بعشر- سنوات في أحد أشرس سجون الاتحاد السوفيتي، وقال فيما بعد أن التحقيق الرسمي انتهى معه بهذه العبارة: «إياك أن تكون أول المتوقفين عن التصفيق»[1].

وهناك مثال أكثر حداثة حدث في عام ٢٠١١ في كوريا الشمالية حيث سُجن مواطنون بعد جنازة كيم جونغ إيل لعدم الحداد بأُسلوب مقنع بدرجة كافية.

الكثير من القصص التاريخية عن المجتمعات التي يقودها الطغاة ممن هم على شاكلة ستالين تكشف شيئاً عن طبيعة علم النفس البشري. فنحن البشر- مصممون للهيمنة والخضوع - مهيئون للعيش في مجموعات تتكون من قائد قوي (رجل كبير) وآخرين تحته. إذا كان الأمر كذلك، فإننا نتوقع أن نرى هذه الهياكل الاجتماعية في المجتمعات البدائية الصغيرة المعاصرة، لأنهم، من نواحٍ مهمة، يعيشون بالطريقة التي كنا نعيشها

(1) Aleksandr Solzhenitsyn, *The Gulag Archipelago, 1918–1956: An Experiment in Literary Investigation* (New York, Harper, 1974), 69–70.

جميعاً قبل حوالي عشرة آلاف عام، قبل الزراعة، وتدجين الحيوانات، والتكنولوجيا الحديثة.

في عام ١٩٩٩، تناول عالم الإنثروبولوجيا كريستوفر بويم هذه المسألة في كتابه "التسلسل الهرمي في الغابة"، الذي استعرض فيه أنماط الحياة لعشرات من المجموعات البشرية البدائية الصغيرة. ربما من المدهش، أنه وجد أنها مجتمعات تقوم على أساس المساواة. إذ يتم فيها إبقاء انعدام المساواة المادية إلى الحد الأدنى، ويتم توزيع الثروات على الجميع. بالإضافة إلى رعاية كبار السن والمرضى. هناك قادة، لكن سلطتهم تبقى تحت المراقبة، والبنية الاجتماعية مرنة وغير هرمية[١]. فهي أبعد ما يكون عن روسيا ستالين وأقرب ما يكون من حركة احتجاجات "احتلوا وول ستريت"[٢].

لست أُضفي هنا هالة مثالية من الخيال على أُسلوب حياة مجتمعات الصيد وجمع الثمار – لا أود العيش في عالم بدون روايات ومضادات حيوية. كما أنهم ليسوا لطيفين فيما بينهم على أي حال. إنها مجتمعات تقوم على المساواة عندما يتعلق الأمر بالعلاقات بين الذكور البالغين. عدا ذلك فهي مجتمعات هرمية. أيضاً، المساواة لا تعني السلام. فمجتمعات الصيد وجمع الثمار تتسم بقسوة شديدة، وهناك عنف ضد المرأة، وعنف بين الرجال الذين يتنافسون للتزاوج، وعنف ضد الجماعات المعادية[٣]. لهذه الأسباب، فإن

(1) Christopher Boehm, *Hierarchy in the Forest: The Evolution of Egalitarian Behavior* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999).

(٢) هامش المترجم: "احتلوا وول ستريت" هي حركة احتجاجات بدأت في سبتمبر ٢٠١١ ودعت إلى احتلال وول ستريت في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية.

(3) Boehm, *Hierarchy in the Forest.* For review, see Steven Pinker, *The Better Angels of Our Nature: Why Violence Has Declined* (New York: Viking, 2011).

معظم الناس الذين يقرأون هذا الكتاب أفضل حالًا من العضو العادي في قبيلة صيد وجمع ثمار معاصرة، ومع ذلك، فإن الشخص ذا المكانة المنخفضة جداً في المجتمع الحديث، مثل رجل مسن بلا مأوى يعيش في شوارع مانهاتن أو إمرأة غير سوية في ساو باولو، ربما تكون هذه النماذج أفضل حالاً مما لو كانوا أعضاء في هذه القبيلة، لأنهما على الأقل سيحصلان هناك على مجتمع وإعالة واحترام.

حتى الآن، تبدو الأدلة الإنثروبولوجية تشير إلى ما يدعم نظرية روبن هود، في أن البشر- مفعمون بالفطرة ببعض التفضيل الراسخ للعدالة، وهذا يؤدي إلى المساواة في هياكلنا الاجتماعية "الطبيعية". لكن بويم يقول بالعكس، حيث يلاحظ أن أُسلوب حياة مجتمعات الصيد وجمع الثمار القائم على المساواة موجود لأن أفراد هذه المجموعات يهتمون كثيراً بالمكانة. الأفراد في هذه المجتمعات في نهاية المطاف متساوون تقريبًا لأنهم جميعا يكافحون لضمان عدم حصول أي شخص، لديه نفوذ، أكثر من اللازم؛ وهذه مساواة غير مرئية.

تخيل ثلاثة أطفال وفطيرة.. إحدى الطرق التي يمكنهم من خلالها الحصول على حصص متساوية هي أنهم يهتمون بالمساواة ويوافقون على أن الجميع يجب أن يحصلوا على الحصة نفسها. لكن الطريقة الأُخرى للحصول على قسمة متساوِية هي أن كل طفل يحرص على التأكد من أنه لن يحصل على أقل من الآخرين.

يمكن أن تنجح هذه الاستراتيجية ـــ في مثال الفطيرة وفي العالم الحقيقي ـــ فقط إذا كان الأفراد قادرين على الدفاع عن حقوقهم وحماية وضعهم. في المجتمعات التي يصفها بويم، يستخدم أفراد القبيلة النقد والسخرية لإسقاط أولئك الذين يعتقدون أنهم

يشغلون مناصب أكبر مما يستحقون. كما قالت ناتالي أنجيير: من بين كل رجال الأدغال فإن قبيلة الكونج في كالاهاري في إفريقيا، يتم فيها كبح جماح صياد ناجح يميل إلى التباهي، وذلك من قبل مواطنيه من خلال لعبة طقوسية تسمى "إهانة الصيد"، حيث يقوم فيها أفراد القبيلة باستصغار إنجاز الصياد والسخرية من صيده.[١]

وهناك أيضا نميمة واستهزاء صريح. يستشهد بويم بقول أحد العلماء: عندما حاول زعيم محتمل في قبيلة الهادزا إقناع أحد أفراد القبيلة بالعمل لصالحه قال له أفراد القبيلة بصراحة أن مساعيه أضحكتهم[٢]. (هكذا كان يعاملني طلاب الدراسات العليا عندما بدأت كأُستاذ مساعد) وهناك عقوبات أكثر حزماً. يمكن أن يُطرد "الطغاة الطامحون" من مجموعاتهم، وهو مصير يشبه عقوبة الإعدام. أو يمكن أن يقتلوا مباشرة. عندما يحاول رجل من قبيلة بارويا أخذ ماشية جيرانه أو أخذ زوجاتهم، يُقتل، وعندما يصبح زعيم «عدوانياً للغاية وبارعاً في السحر»، يقوم رجال القبائل بتسليمه إلى «جهة انتقامية» تابعة لقبيلة أخرى[٣].

إذن، فإن أُسلوب حياة مجتمعات الصيد وجمع الثمار القائم على المساواة ينبثق من الأشخاص الذين يتنافسون على المنصب، وأولئك الذين يحبونهم، ويرغبون في العمل معاً لحماية أنفسهم من الهيمنة، وكما يقول بويم، الأفراد الذين كانوا سيخضعون هم أذكياء بما يكفي لتشكيل ائتلاف سياسي كبير وموحد ... لأن المرؤوسين الموحدين

(1) N. Angier, "Thirst for Fairness May Have Helped Us Survive," *New York Times*, July 5, 2011.

(2) Boehm, *Hierarchy in the Forest*, 75.

(3) Boehm, *Hierarchy in the Forest*, 121, 82.

يضعون باستمرار الزعماء الأكثر حزماً في وسطهم، وعليه فإن المساواة هي في الواقع نوع غريب من التسلسل الهرمي السياسي: تتجمع القوى الضعيفة لتسيطر بصورة فعالة على القوي[1].

من المحزن أن هذا النوع من المساواة الذي وصفه بويم قد انتهى بالنسبة لمعظمنا. حيث ازداد عدد السكان، وظهرت الزراعة، وتم تهجين الحيوانات، واخترعت التقنيات الجديدة، وبسبب هذا، أصبحت العقوبات المتاحة من قبل الضعفاء أقل فعالية، وأصبحت التدابير المضادة من قبل الأقوياء أكثر دموية. لو كنا نعيش في أحد مجتمعات الصيد وجمع الثمار الصغيرة، وكان القائد يدعي السيطرة، سيمكننا أن نضحك عليه أو نتجاهله، ويمكننا عقد اجتماعات، وإذا كان عدد منا غير راضٍ، يمكننا ضربه أو قتله. لكن لا شيء من هذا ينفع في المجتمعات التي لم تعد التفاعلات فيها وجهاً لوجه، فيمكن للأفراد أو لمجموعات صغيرة من النخب تجميع موارد غير متكافئة بشكل كبير، مادياً واجتماعياً. قد يكون لدى الصياد الطموح مجموعة من الأصدقاء مدججين بالصخور والرماح، كما كان لدى ستالين جيش وشرطة سرية ومعسكرات اعتقال وبنادق وأدوات تعذيب في العالم الحديث.

يمكن للقائد الطموح والقاسي الذي يدفعه حب السلطة أن يشكل مجموعة تهيمن على عدد من السكان أكثر من المجموعة ألف مرة، ولم يعد من السهل على الضعفاء تشكيل مجموعة للسيطرة على الأقوياء (على الرغم من أن البعض يقول إن الإنترنت – كونه لا مركزياً ومجهول الهوية إلى حد ما – يساعد على معادلة النتيجة).

(1) Boehm, *Hierarchy in the Forest*, 3.

لننتقل الآن إلى البالغين في مجتمعنا. على مدى العقود القليلة الماضية، صمم الباحثون في مجال الاقتصاد السلوكي ألعاباً ذكية وبسيطة لاستكشاف مدى طيبتنا وعدالتنا وإيماننا بالمساواة حقاً.

يُعرف أول هذه الألعاب باسم لعبة "الإنذار النهائي"[1]، وتعتمد فكرة بسيطة، حيث يدخل المشارك إلى مكان الاختبار ويتم اختياره بشكل عشوائي ليكون إما "مقدماً" أو "مستلماً"، وإذا تم اختياره ليكون مقدماً فسيحصل على مبلغ من المال، ١٠ دولارات مثلاً، ولديه خيار إعطاء أي نسبة من هذه الأموال إلى المستلم، والمستلم بدوره، لديه خياران فقط – قبول العرض أو رفضه. الأهم من ذلك، إذا تم رفض العرض، فسيحرم كلاهما من المال، ويكون المقدم على علم بهذه القاعدة قبل أن يقوم بالمنحة. عادةً ما يتم إجراء التجربة بشكل مجهول – حيث يكون المقدم والمستلم في غرف مختلفة، ولا يعرف أحدهما الآخر، ولن يواجه أحدهما الآخر مرة أُخرى.

إذا افترضنا أن كلا المشاركين يتصرفان بشكل منطقي تماماً ولا يفكران سوى بالمال، فيجب على مقدم العرض تقديم أقل عرض ممكن، ويجب أن يقبل المستلم هذا العرض، لأن دولاراً واحداً أفضل من لا شيء، ولن يؤدي رفضه إلى عرض أفضل في المستقبل، حيث يتم لعب اللعبة مرة واحدة فقط، ولكن هذا نادراً ما يحدث، إذ يقدم مقدم العرض عادة نصف المبلغ أو أقل بقليل من نصف المبلغ.

(1) W. Güth, R. Schmittberger, and B. Schwarze, "An Experimental Analysis of Ultimatum Bargaining," *Journal of Economic Behavior and Organization* 3 (1982): 367–88.

يمكن أن يعكس هذا دافع روبن هود (دافع المساواة) من جانب المقدم: المتمثل بالاعتقاد بأن التقسيم المتساوي هو الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله. لكن البديل الواضح هو أن مقدمي العروض يتصرفون بدافع المصلحة الشخصية، لأنهم يعتقدون أن العروض البائسة سترفض، وهم محقون في تصديق ذلك: في المختبر، يرفض المستلمون العروض المنخفضة، ويتنازلون عن الربح حتى لا يحصل المقدِم البخيل على شيء.

رغم أن رفض العروض المنخفضة يعد خطأً (بمعنى ان المستلم يخرج صفر اليدين)، فقد تبين أن لعبة الإنذار النهائي واحدة من تلك المواقف المتناقضة التي ينفع فيها أن تكون غير عقلاني، أو على الأقل يعتبرك الآخرون غير عقلاني. إذا كنت فرداً أنانياً وكنت أعلم أنني كنت ألعب لعبة الإنذار النهائي لمرة واحدة مع روبوت عديم المشاعر، عندئذٍ، بصفتي مقدم العرض، سأقدم الحد الأدنى، لأنني أعلم أنه سيتم قبوله، ولكن إذا كنت أتعامل مع شخص عادي، فإنني سوف أخشى أن يرفض عرضي المنخفض بالرغم من ذلك، ولذا أود إعطاءه المزيد من المال.

(وفقًا لما قاله الخبير الاقتصادي السلوكي دان أرئيلي، عندما يتم إجراء اللعبة مع طلاب العلوم الاقتصادية، فإن غالبيتهم سيقبلون بالعروض المنخفضة ويقبلون حتى بالحد الأدنى. إلاّ إذا لعب هؤلاء المقدمون العقلانيون مع غير الاقتصاديين، فسيحصلون على مفاجأة غير سارة)[1].

(1) Dan Ariely, *The Upside of Irrationality: The Unexpected Benefits of Defying Logic at Work and at Home* (New York: Harper, 2010). See also J. R. Carter and M. D. Irons, "Are Economists Different, and If So, Why?," *Journal of Economic Perspectives* 5 (1991): 171–77.

إن رفض المتلقي للعرض المنخفض يعتبر أمراً منطقياً حين ندرك أن عقولنا لم تتكيف للتفاعل مع مصادر مجهولة ولمرة واحدة فقط[١]. لقد خُلقنا في عالم اشتركنا فيه بتفاعلات متكررة مع عدد صغير نسبياً من الأفراد الآخرين (الأقارب والأصدقاء وزملاء العمل). لذلك نحن مصممون للتجاوب مع العرض التافه كما لو كان الأول من بين عدة عروض، حتى لو علمنا، بوعي، أنه ليس كذلك. سيكون الرفض إصلاحياً لو كنت ستلعب مع الشخص نفسه لعدة مرات، والحالة النفسية التي تدفع هذا الرفض هي الغضب تجاه الشخص الذي يقوم بالعرض. يمكنك أن ترى ذلك في وجوه المستلمين التي ستبدو عليها مظاهر الاحتقار أو الاشمئزاز[٢]، وفي أدمغتهم، حيث تصبح المناطق المرتبطة بالغضب أكثر نشاطاً[٣]. في إحدى الدراسات سُمح للمستلمين بإرسال رسائل للمقدمين الذين قاموا بتقديم عروض تافهة (دون الكشف عن هويتهم)، وقد احتوت بعض الرسائل على عبارات «لا ينبغي أن تكون جشعاً»، و «حسناً، أنت لا تقدم شيئاً»؛ و «يا صاح، هذا جشع نوعاً ما»؛ و«شكرا على لاشيء»؛ و «أنت سيء»[٤].

ما الذي يزعج حقاً في تلقيك عرضاً زهيداً؟[٥].

(1) A. W. Delton, M. M. Krasnow, J. Tooby, and L. Cosmides, "The Evolution of Direct Reciprocity Under Uncertainty Can Explain Human Generosity in One-Shot Encounters," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 108 (2011): 13335–40.

(2) H. A. Chapman, D. A. Kim, J. M. Susskind, and A. K. Anderson, "In Bad Taste: Evidence for the Oral Origins of Moral Disgust," *Science* 5918 (2009): 1222–26.

(3) A. G. Sanfey, J. K. Rilling, J. A. Aronson, L. E. Nystrom, and J. D. Cohen, "The Neural Basis of Economic Decision-Making in the Ultimatum Game," *Science* 300 (2003): 1755–58.

(4) E. Xiao and D. Houser, "Emotion Expression in Human Punishment Behavior," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 102 (2005): 7398–7401. For discussion, see Nichols, "Emotions, Norms."

(5) Nichols, "Emotions, Norms," 289.

يوضح الفيلسوف شون نيكولز المنطق هنا بقوله: إذا طُلب من جيم تقسيم المال مع بيل، واختار جيم أن يتحدى [قاعدة التقسيم المتساوي]، بمنح بيل عُشر المبلغ، ما هو مبرر جيم؟ نظراً لأن المال كان مكسباً مفاجئاً (أي ان كليهما لم يتعب في حصوله)، لا يمكن لجيم أن يدعي أنه حصل على نصيب أكبر. نظراً لوجود قاعدة التقسيم المتساوي، سيكون من الطبيعي الاعتقاد بأن جيم يتعامل مع بيل على أنه أقل شأناً. الآن، مع معرفة ذلك، قد يتجنب جيم تقديم عرض متدنٍّ من خلال ممارسة التعاطف، وقد يشعر بالضيق من فكرة شعور بيل بالإهانة من هذا العرض وهذا قد يحفزه على تقديم عرض عادل. لكن قد يفعل ذلك أيضاً لسبب أناني: إذا كان بيل غاضباً بما فيه الكفاية، فيمكنه الانتقام من جيم وتركه بلا شيء.

إذن سلوك الأفراد في لعبة الإنذار النهائي لا يوفر أي دعم لنظرية التوزيع العادل والتي تعرف بنظرية روبن هود، ولكن الآن فكر في "لعبة الديكتاتور"،[1] وهي لعبة اخترعها عالم النفس دانييل كانيمان وزملاؤه، وتشبه لعبة الإنذار النهائي بالضبط، باستثناء أنها تلغي المرحلة التي يمكن للمستلمين فيها الاختيار. يحصل المشاركون على مبالغ مالية ويمكنهم إعطاء القدر الذي يريدونه للغرباء المجهولين، وهذا كل شيء – يحتفظون بما يختارون الاحتفاظ به.

بكل وضوح يمكن للاعب الأناني أن لا يعطي شيئاً. لكن هذا ليس ما يفعله الناس.[2] فقد كان هناك أكثر من مائة دراسة منشورة حول ألعاب الديكتاتور، واتضح

(1) D. Kahneman, J. Knetsch, and R. H. Thaler, "Fairness and the Assumptions of Economics," *Journal of Business* 59 (1986): 285–300.

(2) C. Engel, "Dictator Games: A Meta Study," *Experimental Economics* 14 (2011): 583–610.

أن معظم الناس يعطون، ومتوسط الهدية يتراوح بين ٢٠ و٣٠ في المائة. تجد بعض الدراسات سخاء أكبر، حيث تشير التقارير إلى أن الكثير من الناس يعطون نصفاً أو أقل قليلاً من النصف.

بخلاف لعبة الإنذار النهائي، لا يمكن تفسير هذا الكرم على أنه خوف من الانتقام. لذلك فإن إحدى تفسيرات هذه النتائج هو تحليل روبن هود – يعطى اللاعب في لعبة الديكتاتور الأموال بدافع الإنصاف. بمعنى أن الشخص الذي حصل على فرصة الاختيار قد نجح في وضع موقعه الخاص جانباً ويفكر في الحل الأمثل من موقع متفرج غير مشارك. نظراً لعدم وجود سبب يبرر حصول اللاعب المقدم في اللعبة على مبلغ أكثر من الشخص الآخر، سينساق إلى تقسيم المبلغ غير المتوقع بشكل متساوٍ (رغم أنه، بسبب هشاشة النفس البشرية، قد يبقي مبلغاً أكثر بقليل لنفسه).

رغم ذلك، لست أول من أشار إلى وجود شيء غريب في هذا التفسير. صحيح أن بعض الناس يؤمنون بمبدأ المساواة الذي يقول إن أفضل عالم هو عالم تقسم فيه الموارد بالتساوي، لكننا لا نشعر – كقاعدة عامة – بأننا مضطرون إلى التخلي عن نصف أموالنا للشخص الذي يقف بجانبنا. نحن أسخياء في كثير من الأحيان، ولكن ليس في هذا النوع من الطريقة العشوائية[1]. هذا يصح حتى عندما يأتي المال كمفاجأة. لنفترض أنك وجدت عشرين دولاراً على الرصيف. هل تقوم فوراً بتسليم عشرة دولارات للشخص التالي

(1) S. D. Levitt and J. A. List, "What Do Laboratory Experiments Measuring Social Preferences Reveal About the Real World," *Journal of Economic Perspectives*21 (2007): 153–74.

الذي يسير على الرصيف، على أساس أنه الحظ الذي جعلك تعثر عليها ولم يجعله؟ على الأرجح، كلا.

فلماذا يكون الناس لطفاء للغاية في هذه التجارب المختبرية؟

هناك نوع مختلف من التفسير هو الضغط الاجتماعي. يعرف المشاركون أنهم في دراسة تبحث في اللطف والإنصاف. عادة ما يتم تأطير الموقف بحيث يمكن للمرء أن يستمر بالكرم، وأسوأ شيء هو عدم تقديم أي شيء. إن النتيجة التي مفادها أن معظم الناس يقدمون شيئاً ما قد تفسر إلى حد كبير من خلال حقيقة أن لا أحد يريد أن يبدو بخيلاً.

لمعرفة قوة تأثير المشاهدين، فقط تخيل - كما اقترح أحد الباحثين - لعب لعبة الديكتاتور في برنامج يبث على التلفزيون الوطني، يشاهده جميع أفراد عائلتك وأصدقائك. ألا يجعلك هذا أكثر سخاء؟ ليس من المستغرب أن تجد الدراسات المختبرية أنه كلما كان المرء مراقباً أكثر في خياراته، أصبح أكثر عطاء[١]. حتى صور العيون على الحائط أو على شاشة الكمبيوتر تجعل الناس أكثر لطفاً،[٢] ربما لأنها تحفز التفكير في أنهم مراقبون. تم التعبير عن الفكرة هنا بشكل جيد بواسطة توم ليرر، في نشيده عن الكشافة: احرص على عدم القيام بأعمالك الطيبة عندما لا يكون هناك أحد يراقبك[٣].

(1) Steven D. Levitt and Stephen J. Dubner, *Superfreakonomics* (New York: William Morrow, 2009); E. Hoffman, K. McCabe, K. Shachat, and V. Smith, "Preferences, Property Rights, and Anonymity in Bargaining Games," *Games and Economic Behavior* 7 (1994): 346–80; A. Franzen and S. Pointner, "Anonymity in the Dictator Game Revisited," *Journal of Economic Behavior and Organization* 81 (2012): 74–81.

(2) K. Haley and D. Fessler, "Nobody's Watching? Subtle Cues Affect Generosity in an Anonymous Economic Game," *Evolution and Human Behavior*26 (2005): 245–56; M. Bateson, D. Nettle, and G. Roberts, "Cues of Being Watched Enhance Cooperation in a Real-World Setting," *Biology Letters* 12 (2006): 412–14.

(3) Quoted in Martin A. Nowak and Roger Highfield, *SuperCooperators: Altruism Evolution and Why We Need Each Other to Succeed* (New York: Free Press, 2011).

رغم أن سيناريو لعبة الديكتاتور يفترض أن يكون سرياً، إلا أن المشاركين قد لا يصدقون تأكيدات المجربين بأن هذا الأمر صحيح، وهم محقون في أن يكونوا مرتابين؛ في بعض الأحيان يتم الكذب عليهم. علاوة على ذلك، قد يكون الدافع لإحداث انطباع جيد عند الآخرين فعالاً حتى عندما يعي المرء أنه لا يوجد جمهور.

قد يبدو كل هذا صعباً جداً. حتى إذا أعطى الناس بسخاء، فلن يحدث هذا فرقاً إذا كان هذا الكرم يأتي بدافع الخوف من كيفية رؤية الآخرين لهم؟ لقد اتضح، مع ذلك، أن دافع المساواة الخالص هو شيء وأن الرغبة في الظهور بشكل يليق شيء آخر تماماً. مجموعتان ذكيتان من التجارب توضحان هذه النقطة.

في البداية، قام العالم النفسي جيسون دانا وزملاؤه بتعديل لعبة الدكتاتور القياسية،[1] وذلك بإعداد اللعبة الأساسية بمبلغ ١٠ دولارات، ولكن هنا يمكن لبعض المشاركين الاختيار بين لعب اللعبة العادية أو الحصول على ٩ دولارات وترك اللعبة. قيل لهم إنهم إذا اختاروا هذا الخيار الثاني، فلن يعلم المستلم أبداً أنه كان طرفاً في لعبة دكتاتور.

يوافق الفرد الأناني، الذي يسعى من أجل النقود فقط، على لعب اللعبة والحفاظ على ١٠ دولارات لتحقيق أقصى مكسب. من ناحية أُخرى، يوافق الفرد السخي على اللعب والتخلي عن جزء من ١٠ دولارات، ولن يختار أيّ منهما عدم المشاركة من أجل ٩ دولارات، لأن هذا الخيار يمنح اللاعب أقل من ١٠ دولارات (وبالتالي لا يكون منطقياً

(1) J. Dana, M. C. Daylian, and R. M. Dawes, "What You Don't Know Won't Hurt Me: Costly (but Quiet) Exit in Dictator Games," *Organizational Behavior and Human Decision Processes*100 (2006): 193–201.

من منظور أناني) ولن يمنح الشخص الآخر شيئاً (وبالتالي لا يكون منطقياً من منظور سخي).

ومع ذلك، اختار أكثر من ثلث المشاركين الانسحاب والحصول على ٩ دولارات. هذا على الأرجح لأنهم أرادوا الحصول على المال لكنهم لا يريدون أن يوضعوا في موقف سيشعرون فيه بالضغط لإعطاء مبلغ كبير منه. الأمر هنا يشبه أن تسير في شارع وثمة متسول ينتظرك فيه. إذا كنت من متحجري القلب، فإنك ستواصل مشيك ولا تفعل شيئاً. أما إذا كنت كريماً، فسوف تعطي بعض المال قبل أن تمشي، ولكن إذا كنت لا تريد أن توضع في موقف تشعر أنك مضطر لإعطائه، فقد تتخذ خياراً ثالثاً وهو أن تعبر الشارع لتتجنب المتسول تماماً.

تم إجراء المجموعة الثانية من التجارب من قبل الاقتصادي جون ليست.[1] وقد بدأ بلعبة تم فيها منح الدكتاتور ١٠ دولارات وتم منح المستلم ٥ دولارات، وكالعادة، يمكن للدكتاتور أن يعطي أكبر قدر من ماله للشخص الآخر كما يريد. في هذه الحالة البسيطة، كان متوسط الهدية دولاراً و٣٣ سنتاً، وهو مبلغ معقول للغاية. قيل للمجموعة الثانية من المشاركين أن بإمكانهم تقديم ما يشاؤون، لكن يمكنهم أيضاً الحصول على دولار واحد من الشخص الآخر. هنا، انخفض متوسط الهدية إلى ٣٣ سنتا، وأُبلغت مجموعة ثالثة أنهم يمكنهم تقديم ما يريدون كما يمكن أن يأخذوا ما يريدون، حتى مبلغ ٥

(1) J. List, "On the Interpretation of Giving in Dictator Games," *Journal of Political Economy* 115 (2007): 482–94.

دولارات. هنا، أخذوا في المتوسط دولارين و٤٨ سنتاً، وقلة قليلة قاموا بالتقديم، وهنا يجب أن نتعجب من مدى غرابة هذا.

إذا كان التفسير القياسي للعطاء في لعبة الدكتاتور صحيحاً – اي أنها تعكس الدافع لمشاركة الثروة، فلا يهم ـ حينئذ ـ إذا أضاف أحدهم خيار الأخذ. لكن لنفترض الآن أن العطاء يأتي، ولو جزئياً، بدافع رغبة الظهور بشكل طيب. هنا خيار الأخذ جعل الأمر مختلفاً، لأن أسوأ خيار ممكن لم يعد أن لا تعطي شيئاً، بل ان تأخذ كل أموال الشخص الآخر. قد يفكر المشارك بأن: الأحمق الحقيقي هو من يجعل هذا الشخص خالي الوفاض، وهنا لا أُريد أن أبدو كالأحمق – سآخذ القليل منه.

تشير هذه الدراسات مجتمعةً إلى أن السلوك في لعبة الدكتاتور يتأثر بعوامل لاعلاقة لها بدوافع الإيثار والمساواة ولكن يمكن أن يكون له علاقة بمظهر الإيثار والمساواة.

كان الاقتصادي إرنست فيهر وزملاؤه من أوائل من اكتشفوا كيف يتصرف الأطفال عندما يواجهون الألعاب الاقتصادية[1]. فقد اختبروا الأطفال السويسريين، من عمر ثلاث إلى ثماني سنوات، وبدلاً من المال، استخدموا الحلوى. في التجارب التي سأناقشها هنا، تم إخبار الأطفال بأن قراراتهم ستؤثر على الأطفال الذين لا يعرفونهم، والذين هم قد جاؤوا من نفس الحضانة أو الروضة أو المدرسة.

كانت إحدى الألعاب عبارة عن لعبة الدكتاتور: حيث تم منح كل طفل حلوى وخيارين؛ إما أن يحتفظ بواحدة ويعطي الأُخرى أو أن يحتفظ بكليهما. في هذه الحالة،

(1) E. Fehr, H. Bernhard, and B. Rockenbach, "Egalitarianism in Young Children," *Nature* 454 (2008): 1079–83.

كان الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سبع سنوات وثماني سنوات كرماء. فنصفهم تقريباً أعطوا قطعة الحلوى الثانية. لكن الأطفال الأصغر سناً كانوا جشعين – حوالي ٢٠ في المائة فقط من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٥ و٦ سنوات، وحوالي ١٠ في المائة من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث وأربع سنوات تنازلوا عن قطعة الحلوى الثانية.

إن هذه الأنانية تتلاءم، من جانب الأطفال الصغار، مع المزيد من الأبحاث الحديثة حول لعبة الدكتاتور في بلدان مختلفة – بما في ذلك أمريكا وأُوروبا والصين وبيرو والبرازيل وفيجي – التي تجد أن الأطفال الصغار أقل ميلاً بكثير من الأطفال الأكبر سناً أو البالغين في التخلي عما لديهم لشخص غريب[1].

وهنا قد يستنتج المرء أن الأطفال الصغار لا يهتمون مطلقاً بالمساواة عندما تتعلق المشاركة بهم أنفسهم، ولكن ربما يكون هذا غير منصف، إذ ربما يكون لدى الأطفال الأصغر سناً نفس دافع العدالة / اللطف / الإنصاف الذي يتمتع به الأطفال الأكبر سناً، لكن بسيطرة ذاتية أقل، وعلى عكس الأطفال الأكبر سناً، لا يمكنهم التغلب على مصلحتهم الذاتية. حيث تغلب شهيتهم على الإيثار.

لاختبار هذه النظرية، طور فيهر وزملاؤه لعبة أُخرى وهي اللعبة الاجتماعية، وفيها يتم تجنب الصراع بين الإيثار والتحكم الذاتي، حيث يحصل الطفل على الحلوى بأي حال

(1) P. Rochat, M. D. G. Dias, G. Liping, T. Broesch, C. Passos-Ferreira, A. Winning, and B. Berg, "Fairness in Distributive Justice in 3- and 5-Year-Olds Across Seven Cultures," *Journal of Cross-Cultural Psychology* 40 (2009): 416–42.

من الأحوال؛ الخيار هو ما إذا كان سيعطي الفرد الآخر حلوى كذلك. هذا يسمح للأطفال أن يكونوا إيثاريين (وعادلين، ومنصفين) دون أن يتحملوا التكلفة.

فعل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سبع وثماني سنوات كما هو متوقع: فحوالي ٨٠٪ منهم قاموا بإعطاء الحلوى، وبالنسبة للأطفال الأصغر سناً فإن نصفهم فقط فعلوا ذلك. أي أن حوالي نصف الأطفال في الفئات العمرية الأصغر سناً اختاروا عدم التخلي عن الحلوى لشخص غريب – حتى لو لم يكلفهم ذلك شيئاً.

هناك دراسات أُخرى تستكشف ردود فعل الأطفال العاطفية على توزيعات عادلة وغير عادلة يتأثرون بها هم أنفسهم. فقد قامت عالمة النفس فانيسا لوبو وزملاؤها باختبار أطفال في سن ما قبل المدرسة في عمر ثلاث وأربع وخمس سنوات[1]، وقاموا بذلك عن قرب وبشكل شخصي – على عكس الدراسات التي تناولناها سابقاً، حيث لم يجعلوا الأطفال يتعاملون مع أشخاص مجهولين. بل كان المجربون يقومون بإقران طفلين من نفس الفصل، ومن ثم جعلهم يلعبان بالمكعبات معاً في غرفة هادئة لمدة خمس دقائق ثم وضعوا المكعبات جانباً. بعدها يأتي شخص بالغ ليخبرهم أنه نظراً لكونهما قد ساعدا في التنظيف، فإنهما سيحصلان على ملصقات مكافأة لهم، ويكون توزيع المكافأة على مرأى ومسمع من كلا الطفلين (على سبيل المثال ماري وسالي) أعطى المجرب الملصقات واحداً تلو الآخر، مقدماً حساباً مفتوحاً: ملصقاً واحداً لماري وملصقاً واحداً لسالي... ملصقين لماري، وملصقين لسالي. ثلاثة ملصقات لماري. أربعة ملصقات لماري، وبهذا ستحظى

(1) V. LoBue, T. Nishida, C. Chiong, J. S. DeLoache, and J. Haidt, "When Getting Something Good Is Bad: Even Three-Year-Olds React to Inequality," *Social Development* 20 (2011): 154–70.

سالي بملصقين وماري ستحظى بأربعة. ثم توقف المجرب مؤقتًا لمدة سبع ثوان ولم يفعل شيئاً وتجنب النظر في عيون الطفلتين، وتم التقاط ردود الأطفال التلقائية على الفيديو. ثم سئل الأطفال عما إذا كان التوزيع عادلاً.

كثيراً ما كان الأطفال الموجودون في موقع سالي يقولون إن هذا ليس عدلاً، وكانوا غير راضين، وغالباً ما كانوا يطالبون بالمزيد، وإذا ما سُئل الأطفال الموجودون في موقع ماري هل كان ذلك عادلاً فأنهم يجيبون كلا، لكنهم لا يستجيبون لهذا الظلم بنفس الطريقة – إذ أن الأمر لم يزعجهم.

ألطف ما كان يفعله الأطفال المستفيدون هو التنازل عن أحد ملصقاتهم بعد سماعهم لتذمر الأطفال الذين غبنوا. لكن أقل من طفل واحد من بين كل عشرة أطفال فعل ذلك، وتذكر أن هؤلاء الأطفال لم يتعاملوا مع أشخاص مجهولين؛ كانوا يجلسون بجانب زملائهم في الفصل، وكانوا أصدقاءهم في الغالب.

الأطفال حساسون لعدم المساواة، ولكن يبدو أنهم ينزعجون فقط عندما يحصلون على ما هو أقل من الآخرين. الأطفال في هذا السياق، يتصرفون مثل القرود والشمبانزي والكلاب[1]، فكلهم يظهرون علامات الاستياء عند حصولهم على مكافأة أقل من الآخرين. على سبيل المثال، أجرى الباحثون دراسات مع أزواج من الكلاب، يقوم فيها كل كلب بخدعة. ثم يكافأ أحد الكلبين بمكافأة جيدة، بينما يحصل الآخر على مكافأة

(1) S. F. Brosnan and F. B. M. de Waal, "Monkeys Reject Unequal Pay," *Nature*425 (2003): 297–99; S. F. Brosnan, H. C. Schiff, and F. B. M. de Waal, "Tolerance for Inequity May Increase with Social Closeness in Chimpanzees," *Proceedings of the Royal Society B* 1560 (2005): 253–58; F. Range, L. Horn, Z. Viranyi, and L. Huber, "The Absence of Reward Induces Inequity Aversion in Dogs," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 106 (2008): 340–45.

أقل، وجد الباحثون أن الكلب الذي يحصل على مكافأة أقل، سوف يتصرف بانزعاج ويرفض تناولها.

يمكن أن يكون الأطفال لؤماء في تفضيلاتهم[1].

قام أخصائيون في علم النفس وهم بيتر بليك وكاثرين مكوليف بقرن أطفال تتراوح أعمارهم بين أربع سنوات وثماني سنوات لم يسبق أن تقابلوا من قبل، ووضعوهم أمام جهاز خاص تم إنشاؤه لتوزيع طبقين من حلوى، وكان لدى أحد الطفلين إمكانية الوصول إلى عتلة تمكنه إما من إمالة الطبقين نحو نفسه والطفل الآخر (بحيث يحصل كل طفل على كل كمية الحلوى الموجودة في الطبق الذي بقربه) أو من إلقاء كلا الطبقين (بحيث لا يحصل كلاهما على أي حلوى).

عندما كان هناك قدر مساوٍ من الحلوى في كل طبق، لم يلقِ الأطفال الأطباق تقريباً. كما أنهم لم يقوموا بإلقاء الأطباق مطلقاً عندما فضلهم التوزيع – على سبيل المثال، أربع قطع حلوى على طبقهم، وقطعة حلوى واحدة على طبق الطفل الآخر، بالرغم من أن بعض الأطفال الذين يبلغون من العمر ثماني سنوات رفضوا هذا الخيار، ولكن عندما تم عكس هذا التوزيع لصالح الطفل الآخر، فإن الأطفال في كل فئة عمرية كانوا غالباً ما يختارون إلقاء كلا الطبقين. إنهم يفضلون أن لا يحصلوا على شيء بدلاً من أن يحصل طفل آخر – غريب – على أكثر منهم.

(1) P. R. Blake and K. McAuliffe, " 'I Had So Much It Didn't Seem Fair': Eight-Year-Olds Reject Two Forms of Inequity," *Cognition* 120 (2011): 215–24.

وثمة أدلة أُخرى على الطبائع اللئيمة للأطفال من سلسلة من التجارب التي أكملتها مؤخراً بالتعاون مع كارين وين وطالب الدراسات العليا في جامعة ييل مارك شيسكين[1]، قدمنا فيها، للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وعشر سنوات، سلسلة من الخيارات حول كيفية تقسيم عملات رمزية (يمكن استبدالها لاحقاً بلعب أطفال) مع طفل آخر لم يلتقوه أبداً. على سبيل المثال، سوف يختارون بين التوزيع الذي يحصل فيه كل طفل على عملة واحدة والتوزيع الذي يحصل فيه كل طفل على عملتين. بشكل معقول، عندما قدمنا لهم هذا الخيار، كانوا يميلون إلى اختيار الخيار الأخير – لقد حصلوا على المزيد، وكذلك حصل الطفل الآخر.

لكننا وجدنا أيضاً أن المقارنة الاجتماعية مهمة. ضع في اعتبارك خياراً يحصل فيه كل من الطفل المنتقي والطفل الآخر على عملة واحدة مقابل خيار يحصل فيه الطفل المنتقي على عملتين ويحصل الطفل الآخر على ثلاث. قد تعتقد أن الأخير هو الخيار الأفضل لأن كلا الطفلين يحصلان على المزيد؛ أي أنه أكثر جشعاً وأكثر سخاءً. لكن اختيار توزيع ٢/ ٣ على ١/ ١ يعني أن المنتقي سيحصل على نسبة أقل نسبيًا من الطفل الآخر. كان هذا مزعجاً للأطفال الذين اختبرناهم، وكثيراً ما اختاروا ١/ ١ وتخلوا عن عملة إضافية حتى لا ينتهي بهم الأمر إلى موضع غبن نسبي.

لو وضعناهم بين خيار يحصل فيه كل منهما على عملتين وخيار آخر يحصل فيه الطفل المنتقي على عملة واحدة والطفل الآخر لا يحصل على شيء. يعد الخيار ٢/ ٢ أفضل لجميع المشاركين من حيث القيمة المطلقة، ولكن ميزة الخيار ١/ ٠ هي أن المنتقي

(1) M. Sheskin, K. Wynn, and P. Bloom, "Anti-equality: Social Comparison in Young Children," under review.

يحصل أكثر نسبياً من الطفل الآخر. فضل الأطفال الأكبر سنًا ٢/ ٢، ولكن الأطفال بعمر خمس سنوات وست سنوات فضلوا الخيار ١/ ٠؛ إنهم يفضلون الحصول على ميزة نسبية، حتى على حساب أنفسهم.

تذكرنا ردود فعل الأطفال هذه بحكاية يهودية من العصور الوسطى عن رجل حسود جاءه ملاك وأخبره أنه يمكن أن يحصل على أي شيء يريده، لكن جاره سيحصل على الضعف. فكر للحظة، ثم طلب أن تُقتلع إحدى عينيه[1].

الإنصاف هو أكثر من مجرد تحديد للطريقة الأفضل في توزيع الأُمور الإيجابية، إذ علينا أيضاً أن نحدد كيفية توزيع الأُمور السلبية، وهذا ما يقودنا إلى العقاب والانتقام، أي الجانب المظلم من الأخلاق.

لو كنا دوماً طيبين مع بعضنا البعض، لم تكن لتنشأ مسألة العقوبة أبداً، ولكن، كما قال عالم الإنثروبولوجيا روبرت آردري ذات مرة، لسنا من سلالة الملائكة المنزلين[2]. لدى البعض منا نزعة للخداع والقتل ويستسلم لدوافعه الأنانية، ولكي نستطيع المقاومة والبقاء على قيد الحياة مع وجود هؤلاء الأفراد بيننا، نحن بحاجة إلى جعل هذا السلوك السيئ مكلفاً. في الواقع، يرى بعض العلماء، مثل الفيلسوف جيسي- برينز، أن الغضب

(1) Thanks to Shira Telushkin.

(2) Quoted in A. J. Jacobs, *The Know-It-All: One Man's Humble Quest to Become the Smartest Person in the World*(New York: Simon & Schuster, 2004).

(في هذا المعنى) أكثر أهمية للأخلاق من التعاطف والرحمة[١]، تلك المشاعر الأكثر حلاوة التي ناقشناها في الفصل السابق.

لنبدأ الآن بالانتقام[٢] – الشكل الشخصي- للعقاب، الموجه ضد من أساؤوا إلينا شخصياً أو أضروا بأُسرتنا أو أصدقائنا. الانتقام لديه بعض السمات المميزة. يصف آدم سميث مشاعرنا تجاه رجل قتل شخصاً نحبه بقوله: «الاستياء سيدفعنا إلى الرغبة، ليس فقط في أنه يجب معاقبته، بل يجب معاقبته بواسطتنا، وعلى أساس ذلك الجرح المعين الذي ألحقه بنا. لا يمكن إشباع هذا الغضب، إلا إذا أُجبر الجاني على الحزن، ليس على فعلته فحسب، بل على هذا الخطأ المعين الذي عانينا منه»[٣].

إن إنيغو مونتويا، الشخصية الخيالية في رواية الأميرة العروس، الذي يسعى للانتقام لموت والده، يعكس هذا الشعور. حيث يخبر مونتويا الرجل ذا الرداء الأسود بخطته: إنه سوف يقترب من القاتل ويقول، «مرحباً، اسمي إنيغو مونتويا، لقد قتلتَ أبي، استعد للموت!»[٤]. يجب أن يعرف القاتل بالتحديد سبب معاقبته ومن قام به. بعد ذلك، وعندها فقط، يمكن لمونتويا قتله. (وعندما يفعل ذلك يشعر بالارتياح).

تبدو هذه المتطلبات منطقية بمجرد تقدير العلاقة بين الانتقام والوضع الاجتماعي، وكما تقول الفيلسوفة باميلا هيرونيمي «إذا ما ارتكب خطأ في الماضي ضدك، وبقي دون

(1) Jesse Prinz, "Is Empathy Necessary for Morality?," in *Empathy: Philosophical and Psychological Perspectives*, ed. Amy Coplan and Peter Goldie (New York: Oxford University Press, 2010).

(2) For a review, see M. E. McCullough, R. Kurzban, and B. A. Tabak, "Cognitive Systems for Revenge and Forgiveness," *Behavioral and Brain Sciences* 36 (2013): 1–15.

(3) Adam Smith, *The Theory of Moral Sentiments* (1759; repr., Lawrence, KS: Digireads.com, 2011), 50.

(4) These famous lines are from the book by William Goldman, but the scene where he explains this to the man in black is only in the movie (1987, directed by Rob Reiner). See William Goldman, *The Princess Bride: S. Morgenstern's Classic Tale of True Love and High Adventure* (New York: Harcourt, 2007).

اعتذار أو تكفير أو جزاء أو عقاب أو تعويض أو استنكار، أو أي شيء آخر قد يميزه كخطأ، فإنه يصبح بمثابة دعوة للتصرف معك بهذه الطريقة، وأن هذا التصرف مقبول»[١].

هذا هو أحد أغراض الاعتذار – هو الحفاظ على ماء وجه الضحية. إذا ضربتني ولم تقل شيئاً، فأنت تسلبني كرامتي. كلمة "آسف" البسيطة يمكن أن تفعل المعجزات، لأنك تظهر الاحترام لي كشخص؛ أنت تقر لي، وربما للآخرين، أنه من غير المقبول إيذائي دون سبب. إذا لم تقل شيئاً، فأنت ترسل رسالة مختلفة تماماً، وأنا بدون اعتذار، قد أميل إلى استعادة كرامتي من خلال الانتقام. إذا قمت بضربي ثم قمت بالرد عليك، فقد أوضحت لك أنني رجل يجب حسابه، مما سيجعلك أقل نزعةً للإيذاء في المستقبل، ولكن هذا لا ينجح إلا إذا كنت تعرف من الذي ضربك ولماذا. (إذا كنت تعتقد أن شخصاً آخر قام بذلك، أو أنني فعلت ذلك عن طريق الخطأ، فقد فشلت).

في مجتمعاتنا الغربية الحديثة، التي يسودها القانون بشكل كبير نجد الإنسان الغربي يميل إلى اللجوء إلى القانون في الاقتصاص ممن اعتدى عليه دون الاعتماد على نفسه في فعل ذلك. على عكس ما هو عليه الحال في المجتمعات الأُخرى التي يشكل فيها انتقام الشخص لنفسه نوعاً من المحافظة على شرفه، كما هو الحال عند البدو أو الثقافات الفرعية الإجرامية مثل المافيا، وثقافة رعاة البقر في الغرب الأمريكي[٢].

(1) P. Hieronymi, "Articulating an Uncompromising Forgiveness," *Philosophy and Phenomenological Research* 62 (2001): 546, quoted in A. Martin, "Owning Up and Lowering Down: The Power of Apology," *Journal of Philosophy* 107 (2010): 534–53.
(2) Richard E. Nisbett and Dov Cohen, *Culture of Honor: The Psychology of Violence in the South*(Denver, CO: Westview Press, 1996).

ان الأفراد الذين يعيشــون في مثل هذه الثقافات لا يمكنهم الاعتماد على ســلطة خارجية لتحقيق العدالة، والأمر متروك لكل فرد للدفاع عن نفســه وعن من يهتم بهم، وعليه فإن ســمعة العنف مهمة في هذه المجتمعات؛ هذا هو ما يمنع الآخرين من مهاجمتك أو الإساءة إليك.

تماشياً مع هذه النظرية، يجد علماء النفس أن الأفراد في مثل هذه المجتمعات يميلون إلى رفض الأفعال الدالة على التسامح فيما يتعلق بموضوع القصاص.

يقول عالم النفس ستيفن بينكر إن أحد أسباب انخفاض العنف على مر التاريخ هو تراجع مثل هذه الثقافات. لقد تمت، في أجزاء كثيرة من العالم، إعادة النظر في الرغبة بالانتقام الشخصي. حيث صار الناس يعتمدون على طرف ثالث ـ وهو الحكومة ـ في إنزال العقوبة على من اعتدى عليهم[1] .

عندما تحطمت نافذة سيارتي وسُرقت أمتعتي قبل بضعة أشهر، شعرت بنوبة من الغضب، ولكن في الحقيقة، كان من الأفضل معالجة المشكلة من خلال تقرير الشرطة وشركة تأمين مفيدة. إذا كان إينيجو مونتويا موجودًا الآن، فلن يحتاج إلى اقتحام القلعة لتقديم قاتل والده إلى العدالة؛ الشرطة ستفعل ذلك بدلاً عنه، وسيموت عدد أقل من الناس.

رغم هذا، فإن الرغبة بالقيام المباشر بالانتقام لا تزال موجودة عند الكثيرين. يساعد على ذلك أن أنماطاً عديدة من الاعتداءات التي يتعرض لها الإنسان لا يقوم القانون فيها بمعاقبة المعتدي. فهناك العديد من التفاعلات التي لا يساعدنا فيها القانون مثل نشر

(1) Pinker, *Better Angels.*

الإشاعات المشينة ورسائل البريد الألكتروني الساخرة والتهكمية (وليتها اقتصرت على هذه الأمثلة).

وبالنسبة إلى الأخذ بثأرنا العنيف، فإننا قد لا نجد الجرأة للقيام به بأنفسنا إلا أننا نسعد بتجربته في الخيال، ومما يدل على ذلك تكرار موضوع الانتقام في الروايات الخيالية، بدءاً بالأعمال الكلاسيكية مثل هاملت والإلياذة، وحتى الأفلام السينمائية مثل فيلم "العين بالعين" و"رغبة الموت"، إلى المسلسلات التلفزيونية مثل مسلسل "الانتقام" المسمى على نحو مناسب[١].

إن إنزال العقوبة على الأطراف الثالثة يعد رغبة موجودة عند الكثيرين، ونعني بالأطراف الثالثة الأُناس الذين تبدر منهم الإساءة والسلوك المنحرف ولكن تأثير ذلك لا يقع علينا بشكل مباشر، مثل: الزناة، والمواطنون غير الوطنيين، وما إلى ذلك، ومن الأمثلة على وجود الرغبة في إنزال العقوبة بهم ظهور ما يسمى "محرك البحث البشري" في الصين مؤخراً[٢]، حيث – يستخدم الناس الإنترنت للاستعانة بالجماهير كيما يتم لهم التعرف على هوية المعتدين، ثم يعمد هؤلاء المنتقمون القيام بتحشيد هجمات جسدية واجتماعية ضد هؤلاء الأفراد المعتدين، وغالباً ما ينجحون في حملهم على مغادرة المدينة أو فقدانهم وظائفهم. أو كما في الحالات التي ناقشناها سابقاً، مثل ردة فعل العامة ضد

(1) John Kerrigan, *Revenge Tragedy: From Aeschylus to Armageddon* (Oxford: Oxford University Press, 1994); William Flesch, *Comeuppance: Costly Signaling, Altruistic Punishment, and Other Biological Components of Fiction* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2007).

(2) T. Downey, "China's Cyberposse," *New York Times Magazine*, March 7, 2010.

ماري بيل بعد أن وضعت قطة في صندوق للقمامة، أو ضد ديفيد كاش جونيور، الذي شاهد مقتل طفلة ولم يفعل شيئاً – كلاهما تم مطاردته وتهديده من قبل الغرباء الغاضبين أخلاقياً.

يمكن للمرء أن يستكشف هذا الدافع العقابي من خلال لعبة أخرى ابتكرها علماء الاقتصاد السلوكي وهي لعبة "المنفعة العامة"،[1] والتي تستكشف مدى استعداد الناس للتضحية من أجل المصلحة العامة. يوجد العديد من الأشكال المختلفة لهذه اللعبة، ولكن أحد أمثلتها: هناك أربعة لاعبين كل منهم غير معروف للآخر (عادة ما يلعبون على أجهزة كمبيوتر منفصلة)، يبدأ كل منهم وفي جعبته ٢٠ دولاراً. تتم ممارسة اللعبة كسلسلة من الجولات، وفي بداية كل جولة يضع اللاعبون الأموال في الوسط، ويتم مضاعفة هذه الأموال ــ من قبل منظمي اللعبة ــ وتوزيعها بالتساوي على اللاعبين. ثم يحصل كل لاعب على تقرير عن مقدار المال الذي صار يملكه الآن وما الذي فعله كل لاعب آخر.

فيما يلي بعض الطرق التي يمكن أن تؤول إليها الأمور.

١. **أن لا يضع أحد أي أموال في الوسط**، أي الكل يحتفظ بمبلغ ٢٠ دولاراً الذي بجعبته.

٢. **أن يقوم كل لاعب بوضع كل أمواله في الوسط**، ويتم ضرب الـ ٨٠ دولاراً التي في الوسط في ٢، ثم يتم تقسيمها على أربعة، بحيث يسترد الجميع ٤٠ دولاراً.

(1) G. Hardin, "The Tragedy of the Commons," *Science*162 (1968): 1243–48; D. G. Rand, A. Dreber, T. Ellingsen, D. Fudenberg, and M. A. Nowak, "Positive Interactions Promote Public Cooperation," *Science*325 (2009): 1272–75.

٣. **أن تمتنع عن الدفع، بينما يضع الثلاثة الآخرون أموالهم:** يضع ثلاثة من زملائك في اللعبة ٢٠ دولاراً لكل منهم. الآن هناك ٦٠ دولار في الوسط. تتضاعف إلى: ١٢٠ دولاراً، وتقسم على أربعة، وسيسترد الجميع، بمن فيهم أنت، ٣٠ دولاراً. نظراً لأنك لم تساهم، فلديك الآن ٥٠ دولاراً.

٤. **أن تضع أنت المبلغ بينما يمتنع الآخرون:** حيث سيتم مضاعفة مبلغ ٢٠ دولار الذي دفعته إلى ٤٠ دولاراً، ويقسم على أربعة، بحيث يسترد كل شخص ١٠ دولارات. الآخرون لم يدفعوا أي شيء، لذلك كل منهم لديه ٢٠ دولاراً بالإضافة إلى ١٠ دولارات ليصبح عندهم مبلغ إجمالي قدره ٣٠ دولاراً، ويبقى لك ١٠ دولارات فقط.

إن أفضل حل شامل هنا، هو أن يضع الجميع أموالهم. إذا ما قام كل لاعب من اللاعبين بالمساهمة، فسوف تتضاعف أموال الجميع في كل جولة، ولكن في الوقت نفسه، فإن أي لاعب يمكنه أن يحقق المزيد من الأموال من خلال عدم وضع أي شيء. على سبيل المثال، إذا ما قام جميع اللاعبين الآخرين بوضع أموالهم، فمن الأفضل أن يختار اللاعب الامتناع عن الوضع – ٥٠ دولاراً (في حال لم يدفع ودفع الآخرون) مقابل ٤٠ دولاراً (في حال دفع الجميع)، وإذا لم يضع الآخرون أموالهم، فلا يزال الفرد أفضل حالاً إذا ما اختار الامتناع عن الدفع – ٢٠ دولاراً (في حال لم يدفع الجميع) مقابل ١٠ دولارات (في حال دفع ولم يدفع الآخرون).

تتوافق عملية حساب التفاضل والتكامل هذه بشكل جيد مع المواقف في الحياة اليومية التي يؤدي فيها الانخراط في نشاط مزعج أو مستهلك للوقت إلى المصلحة العامة، ولكن يمكن للأفراد الأنانيين الجلوس والاستفادة من الفوائد دون دفع التكاليف. على

سبيل المثال، أُريد عالماً يدفع فيه الأشخاص الضرائب - أنا أستفيد من الطرق وإدارة الإطفاء والشرطة وما إلى ذلك - لكن العالم الذي أُفضله أكثر من منظوري الأناني هو العالم الذي يدفع فيه الجميع الضرائب باستثنائي. الأمر نفسه ينطبق على إعادة التدوير، والتصويت، وتنظيم مهرجان الحي المحلي، والخدمة العسكرية - أو حال زميلي في القسم الداخلي عندما كنا طلاب دراسات عليا، حيث واجهنا الخيارات التالية لتنظيف القسم:

١. **لا أحد يفعل شيئاً**: تبقى الشقة قذرة، لكن لا أحد مضطر للعمل. نحن جميعاً غير راضين بشكل معتدل.

٢. **الكل ينظف**: الشقة نظيفة، ونحن جميعاً نقوم بعمل قليل. هذا هو أفضل وضع عام.

٣. **لا أفعل شيئاً الجميع ينظف**: هذا هو أفضل حل لي، لديّ شقة نظيفة ولا أعمل.

٤. **أنا أنظف والآخرون لا يفعلون شيئاً**: لديّ شقة نظيفة ولكني أعمل أكثر من الآخرين، وأنا بائس.

في ألعاب المنفعة العامة التي يتم لعبها في المختبر، يميل الناس إلى بدء اللعب بلطف. لكن حتما يستسلم بعض المشاركين للإغراء ويختارون جني أموال إضافية[1]. بالتأكيد سيلاحظ هذا آخرون وسيمتنعون هم أيضاً، وكلما زاد عدد الأشخاص الممتنعين، يشعر المرء على نحو متزايد بأنه كبش فداء للمشاركة، وهكذا، رغم أنه قد يبقى بعض المساهمين الأقوياء، فإن الوضع يتدهور تدريجياً. هذا ما حدث في حالة قسمنا الداخلي: لقد تدهور الوضع إلى اشتعال حرب شاملة يخوضها الجميع ضد الجميع على غرار

(1) E. Fehr and S. Gächter, "Altruistic Punishment in Humans," *Nature* 415 (2002): 137–40.

الحروب التي تحدث عنها الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبس، وعشنا، بكل أسف، في حالة من الحقد.

يبدو هذا قاتماً، ولكن على مر التاريخ، كان البشر- قادرين بطريقة ما على التغلب على إغراءات الامتناع عن الدفع والانتفاع المجاني. خلاف ذلك، فإن ممارسات مثل الحرب و صيد الطرائد الكبيرة[١] ورعاية الأطفال المشتركة لم يكن لها وجود.

وهذا الأمر يعيدنا إلى مفهوم العقاب، الذي يعني أن الحكومة إذا توقفت عن معاقبة التهرب الضريبي فإن المزيد من الناس سيتهربون عن دفع ضرائبهم، ولا شك في أن ظاهرة التهرب من الضرائب ستزداد وقوعاً ما لم يكن ثمة قانون يدينها، وعليه فإن تهديد الدولة للمستفيدين بالمجان بالغرامات والسجن يساعد على ردعهم.

استكشف إرنست فيهر والخبير الاقتصادي سايمون غاتشر- هذه الفكرة باستخدام لعبة معدلة للعبة المنفعة العامة.[٢] وفي اللعبة الجديدة ــ المعدّلة ــ يرى المشاركون ما فعله الآخرون أيضاً، وقد أضيف إليها أن للمشارك الحق في رفض ما يعطى إليه من مال

(١) هامش المترجم: صيد الطرائد الكبيرة أو صيد الحيوانات الكبيرة Big-game hunting، هو صيد الطرائد كبيرة الحجم. ارتبط المصطلح تاريخياً بالطرائد الخمس الكبيرة الأفريقية: الأسد والفيل الأفريقي والجاموس الأفريقي والنمر ووحيد القرن، وبحيوانات البر ووحيد القرن في شبه القارة الهندية. معظم هذه الأنواع محمية الآن، لكن الأنواع الأُخرى مثل الكودو والظباء والثيتل والموظ والإلكة والأيل لا زالت يتم صيدها. يحدث صيد الطرائد الكبيرة في أماكن مثل الأرجنتين ونيوزيلندا وكندا ومعظم مناطق الولايات المتحدة، والكثير من مناطق أفريقيا. في أمريكا الشمالية، يتم صيد حيوانات كثيرة مثل الدببة والموظ والباسيون.

(2) Fehr and Gächter, "Altruistic Punishment in Humans."

مضاعف شرط أن لا يأخذ المستفيد المجاني، في الجولة السابقة، شيئاً كشكل من أشكال عقوبة الطرف الثالث، وتعدّ هذه العقوبة، بشكل حاسم، إيثاراً:

المشارك الذي اختار معاقبة المستفيد بالمجان، كان يعلم أنه، بما يقوم به، يتخلى عن شيء ما لتحقيق نتيجة جيدة (ربما لتحسين سلوك المتسابق المستفيد بالمجان في المستقبل، أو ربما لتحقيق العدالة)، حيث تختفي الأموال المأخوذة من الشخص المُعاقَب ولا تذهب إلى أي مشارك، ولا يستمر المُعاقِب في اللعب مع المُعاقَب، وإذا كان هذا من شأنه أن يحسن سلوك المُعاقَب، فإنه لن يساعد المعاقِب شخصياً.

ومع ذلك، فإن ٨٠ في المائة من المشاركين، الذين لم يدفعوا أي مبلغ أو دفعوا مبالغ قليلة، عوقبوا مرة واحدة على الأقل، وهذه العقوبة حلت مشكلة الامتناع، حيث صار الجميع بعد فترة وجيزة، يساهمون بشكل جيد. إن مثل هذه العقوبة تجعل التعاون ممكناً.

وجد الفيلسوف فرانشيسكو جوالا ـــ من خلال استعراض أجراه مؤخراً لمؤلفات من علم الاجتماع والإنثروبولوجيا ـــ أن العقاب الإيثاري نادر، أو أنه حتى غير موجود في المجتمعات الصغيرة في العالم الواقعي، حيث أنه، رغم وجود الكثير من الطرق المباشرة وغير المباشرة في العقاب لجعل المذنبين ، بما فيهم المستفيدون بالمجان ، يعانون. إلا أن المجموعات البشرية في الواقع تميل إلى تطبيق ما هو غير مكلف ولا يعرضها للمخاطرة من تلك الطرق، مثل (فضحهم والتشهير بهم على الإنترنت)، حيث يتاح للمجموعة عدم المواجهة أو لا يتحمل الفرد شيئاً من أعباء العقوبة.

إن البشر في كل مكان يعاقبون المستفيدين بالمجان، وتتفاعل المجتمعات المختلفة مع معاقبتهم بطرق مختلفة، ولكنه وُجِدَ أن تأثير معاقبة المستفيدين بالمجان يختلف من مجتمع

لآخر، ففي دول مثل سويسرا والولايات المتحدة وأُستراليا، فإنهم يحسنون التصرف ويصبحون ألطف. لكن في مجتمعات أخرى، مثل اليونان والمملكة العربية السعودية، لا يشعر الأشخاص الذين عوقبوا بسبب استفادتهم بالمجان بالخجل ؛ فهم يغضبون ويحاولون الانتقام. إنهم يبحثون عن أُولئك الذين ارتكبوا العقوبة على الأرجح ويعاقبونهم، وهو ما يطلق عليه "العقاب المعادي للمجتمع".[1] هذا السلوك، كما تتوقعون، يزيد الأُمور سوءاً فتنقلب إلى فوضى. (ليس من المستغرب أن تكون العقوبة المعادية للمجتمع تحدث في البلدان التي تعاني من "ضعف معايير التعاون المدني" كما وصفها مؤلفو دراسة الثقافات المتعددة)، وهذا يشير إلى أن عقوبة الطرف الثالث لا يمكن أن تكون قد شكلت حلاً لمشكلة الاستفادة بالمجان.

في رأيي، فإن سيكولوجية العقوبة من طرف ثالث لا تعدو كونها مجرد سيكولوجية الانتقام في أوضح صورها. أي أننا قد طورنا ميلاً للرد على أُولئك الذين يؤذوننا والذين يؤذون الأشخاص الذين نحبهم، لأننا بذلك نردع هذا السلوك في المستقبل. عندما ننقل هذه المشاعر إلى الحالات التي لا نشارك فيها بشكل مباشر، يكون ذلك من خلال ممارسة التعاطف الذي نتخيل فيه أنفسنا مكان الضحية ونرد كما لو أننا أنفسنا قد تعرضنا للأذى، اي عقاب الطرف الثالث، وهذا يقلل من الانتقام بالإضافة إلى أنه يقلل من التعاطف.

وهذا مشابه لوجهة نظر آدم سميث القائل: «عندما نرى رجلاً مضطهداً أو مجروحاً من قِبل شخص آخر، فإن التعاطف الذي نشعر به مع محنة المتألم يبدو كأنه يعمل فقط على

(1) B. Herrmann, C. Thoni, and S. Gächter, "Antisocial Punishment Across Societies," *Science*319 (2008): 1362–67.

تحفيز مشاعرنا المتعاطفة مع استيائه من الجاني. نشعر بالفرحة لرؤيته يهاجم خصمه بدوره، ونحن متحمسون ومستعدون لمساعدته»[١]. لكنني أعتقد أن سميث أخطأ قليلاً عندما قال إن استياء الضحية المتصاعد يعد حافزاً ضرورياً للعقاب. على أي حال، فانا أعتقد أنه يجب معاقبة شخص يعذب القطط، لكن هذا ليس لأنني أعتقد أن القطط نفسها تريد الانتقام. فالسؤال هنا إذن ليس هو "ماذا تريد الضحية؟" بل إنه "ماذا أُريد، لو كنت أنا أو شخص أُحبه في محل الضحية؟"

واتساقاً مع فكرة أن رغبتنا للعقوبات من طرف ثالث هي عالة على التعاطف، فهي تختلف وفقاً لعلاقتنا مع الضحية والشخص الذي يؤذي الضحية. نحن نميل لمعاقبة أولئك الذين يؤذون ما يثير تعاطفنا كالقطط وأُولئك الذين نحبهم، وأُولئك الذين هم جزء من مجموعتنا أو قبيلتنا أو رابطتنا. بينما نحن أقل حماساً للمعاقبة عندما تكون علاقتنا المتعاطفة مع المعتدي بدل الضحية.

فقليل من الأمريكيين شعروا بالرغبة في معاقبة الجنود الذين قتلوا أُسامة بن لادن. حتى الأطفال الصغار لديهم بعض التقدير لمنطق عقوبة الطرف الثالث، كما يتضح من عالم النفس ديفيد بيتراسوفسكي وتمسين جيرمان.[٢] في دراستهم، أخبر الباحثون أطفالاً في الرابعة من العمر عن طفل دفع طفلاً آخر وأخذ لعبته. ثم سألوهم من سيكون

(1) Smith, *Theory of Moral Sentiments*, 52.

(2) D. Pietraszewski and T. German, "Coalitional Psychology on the Playground: Reasoning About Indirect Social Consequences in Preschoolers and Adults," *Cognition* 126 (2013): 352–63.

غاضباً من المعتدي. أدرك الأطفال أن الضحية سيغضب على الأرجح، لكنهم قدّروا أيضاً أن صديق الضحية سيكون أكثر ميلاً للغضب من زميله في الفصل.

يبين هذا التفسير لعقوبة الطرف الثالث – أي أنه ينبع من رغبتنا في الانتقام – بعض السمات الغريبة لمشاعرنا العقابية[1]. وأبرزها أن الناس لا يبالون بشكل مدهش بالعواقب الفعلية للعقاب. يؤكد هذا استبيان أُجري لمجموعات من الناس حول مصنع ــ افتراضي ــ لصنع الأدوية، وفيه تم صنع لقاحات خاطئة وحبوب منع الحمل بأضرار جانبية سيئة، وكان الاستبيان يتعلق برأي الناس في تغريم المصنع، وقد قيل فيه لإحدى المجموعات أن الغرامة ستؤدي إلى توقف المصنع، ولأنه لا توجد هناك بدائل جيدة أُخرى في السوق، فإن العقوبة ستجعل العالم أسوأ، ولمجموعات اخرى أن الغرامة تؤدي إلى تحسين المصنع لمستوى منتوجاته.

لم يهتم معظم الناس بالنتائج السلبية للسيناريو الثاني. لقد أرادوا تغريم الشركة في كلتا الحالتين. بمعنى آخر، يكون الناس أكثر اهتماماً بجعل العقوبة تؤذي الجاني أكثر من كونها يجب أن تجعل العالم مكاناً أفضل. سيكولوجية الانتقام لديها تأثير هنا، كما عبر عنها سميث: «يجب أن يُجبر الجاني على التوبة ويأسف على هذا الفعل بالذات»[2].

هذه الحساسية تجاه العواقب أمر شائع بالنسبة للرغبات، التي عادة ما تكون عمياء عن القوى التي تشرح وجودها. الرغبة الجنسية موجودة لأنها تؤدي إلى إنجاب الأطفال،

(1) J. M. Darley, K. M. Carlsmith, and P. H. Robinson, "Incapacitation and Just Deserts as Motives for Punishment," *Law and Human Behavior* 24 (2000): 659–83; C. R. Sunstein, "Moral Heuristics," *Behavioral and Brain Sciences* 28 (2005): 531–43; J. Baron and I. Ritov, "Intuitions About Penalties and Compensation in the Context of Tort Law," *Journal of Risk and Uncertainty* 7 (1993): 17–33.

(2) Smith, *Theory of Moral Sentiments*, 50.

لكن سيكولوجية الرغبة الجنسية تكون مجردة من أي رغبة بالأطفال. يوجد الجوع لأن الأكل يبقينا على قيد الحياة، ولكن هذا ليس هو السبب في أننا عادة ما نريد أن نأكل، وبالمثل، نريد أن نعاقب، لكننا لا نفكر في الغرض من العقوبة، وهي نقطة أثارها آدم سميث بشكل جيد حيث قال: «جميع الناس، حتى أكثرهم غباء وأقلهم تفكيراً، يكرهون الغش والغدر والظلم، ويفرحون لرؤية من يقوم بها يعاقبون. لكن قلة من الناس قد فكروا بضرورة العدالة في وجود المجتمع، إلى أي مدى تبدو هذه الضرورة واضحة»[1].

معظم الأطفال الصغار لا يعيشون في ثقافة الشرف. عادة ما يكون هناك شخص كبير من شأنه أن يحل النزاعات ويعاقب مرتكبي الأخطاء – مثل الوالد أو جليسة الأطفال أو المعلم. تتغير الأمور في مرحلة الطفولة المتوسطة، عندما يجد الأطفال أنفسهم في كثير من الأحيان في مجتمعات لا مكان فيها للشكاية والوشاية ويتوقع أن يخوض الطفل معاركه الخاصة بنفسه. العديد من المدارس المتوسطة والمدارس الثانوية تشبه إلى حد كبير الغرب البري. لكن يُسمح للأطفال البالغين من العمر سنتين بالبكاء أو الهرب أو العثور على شخص بالغ عندما يقوم شخص ما بضربهم؛ فهم ليسوا مطالبين بالانتقام.

هذا لا يعني أن الأطفال أبرياء من رغبات القصاص. رغم أنهم قلما يكونون مسالمين. الأطفال الصغار عدوانيون للغاية. في الواقع، إذا قمت بقياس معدل العنف الجسدي خلال فترة العمر، فإنه يصل إلى ذروته في سن الثانية تقريباً[2]. تنجو العائلات من "فترة

(1) Smith, *Theory of Moral Sentiments*, 66.

(2) S. Côté, T. Vaillancourt, J. C. LeBlanc, D. S. Nagin, and R. E. Tremblay, "The Development of Physical Aggression from Toddlerhood to Pre-adolescence: A Nationwide Longitudinal Study of Canadian Children," *Journal of Abnormal Child Psychology* 34 (2006): 71–85.

السنة الثانية المروعة" لأن الأطفال الصغار لا يتمتعون بالقوة الكافية للقتل بأيديهم وغير قادرين على استخدام الأسلحة الفتاكة. لو كان الأطفال الذين يبلغون من العمر عامين يتمتعون بقدرات البالغين البدنية لكانوا مرعبين حقاً.

تنعكس دوافع الأطفال الأخلاقية أحياناً في العنف، ولكن يتم التعبير عنها أيضاً بشكل غير ملحوظ. فالأطفال يشتكون، وعندما يرون ارتكاب أي مخالفات فإنهم مستعدون لتقديم شكوى إلى الشخصيات المسؤولة ولا يحتاجون إلى مطالبتهم بذلك.

في إحدى الدراسات، تم تعليم الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سنتين وثلاث سنوات لعبة جديدة للعب مع دمية. عندما بدأت الدمية بخرق القواعد، كان الأطفال يشتكون من تلقاء أنفسهم للبالغين.[١] في الدراسات التي أُجريت على الأشقاء الذين تتراوح أعمارهم بين سنتين وست سنوات، وجد الباحثون أن معظم ما قاله الأطفال لوالديهم عن إخوانهم أو أخواتهم يُعتبر شكوى أو وشاية، وكانت أقوالهم تميل إلى أن تكون دقيقة. رغم أنهم كانوا يشون بأشقائهم، لكنهم لم يختلقوا الأمور[٢]. ولا يقتصر الأمر على الإخوة والأخوات الذين يستمتعون بوشاية بعضهم البعض. فقد استكشف علماء النفس جوردون إنغرام وجيسي بيرنج شكاوى الأطفال في مدرسة داخل المدينة في بلفاست وخلصوا إلى أن الغالبية العظمى من حديث الأطفال عن سلوك أقرانهم اتخذ

(1) H. Rakoczy, F. Warneken, and M. Tomasello, "The Sources of Normativity: Young Children's Awareness of the Normative Structure of Games," *Developmental Psychology* 44 (2008): 875–81.

(2) I. M. Den Bak and H. S. Ross, " 'I'm Telling!' The Content, Context, and Consequences of Children's Tattling on Their Siblings," *Social Development* 5 (1996): 292–309; H. S. Ross and I. M. Den Bak-Lammers, "Consistency and Change in Children's Tattling on Their Siblings: Children's Perspectives on the Moral Rules and Procedures of Family Life," *Social Development* 7 (1998): 275–300.

شكل وصف للانتهاكات المعتادة، وأشاروا إلى أنه كان نادراً ما يتحدث الأطفال مع معلميهم حول شيء جيد قام به شخص آخر. كما هو الحال في الدراسة التي أُجريت على الإخوة، كانت معظم أقوال الأطفال وشكاواهم عن أقرانهم صحيحة. الأطفال الذين كذبوا لم يكونوا هم الوشاة، ولكن كانوا هم الموشى بهم، الذين غالباً ما ينكرون مسؤوليتهم عن أفعالهم.[١] لا يشتكي الأطفال أيضاً من أشياء غير ذات أهمية: فقد وجدت إحدى الدراسات أن الأطفال في عمر ثلاث سنوات سوف يشون بشخص ما إذا قام بإتلاف عمل فني صنعه شخص آخر، ولكن ليس عندما يتلف عملاً فنياً لا يهتم به أحد[٢].

جزء من ارتياح الأطفال للوشاية يأتي بالتأكيد من إظهار الذات للبالغين كأشخاص أخلاقيين جيدين؛ كائن مسؤول حساس للصواب والخطأ. لكنني أُراهن أن الأطفال سوف يقومون بالوشاية حتى لو لم يتمكنوا من فعل ذلك دون إخفاء هويتهم. مثل الغرباء الذين يشاركون في محركات البحث البشرية في الصين التي تكلمنا عنها، فإنهم سيفعلون ذلك لمجرد تحقيق العدالة.

إن حب الوشاية يكشف عن الرغبة في الانتقام، والسرور في رؤية المخالفين (لا سيما أُولئك الذين أضروا بالطفل، أو صديق الطفل) وهم يعاقبون. فالوشاية إذن هي وسيلة للتخلص من التكاليف المحتملة للانتقام.

(1) G. P. D. Ingram and J. M. Bering, "Children's Tattling: The Reporting of Everyday Norm Violations in Preschool Settings," *Child Development* 81 (2010): 945–57.

(2) A. Vaish, M. Missana, and M. Tomasello, "Three-Year-Old Children Intervene in Third-Party Moral Transgressions," *British Journal of Developmental Psychology* 29 (2011): 124–30.

من الصعب معرفة ما إذا كان لدى الأطفال الرضع أيضاً شهية للعدالة. إليكم التجربة التي تمنيت لو كان بإمكاننا إجراؤها لمعرفة ذلك: تُظهر للطفل شخصيتان واحدة جيدة واُخرى سيئة، وذلك باستخدام الطرق القياسية (كأن تساعد إحداهما شخصاً ما في الصعود على المنحدر وتقطع الأُخرى طريق هذا الشخص). ثم توضع الشخصية الجيدة والشخصية السيئة كلٌ على حدة على خشبة أمام الطفل. بجانب يد الطفل يوجد زر أحمر كبير، ويشرح للطفل بلطف كيفية الضغط عليه. عند لمس الزر، فإن الشخصية ستتصرف كما لو أنها تتعرض لصعقة كهربائية – ستصرخ وتتألم.

كيف سيستجيب الأطفال لهذا؟

هل سيرفعون أيديهم بسرعة عندما تصرخ الشخصية الجيدة؟

هل سيستمرون في الضغط على الزر عندما يرون الشخصية السيئة؟

ماذا لو كان زراً يصعب الضغط عليه – هل سيحاول الأطفال جاهدين (باحمرار وجوههم الصغيرة) للضغط عليه حتى يتم فرض عقوبة عادلة؟

أشك في أننا سنجري هكذا دراسة على الإطلاق، لأنني وزملائي لدينا مخاوف وتحفظات أخلاقية.

لكننا أجرينا دراسات اُخرى تقدم أدلة على الدوافع العقابية للأطفال. في إحدى الدراسات التي أجريتها مع كيلي هاملين وكارين وين ونيها مهاجان، أجرينا مجموعة متنوعة من تجارب الشخصية الجيدة والسيئة الموصوفة في الفصل الأول[1]. في أحد

(1) J. K. Hamlin, K. Wynn, P. Bloom, and N. Mahajan, "How Infants and Toddlers React to Antisocial Others," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 108 (2011): 19931–36.

السيناريوهات، كافحت إحدى الدمى لفتح صندوق، وساعدتها دمية أُخرى على رفع الغطاء، فيما أغلقت دمية ثالثة الغطاء بقوة. في السيناريو الآخر، قامت إحدى الدمى بتمرير الكرة إلى دمية أُخرى دحرجتها بدورها إلى دمية ثالثة أخذت الكرة وهربت بها. بدلاً من السؤال عما إذا كان الأطفال يفضلون التفاعل مع الدمية الجيدة أو السيئة، طلبنا من الأطفال الذين يبلغون من العمر واحداً وعشرين شهراً اختيار أي من الاثنين لمكافأته عن طريق إعطائه هدية أو اختيار أي منهما لمعاقبته عن طريق سحب الهدية منه. كما هو متوقع، وجدنا أنه عندما طُلب منهم تقديم المكافأة، اختاروا الشخصية الجيدة؛ وعندما طُلب منهم سحب المكافأة، اختاروا الشخصية السيئة.

لكن هناك مشاكل في هذه الدراسة وهي أنها أُعدت بحيث يجبر الأطفال بشكل أساسي على اختيار دمية لتكافَأ ودمية لتعاقب. لذا نحن لا نعرف ما إذا كان الأطفال الصغار لديهم الرغبة في المكافأة والرغبة في العقاب، ناهيك عما إذا كانوا يشعرون أن المكافأة والعقاب هي الأشياء الصحيحة التي يجب القيام بها، وأيضاً، بالنظر للمتطلبات البدنية للمكافأة والمعاقبة، فقد اضطررنا إلى استخدام الأطفال الصغار بدلاً من الأطفال الرضع في هذه الدراسة، وربما تعلموا بعضاً من سلوك المكافأة والمعاقبة من مشاهدة أشخاص آخرين.

لاستكشاف كيف يفكر الأطفال في المكافأة والعقاب في سن مبكرة، قررنا أن ننظر إلى ما يفكر به الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة أشهر وثمانية أشهر عن الأفراد الآخرين الذين يكافأون ويعاقبون. هل يفضلون الشخص الذي يكافئ الطيب على شخص يعاقب الطيب؟ هل يفضلون الشخص الذي يعاقب السيء على الشخص الذي

يكافئ السيء؟ لكل مقارنة، حسب تفكير البالغين على الأقل، يتصرف أحدهم بعدل والآخر يتصرف بظلم.

اختبرنا الأطفال من خلال عرض سيناريوهات الصندوق عليهم: أولاً تساعد إحدى الدمى على فتح الصندوق فيما تغلقه الأُخرى بقوة. ثم استخدمنا إحدى الدميتين إما الطيبة أو السيئة في كل مرة كشخصية رئيسة لمشهد جديد تماماً. هذه المرة قامت الدمية بدورها بدحرجة الكرة لشخصيتين جديدتين، حيث قامت إحداهما (اللطيفة) بإعادتها فيما قامت الأُخرى (اللئيمة) بالهرب بها. أردنا أن نرى أياً من هاتين الشخصيتين الجديدتين فضلها الأطفال؛ هل فضلوا الشخصية التي كانت لطيفة مع الدمية الطيبة، أم الشخصية التي كانت لئيمة مع الشخصية الطيبة؟ هل فضلوا الشخصية التي كانت لطيفة مع الدمية السيئة، أم الشخصية التي كانت لئيمة مع الدمية السيئة؟

عندما كانت الشخصيتان تتفاعلان مع الدمية الطيبة (الدمية التي ساعدت في فتح الصندوق)، فضّل الأطفال الوصول إلى الشخصية التي كانت لطيفة معها بدلاً من الشخصية التي كانت لئيمة معها – ربما لأن الأطفال يميلون إلى تفضيل الدمى اللطيفة عموماً. في الواقع، إن الأطفال الذين تبلغ أعمارهم خمسة أشهر فضّلوا أيضاً الوصول إلى الشخصية التي كانت لطيفة مع الدمية السيئة، فإما أن هؤلاء الأطفال الأصغر سناً لم يتتبعوا السلسلة الكاملة للأحداث، أو أنهم كانوا يفضلون الدمى اللطيفة ببساطة، بغض النظر عمن كانوا يتفاعلون معها.

لكن الأطفال في عمر الثمانية أشهر كانوا أكثر تطوراً، لقد فضلوا الشخصية التي كانت لئيمة مع الدمية السيئة على الشخصية التي كانت لطيفة معها. لذا في مرحلة ما بعد خمسة أشهر، يبدأ الأطفال في تفضيل العقاب – عندما تكون العقوبة عادلة.

لقد تحدثنا حتى الآن عن بعض القدرات للحكم والشعور. على الرغم من أن هذه القدرات ربما لم تكن موجودة في الأشهر القليلة الأُولى من الحياة، فهي طبيعية بمعنى أنها جزء من فطرتنا الإنسانية، وليست اختراعات ثقافية.

لقد وصفت هذه القدرات بالأخلاق. هذا لأنها تشترك في خصائص مهمة مع ما يعتبره البالغون أخلاقياً – فهي ناجمة عن أفعال تؤثر على رفاه الآخرين، وهي تتعلق بمفاهيم مثل الإنصاف. إنها تتصل بمشاعر مثل التعاطف والغضب، وترتبط بالثواب والعقاب. أيضاً، بمجرد أن يتعلم الأطفال الصغار من اللغة ما يكفي ليمكنهم من الحديث عن أحكامهم، فإنهم سيستخدمون مصطلحات يعتبرها البالغون أخلاقية بشكل صريح، مثل لطيف ولئيم وعادل وغير عادل. ما يظهر أولاً في "مدة الانتباه" و"الوصول التفضيلي" في الرضع يظهر لاحقاً كموضوع للخطاب الأخلاقي في الأطفال.

ومع ذلك، فإن الحياة الأخلاقية للأطفال محدودة للغاية بالنسبة لحياتنا الأخلاقية. كان هذا موضع تقدير من قبل عالم النفس لورانس كولبرج، الذي توصل، قبل حوالي خمسين عاماً، إلى نظرية مؤثرة في النمو الأخلاقي. لقد ادعى أن الأطفال الصغار يفكرون في الأخلاق أولاً من حيث المفاهيم الأكثر بساطة مثل المصلحة الذاتية (ما هو جيد هو ما يسعدني) ومن ثم فيما يتعلق بالسلطة الأبوية (ما هو جيد هو ما يقول والداي بأنه جيد)،

ويصبحون أكثر تطوراً عندما ينضجون، حتى يفهموا في نهاية المطاف الأخلاق من حيث القواعد والمبادئ المجردة، على غرار النظم التي طورها الفلاسفة الأخلاقيون. نقطة النهاية هي نظرية متسقة وواسعة للصواب والخطأ[١].

قلة من علماء النفس المعاصرين سيؤيدون تفسير كولبرج. يظهر البحث الذي ناقشناه أن كولبرج قد قلل من شأن التطور الأخلاقي للأطفال، وقد بالغ أيضاً في تقدير التطور الأخلاقي للبالغين. قليل من البالغين هم من الكانتيين (أتباع كانط) أو النفعيين (أتباع المذهب المنفعي) أو علماء الأخلاق الفضيلة[٢]. نحن لا نفكر عادة في الأخلاق بالطريقة التي يفكر بها الفلاسفة. بدلاً من ذلك، نحن نملك ما أطلق عليه عالم النفس ديفيد بيزارو "المزيج الأخلاقي"[٣] – "مجموعة فضفاضة إلى حد ما من الحدس وقواعد الإبهام[٤] والردود العاطفية".

(1) L. Kohlberg, "Stage and Sequence: The Cognitive-Developmental Approach to Socialization," in *Handbook of Socialization Theory and Research*, ed. David A. Goslin (Chicago: Rand McNally, 1969), 347–480; Jean Piaget, *The Moral Judgement of the Child*, trans. Marjorie Gabain (New York: Free Press, 1965). For review and discussion, see John C. Gibbs, *Moral Development and Reality: Beyond the Theories of Kohlberg and Hoffman* (New York: Sage, 2003).

(٢) هامش المترجم: أخلاقيات الفضيلة هي نظريات أخلاقية معيارية تحدد فضائل العقل وطبع الفرد. يناقش الأخلاقيون الفاضلون مسائل الفضائل وطبيعتها وتعريفها وغيرها من المسائل ذات الصلة. على سبيل المثال، كيف يتم الحصول على الفضائل؟ كيف يتم تطبيقها في مختلف سياقات الحياة الحقيقية؟ هل الفضائل متجذرة في طبيعة الإنسان العالمية أو في تعدد الثقافات؟

(3) D. A. Pizarro, "Hodgepodge Morality," in *What Is Your Dangerous Idea?* ed. John Brockman (New York: HarperCollins, 2007), 63.

(٤) هامش المترجم: قاعدة الإبهام هي مبدأ ذو تطبيق واسع، غير دقيق، وضعيف الموثوقية، لكنه سهل التعلم، يستخدم للحساب التقريبي، أو لتذكر قيمة، أو إنجاز تقرير أو تحليل سريع غير معمق، غالبا ما يكون سطحياً. يمكن مقارنتها بالحدس المهني، وهو مفهوم شبيه يستخدم في الرياضيات وعلم النفس وعلم الحاسوب، وخصوصا في تصميم الخوارزميات.

لكن كولبرج محق في أن أخلاق البالغين تتأثر بالتداول والتشاور العقلاني. هذا هو ما يفصل البشر عن الشمبانزي ويفصل البالغين عن الأطفال. هذه المخلوقات الأُخرى لها مشاعر فقط. لدينا مشاعر زائداً عقول. لن يكون هذا مهماً للغاية إذا كانت مشاعرنا المتطورة متوافقة تماماً مع الصواب والخطأ. إذا كانت قلوبنا نقية، فلن نحتاج إلى رؤوسنا. لسوء الحظ، يمكن أن يكون نظامنا المتطور متعصباً وضيقاً وأحياناً غير منطقي ويصل إلى درجة الوحشية، وهذا ما سننتقل إليه في الفصل التالي.

الفصل الرابع
الآخرون

يمثل بعض الناس العالم بالنسبة لنا، والبعض الآخر لا يكاد يهم. أو كما كتبت الشاعرة أميلي ديكنسون، «الروح تختار مجتمعها الخاص ثم تطبق الباب».

سنرى كيف أنه من طبيعتنا القيام بهذا التمييز؛ وحتى الأطفال يفعلون ذلك. لكن يمكننا أيضا التمرد ضد تحيزاتنا الضيقة. تأمل القصة المشهورة للسامري الصالح، والتي تبدأ بناموسي[1] يسأل المسيح عما يجب عليه فعله ليرث الحياة الأبدية. يسأله المسيح عما هو مكتوب في الناموس، فيجيب الناموسي بقوله: إنه يجب علينا أن نحب الله وعلينا أن نحب «قَرِيبَنا مِثلَ أنفسنا». يقول السيد المسيح إن هذا صحيح، ثم يتبعه الناموسي ويسأل: «وَمَنْ هُوَ قَرِيبِي؟» فيجيبه المسيح بهذا المثال:

«إِن رجلاً كَانَ نَازِلًا مِنْ أُورشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ، فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ، وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ. فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِناً نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَرَآهُ وَجَازَ مُقَابِلَهُ، وَكَذلِكَ لاَوِيٌّ أَيْضًا، إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَرَ وَجَازَ مُقَابِلَهُ، وَلكِنَّ سَامِرِيًّا مُسَافِراً جَاءَ إِلَيْهِ، ولَمَّا رَآهُ تَحَنَّنَ، فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ، وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتاً، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُق وَاعْتَنَى بِهِ».

---

(١) هامش المترجم: الناموسيون هم فئة من اليهود المضالعين في ناموس موسى، وكانوا متخصصين في تفسير الناموس وشرائع العهد القديم وتعليمها في المدارس والمجامع، وقد اتخذوا دراسة الناموس وتفسيره مهنة لهم.

ثم نظر المسيح إلى الناموسي وسأله: «أي من الرجال الثلاثة أصبح قريب الرجل المجروح؟» فأجابه الناموسي: «الرجل الَّذِي صَنَعَ مَعَهُ الرَّحْمَةَ» فقال له المسيح: «اذْهَبْ أَنْتَ أَيْضاً وَاصْنَعْ هكَذَا»[١].

ليس من الصعب معرفة مغزى القصة. كان اليهود يحتقرون السامريين، وقد يكون هذا هو السبب في أن الناموسي لم يجب بكلمة "السامري" ببساطة – لم يستطع تحمل ذكر الاسم. إذن من الواضح أن ما لدينا هنا هو وصية لتجاهل الحدود العرقية التقليدية. كما وصفها الفيلسوف والعالم القانوني جيريمي والدرون، «إياك أن تكترث لإثنية عرق القريب أو مجتمعه أو فئته التقليدية»[٢] – العبرة من القصة هي أن مجرد وجود شخص غريب بالقرب منك يجعله قريباً وبالتالي يجعله يستحق الحب.

هذه حالة متطرفة. بالنسبة إلى الكثيرين خلال تاريخ البشرية، وبالنسبة للعديد من المجتمعات الآن، فإن التزاماتنا الأخلاقية تمتد فقط إلى الجيران الذين نعرفهم بالفعل. يشير الجغرافي والكاتب جاريد دياموند إلى أنه في المجتمعات الصغيرة في بابوا غينيا الجديدة، «إذا ما خرج أحدهم من أراضيه لمقابلة البشر [الآخرين]، حتى لو كانوا يعيشون على بعد بضعة أميال فقط، فإن ذلك بمثابة انتحار»[٣]. عالمة الإنثروبولوجيا مارغريت ميد كانت رومانسية حول أنماط الحياة في المجتمعات الصغيرة واعتبرتها متفوقة أخلاقياً في كثير من النواحي على المجتمعات الحديثة – لكنها كانت صريحة بشأن مشاعرها تجاه

(1) Luke 10:30–35 (King James Version).

(2) J. Waldron, "Who Is My Neighbor? Humanity and Proximity," *Monist* 86 (2003): 343.

(3) Jared Diamond, *The Third Chimpanzee: The Evolution and Future of the Human Animal* (New York: HarperCollins, 1992), 229.

الغرباء: «تعتقد معظم القبائل البدائية أنك إذا صادفت شخصاً من مجموعة منافسة في الغابة، فإن أنسب شيء تفعله هو ضربه حتى الموت»[1].

ربما يكون بعض هذا الكلام تهديدي وتبجحي، ولكن بغض النظر عن مشاعر المرء، فإن محاولة قتل شخص ما هو عمل محفوف بالمخاطر. قد تفشل وتقتل نفسك، أو قد تنجح ثم تضطر إلى مواجهة انتقام أقاربه وعشيرته. لكن حتى لو كان العنف الصريح هو ردة فعل متطرفة، فإن ردة الفعل الطبيعية عند مقابلة شخص غريب لن تكون الشفقة والرحمة، فالغرباء يبعثون الخوف والاشمئزاز والكراهية.

في هذا الصدد، نحن مثل الرئيسيات الأُخرى. في فيلم الشمبانزي في غومبي، تصف جين جودال ما يحدث عندما تصادف عصابة من الشمبانزي الذكور مجموعة أصغر من قبيلة أُخرى. إذا كان هناك طفل في المجموعة فقد يقتلونه ويأكلونه. إذا كانت هناك أُنثى، فسوف يحاولون التزاوج معها. إذا كان هناك ذكر، فغالبًا ما يحتشدون عليه، ويمزقون لحم جسده، ويعضون أصابع قدميه، ويتركونه ميتاً.

لكن الأمور تغيرت. غالباً ما أُسافر إلى مدن غريبة، لكنني لا أتوقع أن يقفز عليّ الغرباء في المطار ويحاولوا عض أصابع قدمي. في الواقع، حتى الثقافات التي يندر فيها السفر والمسافرون غالباً ما يكون لها قوانين مفصّلة للضيافة والمعاملة الصحيحة للزوار. أي نظرية كافية لعلم النفس الأخلاقي ستشرح كراهيتنا تجاه الغرباء وكيف نجحنا في بعض الأحيان في التغلب عليها.

---

(1) Interview quoted in Howard Bloom, *The Lucifer Principle: A Scientific Expedition into the Forces of History* (New York: Atlantic Monthly Press, 1997), 74.

يميز الأطفال بين الأشخاص المألوفين والغريبين على الفور، ويفضل الأطفال حديثو الولادة النظر إلى وجه أُمهم بدلاً من النظر إلى وجه شخص غريب[١]؛ إنهم يفضلون رائحة أُمهم[٢] ويفضلون صوتها[٣]. جاء هذا الاكتشاف الأخير من خلال استخدام طريقة تجريبية مستوحاة[٤] حيث وضع الباحثون الأطفال في أسرتهم ووضعوا السماعات في آذانهم والمصاصات في أفواههم وقاموا بحساب المعدل المتوسط لمص كل طفل لمصاصته عن طريق قياس الوقت بين نهاية فترة مص واحدة وبداية أُخرى. ثم أسمعوا الأطفال إما

(1) T. M. Field, D. Cohen, R. Garcia, and R. Greenberg, "Mother-Stranger Face Discrimination by the Newborn," *Infant Behavior and Development* 7 (1984): 19–25.

(2) A. MacFarlane, "Olfaction in the Development of Social Preferences in the Human Neonate," in *Parent-Infant Interaction, Ciba Foundation Symposium*33 (New York: Elsevier, 1975), 103–13.

(3) A. J. Decasper and W. P. Fifer, "Of Human Bonding: Newborns Prefer Their Mother's Voice," *Science* 208 (1980): 1174–76.

(٤) **هامش المترجم**: هذه الطريقة معروفة باللغة الإنكليزية باسم ("المص غير التغذوي"). كي يسأل الرضيع، يبدأون بوضعه في سرير ويضعون في فمه حلمة رضاعة موصولة بحاسوب ومثبتة بذراع متينة. تقاس بعد ذلك سعة حركات مص الرضيع لمدة دقيقتين بالنسبة لكل طفل، بحيث يحددون خط سعة (مدى) مصه الشخصي الأساسي في غياب أية عروض (حالات إسماع) صوتية. بعد تحديد هذا الخط الأساسي، تبدأ فترة التعويد. خلال هذه الفترة، ينشِّط كلُّ مص تتجاوز سعته الخطَّ الأساسي الدارَة الصوتية ويتمخض عن تقديم صوتٍ: وهكذا، يتعلق عدد الأصوات المعروضة بمثابرة الرضيع على مص حلمة رضاعته. بعد بعض الوقت، يتضاءل معدل المص. حينها، ينتقلون إلى طور الاختبار بدقيق العبارة، والذي يبدأ بتغير نمط المثيرات. الصوت الذي يتلقاه الرضيع في المص القادم القوي بشكل لا بأس به مختلف عن ذاك الذي سمعه خلال فترة التعويد. الفكرة هي أن الرضع "يحبون" من جهة أن يكونوا موضع تنبيه، ولديهم من جهة أُخرى مقدرة كبيرة على ربط أحداثٍ فيما بينها. إذن، فهم يربطون بين ظهور الأصوات ومصهم. في مرحلة أُولى، بعد أن يثير ما سمعوه اهتمامهم، يبدأون بالمص بقوة كافية. ثم "يظهر لديهم ضِيق بسبب الرتابة"، يتعبون وتخف شِدة مصهم، وبالعكس، تُحدث الأشياء الجديدةُ عودةً إلى الاهتمام من جديد، ويجب أن تحث الطفلَ، إن أدركها، على استئناف مصه كي يتمتع بالإثارة الجديدة. إذن، يدل استئناف المص عند تغير المثير على أن الرضيع قد أدرك بالفعل وجود اختلافٍ بين المثيرين، وبالعكس، يدل عدم الاستئناف على أن الفارق بين المثيرين لم يدرك. أتاح هذا الجهاز للمص غير التغذوي، البارع، الاستفهام من الرضيع حول لياقاته في تمييز الأصوات التي تشكل بنية اللغات المتكلمة حوله.

صوت أُمهم أو صوت امرأة غريبة تقرأ قصة الدكتور سوس "واعتقد أنني رأيته في شارع ملبري"، ويمكن للأطفال ـ هنا ـ استخدام سلوك المص الخاص بهم للتحكم في الصوت الذي يسمعونه. بالنسبة لنصف الأطفال، فإنهم سيسمعون صوت أُمهم إذا كانت الفترات بين المصات أقصر من المعدل المتوسط. أما بالنسبة إلى النصف الآخر فسيستمعون إلى صوت أُمهم إذا كانت الفترات أطول من المتوسط. تمكن الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثلاثة أيام من معرفة ذلك، واستخدموا توقيت مصهم للاستماع إلى ما يريدون – والذي تبين فيما بعد أنه صوت أُمهم.

نظراً إلى أن الأطفال لا يستطيعون معرفة ماهية أشكال أُمهاتهم أو روائحهن أو أصواتهن على نحو مسبق، لا بد أن تعزى هذه التفضيلات إلى التعلم، حيث يرى الأطفال ويشمون ويسمعون هذه المرأة التي تعتني بهم فتصبح هي التي من يفضلونها.

لا يحب الأطفال فقط الأشخاص المألوفين، بل يحبون أيضاً الأنواع المألوفة من الناس. يمكننا استكشاف هذا باستخدام أساليب مدة الانتباه.

تحدثت سابقاً عن كيف ينظر الأطفال، مثل البالغين، لفترات أطول إلى ما يثير الدهشة. فالأطفال يشتركون أيضاً مع البالغين في ميلهم للنظر لفترة أطول إلى ما يحلو لهم، ويمكننا استخدام ذلك لاستكشاف تفضيلاتهم. اتضح أن الأطفال الذين تربيهم امرأة ينظرون إلى النساء لفترة أطول؛ وأُولئك الذين يربيهم رجل ينظرون إلى الرجال لفترة أطول[1].

(1) P. Quinn, J. Yahr, A. Kuhn, A. Slater, and O. Pascalis, "Representation of the Gender of Human Faces by Infants: A Preference for Females," *Perception* 31 (2002): 1109–21.

الأطفال القوقازيون يفضلون النظر إلى الوجوه القوقازية، بدلاً من الوجوه الأفريقية أو الصينية؛ ويفضل الأطفال الإثيوبيون النظر إلى الوجوه الإثيوبية بدلاً من الوجوه القوقازية ؛ و الأطفال الصينيون يفضلون النظر إلى الوجوه الصينية بدلاً من الوجوه القوقازية أو الأفريقية[1].

إذا رأيت هذه التحيزات في البالغين، فقد تفترض أنها تعكس تفضيلهم للآخرين الذين هم من جنسهم. لكن هذا لا يصح ـ على الأرجح ـ على الأطفال. فهم لا ينظرون إلى المرايا في الغالب، ولن يفهموا ما يشاهدونه إذا ما فعلوا ذلك. بدلاً من ذلك، يطور الأطفال تفضيلاً يعتمد على الأشخاص الذين يرونهم من حولهم. تمشياً مع هذا، فإن الأطفال الذين نشأوا في بيئات متنوعة عرقياً – مثل الأطفال الإثيوبيين الذين يعيشون في أُوربا – لا يظهرون أي تفضيل على أساس العرق.

تدعم هذه النتائج نظرية "الأصل النمائي للعنصرية" البسيطة، التي فيها يملك الأطفال تحيزاً تكيفياً لتفضيل المألوف، لذلك يُنشئون، بسرعة، تفضيلاً لأُولئك الذين يشبهون مَن حولهم وحذراً تجاه أُولئك الذين لا يشبهون مَن حولهم، ونظراً لأن الأطفال عادةً ما تتم تربيتهم من قبل أُولئك الذين يشبهونهم، يميل الأطفال البيض إلى تفضيل الأشخاص البيض؛ والأطفال السود إلى تفضيل الأشخاص السود، وهلم جرا، ويتم بلورة الأفكار العنصرية في طور النمو؛ يتعلم الأطفال حقائق عن مجموعات محددة،

(1) D. J. Kelly, P. C. Quinn, A. M. Slater, K. Lee, A. Gibson, M. Smith, L. Ge, and O. Pascalis, "Three-Month-Olds, but Not Newborns, Prefer Own-Race Faces," *Developmental Science* 8 (2005): 31–36; Y. Bar-Haim, T. Ziv, D. Lamy, and R. M. Hodes, "Nature and Nurture in Own-Race Face Processing," *Psychological Science* 17 (2006): 159–63; D. J. Kelly, S. Liu, L. Ge, P. C. Quinn, A. M. Slater, K. Lee, Q. Liu, and O. Pascalis, "Cross-Race Preferences for Same-Race Faces Extend Beyond the African Versus Caucasian Contrast in 3-Month-Old Infants," *Infancy* 11 (2007): 87–95.

ويلتقطون تفسيرات علمية أو دينية أو شعبية حول سبب اختلاف الجماعات البشرية، ويأتون لاستيعاب الدروس الثقافية حول من يخشونه ومن يحترمونه ومن يحسدونه وما إلى ذلك. لكن بذور العنصرية موجودة منذ البداية، في تفضيلهم البسيط للمألوفين.

كنت من المؤمنين بهذه النظرية، لكنني لم أعد كذلك. أعتقد أن هناك أدلة مقنعة لنظريةٍ أفضل لأصل التحيز العنصري، نظرية تدعمها الأبحاث المجراة مع كل من البالغين والأطفال الصغار.

دعونا ننظر إلى البالغين أولاً. تجد الدراسات المختبرية أن البالغين يخزّنون تلقائياً ثلاثة أجزاء من المعلومات عندما يلتقون بشخص جديد، هي العمر والجنس والعرق[١]. هذا يناسب تجربتنا اليومية. بعد مقابلة شخص ما، قد تنسى بسرعة كل أنواع التفاصيل، لكن من المرجح أن تتذكر ما إذا كنت تتحدث إلى طفل صغير أو شخص بالغ، أو رجل أو امرأة، وشخص من نفس العرق أو عرق مختلف.

في مقال مؤثر، يشير علماء النفس روبرت كورزبان وجون توبي وليدا كوزميديس إلى وجود شيء غريب في هذا الثلاثي[٢]، وهو أن التركيز على الجنس والعمر أمر منطقي. فقد كان يتعين على أسلافنا تقدير الفرق بين الرجل والمرأة، أو طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات و[.....] سبعة وعشرين عامًا، من أجل إجراء أي نوع من أنواع التواصل الاجتماعي التفاعلي، من الإنجاب إلى رعاية الطفل إلى الحرب، والعرق هو الرجل

(1) For review, see D. Messick and D. Mackie, "Intergroup Relations," *Annual Review of Psychology*40 (1989): 45–81.

(2) R. Kurzban, J. Tooby, and L. Cosmides, "Can Race Be Erased? Coalitional Computation and Social Categorization," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 98 (2001): 15387–92.

الغريب بيننا. يتم تحديد الأدلة المادية التي تتطابق مع ما نراه الآن كأعراق حسب المكان الذي جاء منه أسلاف الناس، ولأن أجدادنا سافروا سيراً على الأقدام، فإن الشخص العادي لم يقابل أبداً أي شخص ينتمي إلى ما نسميه الآن "عرقاً مختلفاً". يستنتج كورزبان وزملاؤه بأن العرق لا يهم إلا بقدر ما يتعلق الأمر بالتحالف.

يعيش البشر في مجموعات تدخل في صراع، أحياناً بعنف. سيكون من المفيد، إذن، أن نكون مستعدين لفهم مثل هذه التحالفات، لتقسيم العالم إلى "نحن" مقابل "الآخرين". يصبح العرق مهماً لأن الناس يتعلمون في بعض المجتمعات أن لون البشرة وبعض سمات الجسم تشير إلى أي من الجماعات المتصارعة ينتمي إليها الفرد، وهي نفس الطريقة التي قد نتعلم بها أن الفرق الرياضية المختلفة لديها ملابس ذات ألوان مختلفة؛ لا يوجد شيء مثير للاهتمام بطبيعته حول ألوان ملابس الفرق الرياضية – فهي مهمة بسبب ما تشير إليه. إذن، يتطور التعصب العرقي بنفس الطريقة التي سيربط بها الطفل الذي ينشأ في بوسطن ألوان الريد سوكس بـ "نحن" والوان اليانكيز بـ "هم".

ولكن رغم أن هناك عوامل أُخرى قد تلعب دوراً مؤثراً، إلا أن هناك دعماً قوياً لنظرية "العرق كإشارة إلى التحالف". لاختبار فرضيتهم، استخدم كورزبان وزملاؤه طريقة تعرف باسم "نموذج التشويش على الذاكرة"[1] يقدم فيها الباحثون للناس سلسلة من الصور لوجوه أشخاص، تحتوي كل صورة على جملة تنسب إلى ذلك الشخص. في وقت لاحق، يطلب الباحثون من المشاركين أن يتذكروا من هو الشخص وماذا قال. بإعطائهم

(1) S. E. Taylor, S. T. Fiske, N. L. Etcoff, and A. J. Ruderman, "Categorical and Contextual Bases of Person Memory and Stereotyping," *Journal of Personality and Social Psychology* 36 (1978): 778–93.

عدداً كافياً من أزواج الصور / الجمل، يقع المشاركون حتماً في الأخطاء، وتكشف تلك الأخطاء عن الخصائص التي نشفرها بشكل طبيعي باعتبارها ذات معنى. إذا سمع المرء شيئاً من امرأة آسيوية شابة ونسي المصدر في وقت لاحق، فاحتمال أن ينسب ذلك الشيء لاحقًا إلى شابة آسيوية (أو شابٍ آخر أو امرأة أو أي شخص آسيوي) أكبر من احتمال أن تنسب إلى رجل مسن من أصل إسباني، واحتمال أن يخلط رواد السينما ومحبو الأفلام بين لورانس فيشبورن مع صموئيل جاكسون (كلاهما أمريكان من أُصول أفريقية) أكبر من احتمال أن يخلطوا بينه وبين ليندسي لوهان (أمريكية بيضاء).

استخدم كورزبان وزملاؤه في هذه الدراسة صوراً وجملاً لأشخاص بيض وسود، لكنهم أضافوا لمسة ذكية: تصنيف الأشخاص إلى مجموعتين (بأعداد متساوية من الأشخاص البيض والسود في كل مجموعة) وألبسوهم قمصان كرة سلة مختلفة الألوان، وجدوا أن المشاركين لا يزالون يرتكبون أخطاء على أساس العرق، ويساء نسب جمل مثل «أنا بحاجة إلى القيام ببعض التمدد» أو «أُريد فقط الخروج واللعب» ، ولكن الآن عندما أخطأ الأشخاص، كانوا على الأرجح يفعلون ذلك على أساس لون القميص، وليس لون البشرة. لوضع هذا الأمر على أرض الواقع، فإن المشجع الرياضي – على الأقل عند مشاهدته للمباريات – يفكر في عضوية الفريق أكثر من لون بشرة اللاعبين الفرديين.

تتناسب طريقة تفهم العرق هذه بشكل جيد مع عمل أخصائيي علم النفس فيليسيا براتو وجيم سيدانيوس، اللذين يقولان بأن المجتمعات تشكل تسلسلاً هرمياً استناداً إلى

ثلاثة عوامل: العمر والجنس وفئة ثالثة متغيرة تكون في بعض الأحيان العرق، ولكن قد تكون أيضاً الدين أو الانتماء الإثني أو العشيرة أو أي عامل اجتماعي آخر.[١]

تتناسب نظرية التحالف أيضاً مع بعض الدراسات الحديثة حول الأطفال الصغار. إذا كان التحالف هو الأكثر أهمية، فلن يتوقع المرء أن يركز الأطفال على لون البشرة أو أي ميزة مادية أُخرى. بدلاً من ذلك، يجب أن ينتبهوا إلى شيء يخص الإنسان فقط، وهو اللغة، نظراً إلى أن الكلام يتغير بشكل أسرع من الميزات المادية. إذا انفصلت المجموعات لأي فترة من الزمن، فسوف تبدأ في التحدث بطريقة مختلفة – اللغة هي مؤشر متفوق على عضوية التحالف والمجموعة.

نجد هذه العلاقة بين اللغة والتحالف تظهر بشكلٍ جلّي في كتب العهد القديم. على الرغم من أنه يمكن الآن استخدام كلمة "شبولت" على نطاق أوسع لتعني العرف أو الاعتقاد الذي يميز فئة أو مجموعة من الأشخاص، إلا أنها نشأت كاختبار لغوي على وجه التحديد لمعرفة ما إذا كان الفرد واحداً منا أم واحداً منهم. كما تقول القصة، استولت قبيلة الجلعاديين على روافد الأُردن المؤدية إلى أفرايم، حيث عاش خصومهم المهزومون مؤخراً. للتأكد من عدم تجاوز أي من اللاجئين الأفرايميين نقاط التفتيش التي نصبوها، جعل الجلعاديون كل من أراد العبور يقول كلمة شبولت. لم يكن لدى الأفرايميين صوت الـ "ش" في لهجتهم، لذلك إذا قال اللاجئ "سبولت"، يعرفه الجلعاديون ويقومون

(1) Jim Sidanius and Felicia Pratto, *Social Dominance: An Intergroup Theory of Social Hierarchy and Oppression* (New York: Cambridge University Press, 1999); F. Pratto, J. Sidanius, and S. Levin, "Social Dominance Theory and the Dynamics of Intergroup Relations: Taking Stock and Looking Forward," *European Review of Social Psychology* 17 (2006): 271–320.

بقتله.[١] استخدم الأمريكيون خدعة مماثلة في مسرح عمليات المحيط الهادئ خلال الحرب العالمية الثانية، وفيها كان الحراس عند نقاط التفتيش الأمريكية يصرخون في وجه الجنود القادمين، ويطلبون منهم تكرار كلمة "لولابالوزا". يواجه العديد من اليابانيين صعوبات في نطق صوت الـ "ل"، لذلك إذا ردوا بنسخة مشوهة من الكلمة، فإن الحارس سيفتح النار عليهم.[٢]

يمكن للأطفال الصغار التعرف على اللغة التي تعرضوا لها، ويفضلونها على لغات أُخرى حتى لو كان من يتحدث بها شخصاً غريباً[٣]. إن التجارب التي تستخدم منهجيات تعتمد على معدل مص الأطفال للمصاصة لمعرفة تفضيلاتهم تجد أن الأطفال الروس يفضلون سماع اللغة الروسية، ويفضل الأطفال الفرنسيون الفرنسية، ويفضل الأطفال الأمريكيون الإنجليزية، وهكذا. يظهر هذا التأثير بعد دقائق فقط من الولادة، مما يشير إلى أن الأطفال كانوا يألفون تلك الأصوات الخافتة التي سمعوها في أرحام أُمهاتهم.

بحثت عالمة النفس كاثرين كينزلر وزملاؤها في انعكاسات التفضيل اللغوي على كيفية تعامل الأطفال مع عالمهم الاجتماعي، وفي إحدى التجارب، قاموا باختبار الأطفال في عمر عشرة أشهر في مدينتي بوسطن وباريس. استمع الأطفال إلى شخصين أحدهما يتحدث باللغة الإنجليزية والآخر يتحدث باللغة الفرنسية، ثم أخرج كلا المتحدثين لعبة. كان الأطفال في بوسطن يميلون إلى الوصول إلى اللعبة التي أخرجها المتحدث باللغة

(1) Judges 12:5–6, cited in Steven Pinker, *The Better Angels of Our Nature: Why Violence Has Declined* (New York: Viking, 2011).

(2) Guillermo C. Jimenez, *Red Genes, Blue Genes: Exposing Political Irrationality* (New York: Autonomedia, 2009).

(3) F. Ramus, "Language Discrimination by Newborns: Teasing Apart Phonotactic, Rhythmic, and Intonational Cues," *Annual Review of Language Acquisition* 2 (2002): 85–115.

الإنجليزية؛ فيما كان الأطفال الباريسيون يميلون إلى اللعبة التي أخرجها المتحدث الفرنسي[١]. وجدت دراسات أُخرى أن الأطفال الذين يبلغون من العمر اثني عشر شهراً يفضلون تناول الطعام من شخص غريب يتحدث لغتهم بدلاً من شخص يتحدث لغة مختلفة[٢]؛ يفضل الأطفال الذين يبلغون من العمر عامين تقديم هدية لشخص يتحدث بلغتهم على شخص لا يتحدث بها[٣]؛ ويفضل الأطفال في سن الخامسة طفلاً يتحدث لغتهم الخاصة كصديق على الأطفال الذين لايتحدثونها[٤].

مثل هذه الخيارات تبدو منطقية. من الأسهل، على كل حال، أن نكوّن صداقة مع شخص يتحدث اللغة نفسها، عند تساوي العوامل الأُخرى، فمن المرجح أن يتقاسم الشخص الذي يتحدث اللغة نفسها تفضيلات اللعب والأطعمة، والأمر الأكثر إثارة للاهتمام ـ هنا ـ هو أننا نرى التأثير نفسه مع اللهجات. فالأطفال يفضلون النظر إلى متحدث دون لكنة (غريبة)، حتى لو كانت لكنة المتحدث مفهومة تماماً[٥]. عند اختيار الأصدقاء، من المرجح أن الأطفال في سن الخامسة يختارون الأطفال الذين يتحدثون الإنجليزية الأمريكية بدلاً من الذين يتحدثون اللغة الإنجليزية ذات اللكنة الفرنسية[٦]. وعندما يتعلمون وظيفة شيء ما جديد بالنسبة لديهم ، يثق الأطفال الذين تتراوح

(1) K. D. Kinzler, E. Dupoux, and E. S. Spelke, "The Native Language of Social Cognition," *Proceedings of the National Academy of Sciences* 104 (2007): 12577–80.

(2) K. Shutts, K. D. Kinzler, C. B. McKee, and E. S. Spelke, "Social Information Guides Infants' Selection of Foods," *Journal of Cognition and Development* 10 (2009): 1–17.

(3) K. D. Kinzler, E. Dupoux, and E. S. Spelke, " 'Native' Objects and Collaborators: Infants' Object Choices and Acts of Giving Reflect Favor for Native over Foreign Speakers," *Journal of Cognition and Development*, forthcoming.

(4) K. D. Kinzler, K. Shutts, J. De Jesus, and E. S. Spelke, "Accent Trumps Race in Guiding Children's Social Preferences," *Social Cognition* 27 (2009): 623–34.

(5) Kinzler, Dupoux, and Spelke, "Native Language of Social Cognition."

(6) Kinzler, Shutts, De Jesus, and Spelke, "Accent Trumps Race."

أعمارهم بين أربع سنوات وخمس سنوات في المتحدث الأصلي للغتهم أكثر مما يثقون بمتحدث ذي لهجة أُخرى[١]. يشير هذا إلى أن تفضيلات الأطفال تحكمها الهوية الثقافية بدرجة ما ؛ أي التي تنتقل عبر اللغة، تماماً كما توقعت نظرية التحالف.

هناك الكثير من البحوث في تطور ونمو التحيز العنصري لدى الأطفال، وقد تم إنشاء أول إجراء تجريبي في ثلاثينيات القرن العشرين يعرض فيه شخص بالغ أزواجاً من الدمى – دمية بيضاء ودمية سوداء أو بنية اللون – على الأطفال ويطرح أسئلة مثل «أي دمية تحب اللعب بها؟»، و «أي منها تبدو سيئة؟»، و «أي لون جميل؟» وفي السبعينيات، تم تطوير نسخة موسعة من هذا الإجراء. أظهر الباحثون للأطفال صورة لصبي أبيض وصبي أسود واختبروهم بأسئلة مثل «هناك صبيان أحدهما لطيف، ما إن رأى قطاً صغيراً يسقط في بحيرة حتى قام بإنقاذه من الغرق، أيهما الفتى الطيب؟»[٢].

ربما لا يكون من المستغرب أن ينجذب الأطفال البيض إلى الطفل الأبيض إذا ما تحدثنا عن الأشياء الجيدة وإلى الطفل الأسود إذا ما تحدثنا عن الأشياء السيئة، ولكن ما أثار صدمة الكثيرين هو أن الدراسات الأُولى التي أجراها عالما النفس كينيث ومامي كلارك، وجدت أن الأطفال السود يميلون إلى تفضيل الطفل الأبيض. قد تكون هذه الدراسة، التي ورد ذكرها في قضية براون ضد مجلس التعليم التي أنهت الفصل بين

(1) K. D. Kinzler, K. H. Corriveau, and P. L. Harris, "Children's Selective Trust in Native-Accented Speakers," *Developmental Science* 14 (2011): 106–11.

(2) For review, see Frances E. Aboud, *Children and Prejudice*(London: Blackwell, 1988).

المدارس في الولايات المتحدة، أهم اكتشاف في علم النفس التنموي في التاريخ الأمريكي.

هذه الدراسات لها منتقدوها. يشير عالم النفس فرانسيس عبود إلى أن هناك شيئاً غامضاً بشأن الأسئلة التي يتم طرحها على المشاركين. فالأطفال مجبرون على الاختيار، وهناك بعد واحد فقط للاختلاف – العرق. تتمثل الخيارات الوحيدة في تفضيل مجموعة الفرد (التي ستكون عنصرية) أو تفضيل المجموعة الأُخرى (التي ستكون عنصرية بمعنى مختلف، وكذلك شاذة). ليس لدى الأطفال أي فرصة للانسحاب والقول إن العرق لا يهم[١].

لكن الأساليب التجريبية المصممة بشكل أفضل تؤكدأن التحيزات العنصرية يتم تأسيسها في سن السادسة[٢]. تأمل في بحث عالمتي النفس هايدي ماكجلوثين وميلاني كيلين، اللتين قدمتا للأطفال البيض الذين تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وتسع سنوات صوراً لمواقف غامضة، مثل صورة طفل في ملعب يجلس أمام أُرجوحة مع تعبير عن الألم، مع طفل آخر يقف بجانبه. في بعض الأحيان يكون الطفل الواقف أسود والطفل الجالس أبيض، ويتم عكس الأعراق في أحيان أُخرى، وتحتوي المشاهد الأُخرى على أفعال يمكن أن تفسر على أنها غش وسرقة. ثم طلب من الأطفال وصف المشاهد

(1) Aboud, *Children and Prejudice*, especially 10.

(2) H. McGlothlin and M. Killen, "Intergroup Attitudes of European American Children Attending Ethnically Homogeneous Schools," *Child Development* 77 (2006): 1375–86; H. McGlothlin, M. Killen, and C. Edmonds, "European-American Children's Intergroup Attitudes About Peer Relationships," *British Journal of Developmental Psychology* 23 (2005): 227–49.

والإجابة على الأسئلة المتعلقة بها. في هذه الدراسات، على عكس الدراسات السابقة، لم يجبر الأطفال على أخذ العرق في الاعتبار. لكن الأطفال فعلوا ذلك. فالبيض منهم كانوا أكثر ميلاً لوصف هذه الحالات الغامضة بأنها تتوافق مع الأفعال السيئة عندما يمكن رؤية الطفل الأبيض كضحية ويمكن رؤية الطفل الأسود باعتباره الجاني. لكن الأهم من ذلك، كان هذا الميل فقط عند الأطفال الذين يرتادون المدارس التي يكون جميع طلابها من البشرة البيضاء. الأطفال البيض في المدارس المختلطة عرقياً لم يتأثروا بأعراق الشخصيات.

وجدت دراسات أخرى أن الأطفال غالباً ما يفضلون أقرانهم من العرق نفسه ويعتقدون أنهم أشخاص أفضل، ولكن مرة أخرى، هذا يحدث في الغالب في مدارس متجانسة عرقياً.[١] عند إجراء الدراسات في المدارس غير المتجانسة (المختلطة) عرقياً، وجدوا أن الأطفال لا يعيرون أهمية للعرق[٢]. توفر هذه النتائج بعض الدعم لما يسميه علماء النفس الاجتماعي "فرضية الاتصال" – الفكرة القائلة بأن الاتصال الاجتماعي في ظل الظروف المناسبة يقلل من الأحكام المسبقة. من الواضح أن مدارس العرق المختلط توفر الظروف المناسبة[٣].

(1) J. A. Graham and R. Cohen, "Race and Sex as Factors in Children's Sociometric Ratings and Friendship Choices," *Social Development* 6 (1997): 355–72.

(2) J. Moody, "Race, School Integration, and Friendship Segregation in America," *American Journal of Sociology* 107 (2001): 679–716.

(3) Gordon W. Allport, *The Nature of Prejudice*(Reading, MA: Addison-Wesley, 1954); T. E. Pettigrew, "Intergroup Contact Theory," *Annual Review of Psychology* 49 (1998): 65–85.

ماذا عن الأطفال الأصغر سناً؟

تجد الدراسات التي أُجريت مع أطفال في الثالثة من العمر أنه عندما يتاح لهم اختيار مِن مَن سيقبلون شيئاً ما أو مع من سينخرطون في نشاط ما، فإنهم سيضعون في اعتبارهم المسائل الجنسانية[١] (حيث يميل الأولاد إلى اختيار الذكور، وتميل الفتيات الى اختيار الإناث)، والعمرية (حيث يميل الأطفال إلى اختيار طفل بدلاً من شخص بالغ)، وكما ناقشنا للتو، فإن اللغة مهمة أيضًا بالنسبة إليهم: يميل الأطفال إلى اختيار الأفراد الذين يتحدثون اللغة نفسها وليس لديهم لهجة أجنبية. لكن العرق لا يهم بالنسبة للأطفال في عمر ثلاث سنوات: الأطفال البيض لا يختارون البيض على السود، على سبيل المثال[٢]. في وقت لاحق فقط تبدأ التحيزات العرقية في الزحف، وفقط للأطفال الذين ينشأون في بيئات معينة. قد يكون لدينا تحيزات طبيعية لصالح بعض الجماعات على غيرها، **لكن من الواضح أننا لسنا عنصريين بالفطرة.**

وحتى بالنسبة للأطفال الأكبر سنًا الذين يأخذون العرق في الاعتبار، لا يكون العرق مهماً عندهم مثل اللغة[٣]. على سبيل المثال، عندما يُطلب من الأطفال البيض بعمر خمس سنوات الاختيار بين طفل أبيض وطفل أسود كصديق، يميلون إلى تفضيل الطفل

(1) K. Shutts, M. R. Banaji, and E. S. Spelke, "Social Categories Guide Young Children's Preferences for Novel Objects," *Developmental Science* 13 (2010): 599–610.

(2) K. D. Kinzler and E. S. Spelke, "Do Infants Show Social Preferences for People Differing in Race?," *Cognition* 119 (2011): 1–9.

(3) Kinzler, Shutts, DeJesus, and Spelke, "Accent Trumps Race."

الأبيض. لكن عندما يُطلب منهم الاختيار بين طفل أبيض ذي لكنة مختلفة وطفل ليس لديه لكنة مختلفة يختارون الطفل الأسود.

لا العرق ولا اللغة ضروريان لتقسيم الناس إلى تحالفات. هناك مجموعة كبيرة من الأبحاث التي تظهر أنه لا يتطلب الأمر الشيء الكثير لإنشاء تحالف مهم حقًا: فقط إنشاء ولاء جماعي، وتحريض الناس ضد بعضهم البعض.

الدراسات الأكثر شهرة هنا أُعدت بصورة مستقلة من قبل اثنين من علماء النفس الاجتماعي الأوربيين؛ مظفر شريف المولود في تركيا عام ١٩٠٦، وعندما كان شاباً كاد أن يقتل على يد الجيش اليوناني، بعد ذلك أمضى بعض الوقت في السجن في الأربعينيات بسبب معارضته للنازيين. هنري تاجفل، المولود في بولندا عام ١٩١٩، كان يهودياً قاتل مع الفرنسيين ضد النازيين وأمضى خمس سنوات كأسير حرب. إذن يمكننا القول انه كان لدى الرجلين تجربة شخصية مع التحالفات.

شريف وتاجفل كانا مهتمين بما يتطلبه الأمر لتشكيل مجموعة "نحن" التي تشتبك مع مجموعة "هم"[1]. إحدى الطرق الممكنة لاستكشاف هذا الأمر هي النظر في صراعات العالم الحقيقي، لكنها تعكس تاريخاً طويلاً ومعقداً - قد يحمل الباكستاني العديد من المظالم المشروعة ضد الهنود والعكس صحيح - وأراد شريف وتاجفل تحديد الحد الأدنى الذي يتطلبه الأمر لتقسيم الناس. بدلاً من دراسة الصراعات ذات

(1) David Berreby, *Us and Them: The Science of Identity*(Chicago: University of Chicago Press, 2008).

السـجلات التاريخية الطويلة، وقد أجرى كل منهما تجارب تهدف إلى خلق انقسـامات اجتماعية لم تكن موجودة من قبل.

في عام ١٩٥٤، دعا شريف اثنين وعشرين طالباً من طلاب الصف الخامس - فتية من بيض الطبقة الوسطى - لحضور معسكر صيفي في متنزه يدعى كهف اللصوص في ولاية أُوكلاهوما. تم تقسيم الأولاد إلى مجموعتين، تم وضع كل مجموعة في مخيم خاص بها، ولم تعلم أي من المجموعتين عن مخيم المجموعة الأُخرى. خلال الأُسبوع الأول من التخييم، قامت كل مجموعة باستكشاف المنطقة ولعب الألعاب وقضاء وقت ممتع. ثم اختارت كل مجموعة لها اسماً خاصاً يعبر عنها. الجماعة الأُولى تسمت بـ "النسور" والثانية بـ "الأفاعي".

ثم قام المجربون بإعداد الاتصال الأول. لاحظ شريف، الذي كان بمثابة بواب في المخيم لمراقبة التفاعلات، أنه عند سماع أحد الأولاد بالمجموعة الأُخرى، حتى دون رؤيته لها، أطلق عليهم "معسكر الزنوج". قام الباحثون بتنظيم بطولات ومسابقات رياضية بين المجموعتين، وتحولت العلاقات ببطء من بغضاء يشوبها الحذر إلى شيءٍ أسوأ بقليل. بدأت هذه المجتمعات الصغيرة في التركيز على عاداتها المميزة: في الوقت الذي كانت فيه مجموعة الأفاعي تستعمل السباب كانت مجموعة النسور تفخر بلغتها النظيفة، وصنعت كل جماعة علماً يمثلها. اعترضوا على الأكل معاً في قاعة الطعام. استمروا في استخدام الصفات العنصرية، على الرغم من أن الجميع كانوا بيضاً - بدت كما لو أن هذه المصطلحات قد استخدمت كتعبيرات متعددة الأغراض لشتم

"الآخرين". في الامتحانات التحريرية، قال الصبيان من كل مجموعة أن أفراد مجموعتهم أقوى وأسرع من مجموعة الخصوم.

بعد أن فاز الأفاعي في بعض المسابقات، سرق النسور علمهم، وأشعلوا النار فيه، وألقوا ببقاياه المتفحمة على الأرض. حينها قام الأفاعي بالرد ودمروا مخيم منافسيهم بينما كان النسور يتناولون العشاء. فاز النسور ببطولة وسرق الأفاعي جائزتهم الثمينة وهي السكاكين التي أعطاهم إياها علماء النفس المختبرون.

انتقل شريف بعد ذلك إلى المرحلة التالية من التجربة، التي هي معرفة كيفية المصالحة بين المجموعتين المتنازعتين؛ بمعنى آخر، البحث عن السلام العالمي في أُنبوب اختبار. فشلت العديد من المحاولات، مثل تناول الطعام معاً ومشاهدة الأفلام معاً، ولكن نجح الباحثون أخيراً في تقديم مشكلة تهدد وجود كلا المجموعتين: أنبوب ماء قطع بطريقة غامضة. في النهاية جمعت الفصيلين قضية مشتركة، وربما عدو مشترك[1].

أثبتت تجربة "كهف اللصوص" أنه يمكنك إنشاء مجتمعات متحاربة في غضون أُسبوعين، ومع ذلك، فإن الوضع شجع الأفراد على التماهي مع مجموعاتهم: فقد سهل علماء النفس المنافسة بين المجموعتين. أضف إلى ذلك أن كل صبي قضى أُسبوعاً مع مجموعته الخاصة حتى قبل أن يعرف بوجود المجموعة الأُخرى، ويبدو الأمر معقولاً أن يثق الصبي في أصدقائه أكثر من الغرباء.

(1) Muzafer Sherif, O. J. Harvey, B. Jack White, William R. Hood, and Carolyn W. Sherif, *Intergroup Conflict and Cooperation: The Robbers Cave Experiment* (Norman: University of Oklahoma Book Exchange, 1961). For review and discussion, see Berreby, *Us and Them*.

هل يمكن للتحالفات أن تنشأ بدون كل هذا الدعم الاجتماعي؟

كان هذا سؤال تاجفيل. لقد صمم تجربة بسيطة طلب فيها من البالغين ترتيب سلسلة من اللوحات التجريدية[١]. ثم أخبر نصفهم، بشكل عشوائي، أنهم أظهروا تفضيلاً لأعمال الرسام بول كلي وأخبر النصف الآخر أنهم يفضلون أعمال الرسام وازلي كاندنسكي. طبعا، كل ذلك كان مصطنعا. فعلياً كان اختيار الشخص في المجموعات عشوائياً، ولم يعتمد على اختيار الأشخاص للرسومات ولا لأذواقهم. كان هذا كافياً لتشجيع الناس على الشعور بعضوية المجموعة، وعندما يطلب منهم لاحقاً توزيع الأموال على محبي كلي الآخرين ومحبي كاندينسكي الآخرين، فإن المشاركين سيعطون المزيد للمجموعة التي ينتمون إليها – حتى لو لم يستفيدوا من ذلك، وظهرت هذه النتائج مرات عدة مع تكرار التجربة[٢].

بعض الدراسات تجد أنه يمكنك تقسيم الأشخاص بناء على المثل الإفلاطوني العشوائي – إرم العملة المعدنية وقرر بناءً على وجه العملة بعد تقليبها بالهواء، ويتضح أنه حتى بهذا التصنيف العشوائي، ستجد أن كل مجموعة تتصرف كما لو أن هناك خصوصية للمجموعة التي تنتمي لها.

(1) H. Tajfel, M. G. Billig, R. P. Bundy, and C. Flament, "Social Categorization and Intergroup Behaviour," *European Journal of Social Psychology* 1 (1971): 149–78.

(2) B. Mullen, R. Brown, and C. Smith, "Ingroup Bias as a Function of Salience, Relevance, and Status: An Integration," *European Journal of Social Psychology* 22 (1992): 103–22.

وقد أُجريت دراسات "المجموعة الدنيوية"[١] كهذه مع الأطفال أيضاً. إذ أجرت عالمة النفس ريبيكا بيجلر وزملاؤها سلسلة من التجارب التي تم فيها تقسيم الأطفال في البرامج الصيفية على نحوٍ اعتباطي؛ حصل بعضهم على قمصان زرق وحصل آخرون على قمصان حمر، ووجدوا أنه إذا ذكر مدرسو الأطفال هذه الفروق واستخدموها لتقسيم الأطفال إلى فرق متنافسة، ظهرت تفضيلات قوية داخل المجموعة. كان الأطفال يفضلون الأطفال من لونهم الخاص (أي من لون قمصانهم) وخصصوا المزيد من الموارد لمجموعتهم[٢]. وجد باحثون آخرون أن الإشارات الواضحة من المعلم لم تكن ضرورية أصلاً، حيث يمكنهم إنشاء تفضيلات جماعية فقط من خلال منح الأطفال قمصاناً ملونة مختلفة، أو تصنيفهم على أساس النقش والكتابة بعد تقليب العملة المعدنية بشكل عشوائي[٣]. أعطى الأطفال في هذه التجارب المزيد من الأموال لمجموعتهم، وتوقعوا أن تتصرف مجموعتهم بشكل أفضل، وكانوا أكثر ميلاً لتذكر الأفعال السيئة التي ارتكبها عضو خارج المجموعة.

الآن، الناس لن يغتنموا مجرد أي تمييز. إذا كان هناك شخص ما يجلس على أحد جانبي طاولة مزدحمة، فيمكنه تقسيم المجموعة إلى أُولئك الذين يجلسون على جانبه مقابل

---

(١) هامش المترجم: المجموعة الدنيوية وهي المجموعات التي تتشكل على أدنى المبادئ، وكان الهدف من هذا النوع من هذه التجارب هو معرفة أدنى الحالات المطلوبة ليتكون التعصب بين المجموعات.

(2) R. S. Bigler, L. C. Jones, and D. B. Lobliner, "Social Categorization and the Formation of Intergroup Attitudes in Children," *Child Development* 68 (1997): 530–43; M. M. Patterson and R. S. Bigler, "Preschool Children's Attention to Environmental Messages About Groups: Social Categorization and the Origins of Intergroup Bias," *Child Development* 77 (2006): 847–60.

(3) Y. Dunham, A. S. Baron, and S. Carey, "Consequences of 'Minimal' Group Affiliations in Children," *Child Development* 82 (2011): 793–811.

أولئك الذين يجلسون على الجانب الآخر، أو أُولئك الذين على يمينه مقابل الذين على يساره – ولكن لن يكون أي من هذه الانقسامات الأساس لمجموعات طبيعية نفسياً. ستكون هذه المجموعات دنيوية للغاية. بدلاً من ذلك، يتعلق الأطفال والكبار بالاختلافات التي تهم الآخرين من حولهم. نحن مخلوقات اجتماعية، لذا فالاختلافات الاعتباطية كالنقوش مقابل الكتابات، والقمصان الحمر مقابل القمصان الزرق، وعشاق كلي مقابل عشاق كاندنسكي يمكن أن تهمنا، ولكن فقط عندما نرى أن الآخرين يأخذونها على محمل الجد. ليس من الصواب إذن القول بأننا نشكل مجموعات فقط على أساس شيء اعتباطي كوجهي عملة معدنية.

كدليل آخر على الطبيعة الاجتماعية للتصنيفات، تذكر أنه حتى الأطفال قادرون على تمييز الناس حسب لون بشرتهم، ولكن لا يُظهر الأطفال تحيزاً ناشئاً في وقت مبكر لاختيار الأصدقاء على أساس لون البشرة، فهم لا يهتمون في سن ما قبل المدرسة بالعرق، وكذلك الأطفال الأكبر سناً في بعض المدارس المختلطة. إذا كان لون البشرة ذا أهمية اجتماعية – إذا كان الأطفال السود يجلسون على طاولة والأطفال البيض يجلسون على طاولة أُخرى – فسوف يلتقط الأطفال ذلك. إذا لم يكن اللون ذا أهمية اجتماعية فلن يضعه الأطفال في الاعتبار. فنحن في طبيعتنا مستعدون ومهيأون للتمييز، لكن بيئاتنا هي التي تخبرنا بدقة كيف نفعل ذلك.

الكثير من التعميمات التي نطلقها على الفئات الاجتماعية لها بعض الأساس في الواقع. يبدأ الكاتب والباحث في المجال العلمي ديفيد بيربي كتابه "نحن وهم" بملاحظة

هي أنه: في شوارع الحي الذي يعيش فيه في نيويورك، يرى الناس، وغالباً ما يكونون من النساء، يدفعون الأطفال في العربات المخصصة لهم. عندما يرى شخصاً بالغاً أبيض يدفع عربة طفل غير أبيض، فإنه يفترض أن الشخص هو أحد الوالدين، ولكن عندما يرى شخصاً بالغاً غير أبيض يدفع عربة طفل أبيض، فإنه يفترض أن الشخص البالغ هو مربية أو جليس للطفل[١].

يطرح بيربي سؤالاً بلاغياً (أي لا يحتاج الى إجابة بقدر ما يحتاج إلى تفكر) اذا ما كان به خطبٌ ما يجعله يفكر في ذلك. قد تكون الإجابة نعم فيما لو كان يعتقد أن هذا النمط ليس له استثناءات — أي ان فكرة كون شخص بالغ غير أبيض هو أحد والدي طفل أبيض مستحيلة. لكن بيربي يعلم تمام المعرفة أنه تعميم وليس قاعدة مطلقة، وكمثال مختلف، قد يلاحظ المرء أن هناك الكثير من أساتذة الجامعات اليهود. يشكل اليهود ما بين ١ و٢ في المائة من إجمالي السكان الأميركيين و٤ في المائة من سكان مدينة نيو هيفن في ولاية كونيكتيكوت، المدينة التي أعيش وأُدرّس فيها[٢]. لم أر أية إحصائيات، لكن يمكنني أن أؤكد لكم أن نسبة زملائي اليهود أكبر بكثير من ٤ في المائة.

يتم فهم أصول هذه التعميمات من خلال التاريخ وعلم الاجتماع بشكل أفضل بكثير من فهمها عن طريق علم النفس أو علم الأعصاب أو علم الأحياء. على سبيل المثال

(1) Berreby, *Us and Them*, xi.

(2) We know this from survey data gathered by Ira Sheskin, father of Mark Sheskin, who worked with Karen Wynn and me on some of the inequity studies discussed in the last chapter; see A. Appel, "Survey: Region Has 23,000 Jews," *New Haven Independent*, February 4, 2011, www.newhavenindependent.org/index.php/archives/entry/jews_23000.

سيكون من العبث شرح الفوارق الجسيمة بين البيض والسود في أمريكا، من دون الإشارة إلى تركة العبودية وجيم كرو.

ضع في اعتبارك أيضاً أنه في العالم، تماماً كما هو الحال في المختبر، يمكن أن تصبح الفروق، التي تبدأ على نحو اعتباطي، حقيقية إذا اعتقد عدد كاف من الناس أنها كذلك. هذا هو السبب في أن الاختلافات الاجتماعية تحتاج وقتاً طويلاً للقضاء عليها. إنها تديم نفسها بنفسها. يصف بيربي الالتحاق بالمدارس الابتدائية في كاليفورنيا، حيث كان نصف الطلاب من البيض ونصفهم من السود، ولأغراض إدارية، قام المعلمون بتصنيف الأطفال إلى مجموعات حسب أبراجهم الفلكية، واكتسبت التصنيفات أهمية اجتماعية – على حد تعبيره، "سرعان ما شعرنا نحن برج الثور بأننا ننتمي لبعضنا البعض"، وسرعان ما أصبح مواليد برج الثور يميلون إلى التصرف بشكل مشابه، الأمر الذي أقنع بعض المعلمين بحقيقة علم الأبراج[١].

أو خذ الاعتقاد السائد لدى بعض الآسيويين بأن الأطفال المولودين في عام التنين يكونون متفوقين على أقرانهم. أظهرت دراسة أُجريت على المهاجرين الآسيويين إلى الولايات المتحدة أن الأطفال ـ الذين ولدوا في عام ١٩٧٦، وكان عام التنين ـ هم أفضل في التعليم من الأطفال المولودين في سنوات أخرى[٢]. هذا ليس لأن السنة نفسها تُحدث فرقاً، بل لأن الناس يعتقدون انها تحدثُ فرقاً، وجد البحث أن الأُمهات الآسيويات

(1) Berreby, *Us and Them*, 208.

(2) N. D. Johnson and J. V. C. Nye, "Does Fortune Favor Dragons?," *Journal of Economic Behavior and Organization* 78 (2011): 85–97.

للرضع المولودين في عام التنين هن أنفسهن أفضل تعليماً وأكثر ثراءً وأكبر بقليل من الأُمهات الآسيويات الأُخريات - وبالتالي أكثر قدرة على ضبط استراتيجيات الولادة لإنجاب أطفال في عام التنين.

رغم أن أصل اختلافات المجموعة يأخذنا إلى خارج علم العقل، فإن السؤال عن كيفية علمنا بهذه الاختلافات هو اساس علم نفس، والإجابة بسيطة: البشر (والكائنات الأُخرى) هم إحصائيون بالفطرة. الطريقة الوحيدة للتعامل مع الحاضر هي عن طريق التعميمات القائمة على الماضي. نتعلم من التجربة أنه يمكن الجلوس على الكراسي، وأن الكلاب تنبح، ويمكن أكل التفاح. بالطبع، هناك استثناءات - الكراسي الهشة والكلاب الصامتة والتفاح السام، ويستحق الأمر الحذر من هذه القيم المتطرفة، ولكن الحياة ستكون مستحيلة إذا كنا لا نواجه الاحتمالات باستمرار؛ وإلا، فإننا لا نعرف ما يجب القيام به في كل مرة نقابل بها كرسياً جديداً أو كلباً جديداً أو تفاحة جديدة.

نحن نقوم بإحصائيات عن الناس أيضاً وكما قال عالم النفس الاجتماعي غوردون ألبورت في كتابه الكلاسيكي "عن طبيعة الحكم المسبق": «لا بد أننا نفكر بمعونة من تصنيفاتنا ... لا يمكننا تجنب هذه العملية»[1]. إذا كنت أسير في الشارع واحتجت إلى السؤال عن الطريق، لن أسأل طفلاً صغيراً، لأن الصورة النمطية الخاصة بي عن الأطفال الصغار هي أنهم لا يجيدون الإرشاد، ولن أسأل شخصاً يصرخ في الهواء، لأن مثل هذا الشخص يتناسب مع الصورة النمطية التي في ذهني عن الشخص المجنون، ويميل المجانين إلى أن يكونوا غير موثوقين وغير مفيدين. إذا سمعت عن قاتل أو

(1) Allport, *Nature of Prejudice*, 20.

مغتصب، فاني أُصر على إبقاء عيني مفتوحة تحسباً منه – نعم، "منه"، رغم أنه قد يكون امرأة، لكن حدسي يسترشد بالإحصاءات، وبالفعل، توصلت دراسات مختلفة إلى أنه عندما يتم سؤال الناس عن الإنجازات الرياضية والإجرام والدخل وما إلى ذلك، فإن الصور النمطية التي يحملونها عن المجموعات العرقية والإثنية تميل إلى أن تكون دقيقة.[1]

ما هو السيء في هذا إذن؟

أحد الشواغل هو الأخلاق. فحتى لو كانت الصور النمطية دقيقة، فقد يكون من الخطأ أحيانًا استخدامها. الأُمور هنا غير ملحوظة؛ نحن لسنا منزعجين أخلاقياً من بعض التعميمات عن الناس. نحن مرتاحون للقوانين والسياسات التي تميز على أساس السن، على سبيل المثال. هذا لأننا مجبرون على القيام بذلك (لا يمكننا السماح للجميع بقيادة السيارة) لأن الصور النمطية متجذرة بوضوح في الحقائق (الأطفال في سن الرابعة هم في الحقيقة أصغر من أن يقودوا السيارات)، ولأن هذه السياسات تنطبق على شريحة من العمر الافتراضي للجميع، وليس على مجموعة فرعية من السكان، لذلك تبدو أكثر عدلاً. عاجلاً أو آجلاً، سيحصل الجميع على فرصته. كمثال آخر، يُسمح لشركات التأمين على الحياة بإجراء تعميمات بناءً على ما إذا كان الشخص يدخن ومقدار وزنه.

لكن استخدام الصور النمطية القائمة على الجنس أو العرق أو الإثنية هو أكثر صعوبة. هذا جزئياً لأنه يمكن أن يسبب معاناة – حتى لو كانت الصور النمطية دقيقة، فإن التكاليف التي يتحملها أُولئك الذين يتعرضون للتمييز قد تفوق الكفاءة الكبيرة

(1) Lee Jussim, *Social Perception and Social Reality: Why Accuracy Dominates Bias and Self-Fulfilling Prophecy* (New York: Oxford University Press, 2012).

للأشـخاص الذين يمارسـون التمييز، وفي جزء منه لأنه يمكن أن ينتهك بعض مفاهيم العدالة. كُتِبَ على قميص طبعته مجلة "ذا أونيون" السـاخرة: «الصـور النمطية هي موفِّر حقيقي للوقت» - لكن هناك حالات يكون فيها من الخطأ معاملة فرد على أساس المجموعة التي ينتمي إليها؛ من الأفضل أن تعطيها وقتاً إضافياً.

وهناك مشـكلة أخرى هي أن الصـور النمطية تتأثر بالتحيز الائتماني، وليس فقط البيانات التجريبية. نحن نجد أنفسـنا طلاب إحصـاء جبارين عندما يتعلق الأمر بالكراسي والكلاب والتفاح، ولكن عندما يتعلق الأمر بالناس، يمكن أن تشـوه تحيزاتنا استنتاجاتنا. في لحظة تشكيل المجموعات، لا يوجد فرق حقيقي بين عشاق كلي وعشاق كاندنسكي، أو أطفال القمصان الحمر وأطفال القمصان الزرق، ولكن المشاركين سوف يتصـورون وجود اختلافات حقيقية وسـيؤمنون بأن مجموعاتهم الخاصـة متفوقة موضـوعياً. مثل هذه الحالة نراها خارج المختبر كذلك. مثلاً، بعد بدء الحرب العالمية الثانية، غيّر الأمريكيون مواقفهم من الصـينيين واليابانيين. فاليابانيون الذين كانوا يعتَبرون تقدميين ومبدعين، أصـبحوا خبثاء وغدارين، وتحول الصـينيون من خبثاء وغدارين إلى ورعين ولطفاء. على نحو مماثل، كان الروس شـجعاناً ومجتهدين عندما كانوا يقاتلون هتلر مع الأمريكيين في عام ١٩٤٢ وقسـاة ومغرورين في عام ١٩٤٨ مع بزوغ فجر الحرب الباردة[1].

في الواقع، مجرد التفكير في شخص ما كعضو في مجموعة خارجية يؤثر على مشاعرنا تجاهه. لقد رأينا أن الرضـع والأطفال الصـغار يفضـلون التفاعل مع الأشـخاص الذين

(1) Berreby, *Us and Them.*

يتحدثون بلهجة مألوفة، وبالمثل، يميل البالغون إلى تقييم الأفراد ذوي اللكنات الأجنبية على أنهم أقل كفاءة وذكاء وتعلمًا وجاذبية[١]. توصلت دراسات أُخرى إلى أننا نميل إلى التفكير في أفراد من مجموعات خارجية غير مألوفة للغاية على أنهم يفتقرون إلى المشاعر المحصورة بالبشر- فقط، مثل الحسد والندم، حيث نراهم إما متوحشين أو، في أحسن الأحوال، أطفالاً[٢].

المشاركون النموذجيون في تجربة علم النفس هم طلاب جامعيون من أمريكا الشمالية أو أُوربا، وقد يكون هؤلاء الأشخاص الأقل عنصرية في العالم.[٣] حتى عند اختبارهم في أكثر السياقات سريةً، فإنهم يميلون إلى أن يكونوا غير عنصريين بجد.

العرق في الواقع، هو من المحرمات بالنسبة لهذه الفئات السكانية. فهو يستوفي معيارين لكونه من المحرمات: إنه مادة فحش (المصطلحات العرقية هي نعوت رئيسة)، وهي مادة كوميدية (هناك ممثلون كوميديون يكسبون عيشهم بمواد من شاكلة البيض يفعلون هذا والسود يفعلون ذلك). في كل من هذين المجالين، يندرج العرق في خانة التابوهات والمحرمات الاجتماعية.

---

(1) A. Gluszek and J. F. Dovidio, "The Way They Speak: A Social Psychological Perspective on the Stigma of Nonnative Accents in Communication," *Personality and Social Psychology Review* 14 (2010): 214–37.

(2) S. Loughnan, N. Haslam, T. Murnane, J. Vaes, C. Reynolds, and C. Suitner, "Objectification Leads to Depersonalization: The Denial of Mind and Moral Concern to Objectified Others," *European Journal of Social Psychology* 40 (2010): 709–17; J. Ph. Leyens, M. P. Paladino, R. T. Rodriguez, J. Vaes, S. Demoulin, A. P. Rodriguez, and R. Gaunt, "The Emotional Side of Prejudice: The Attribution of Secondary Emotions to Ingroups and Outgroups," *Personality and Social Psychology Review*4 (2000): 186–97.

(3) A. R. Pearson, J. F. Dovidio, and S. L. Gaertner, "The Nature of Contemporary Prejudice: Insights from Aversive Racism," *Social and Personality Psychology Compass* 3 (2009): 314–38.

الأطفال لا يبدأون في رؤية العرق على أنه من المحرمات[١]. ففي إحدى الدراسات، المستوحاة من لعبة كانت فيما مضى شائعة الاستخدام تسمى "احزر من؟"، أظهر الباحثون مجموعة من أربعين صورة لأفراد مرتبة في أربعة صفوف من عشرة، لمجموعة من الأطفال معظمهم من البيض تتراوح أعمارهم بين الثامنة والحادية عشرة. ثم أشار المجربون إلى إحدى الصور وأمروا الأطفال بتقليص الصف على تلك الصورة بطرح أقل عدد ممكن من الأسئلة بنعم أو لا «مثل «هل شخصك امرأة؟» ». عندما أظهرت جميع الصور الأشخاص البيض، كان أداء الأطفال في سن العاشرة والحادية عشرة أفضل من الأطفال في سن الثامنة والتاسعة، وهذا ليس مفاجئاً. لكن عندما أظهرت بعض الصور أشخاصاً بيضاً وأظهرت صور أُخرى أشخاصاً سوداً، فإن الأطفال الأكبر سناً قد فعلوا ما هو أسوأ، لأنهم تجنبوا طرح أسئلة مثل «هل شخصك أبيض؟» كانوا قد وصلوا إلى مرحلة من النمو الذهني تنطوي على تكلفة نفسية حتى لمجرد ذكر العرق. في الواقع، يجد علماء النفس الاجتماعيون أن العديد من الأشخاص البيض غير المتحيزين الذين تجري عليهم الأبحاث كانوا حذرين للغاية خشية أن يظهروا كأشخاص عنصريين عند تفاعلهم مع السود[٢].

كانت إحدى أكثر الاكتشافات إثارة للاهتمام في علم النفس، في ذلك الحين، هي أنه حتى أقل الناس عنصرية في العالم لديهم تحيزات عنصرية غير واعية[٣]. يميل الوجه

(1) E. P. Apfelbaum, K. Pauker, N. Ambady, S. R. Sommers, and M. I. Norton, "Learning (Not) to Talk About Race: When Older Children Underperform in Social Categorization," *Developmental Psychology* 44 (2008): 1513–18.

(2) Pearson, Dovidio, and Gaertner, "Nature of Contemporary Prejudice."

(3) For review, see M. R. Banaji and L. Heiphetz, "Attitudes," in *Handbook of Social Psychology*, ed. Susan T. Fiske, Daniel T. Gilbert, and Gardner Lindzey (New York: Wiley, 2010), 348–88.

الأسود، عرض على شاشة الكمبيوتر بسرعة كبيرة تفوق سرعة القدرة البشرية على الملاحظة، إلى إثارة أفكار العدائية بين الأشخاص البيض؛ فيصبحون أكثر ميلاً لإكمال جزء كلمة مثل "HA_E" باسم "HATE" التي تعني الكراهية. تميل وجوه الذكور السود أيضا إلى أن تؤدي إلى استجابات أكبر في منطقة من الدماغ تسمى اللوزة الدماغية، المرتبطة بمشاعر عديدة من بينها الخوف والغضب والتهديد. في اختبار الارتباط الضمني، أو ما يعرف بـ IAT، يكون معظم الأشخاص أسرع في ربط الوجوه البيض بالكلمات الإيجابية مثل الفرح، والوجوه السود بكلمات سلبية مثل مريع بدلاً من قيامهم بالعكس.

يتم عرض هذه الدراسات بكثرة في وسائل الإعلام الشعبية، حيث يتم تصويرها في بعض الأحيان كوسيلة لطرد العنصريين المخفيين. أسوأ مثال رأيته على الإطلاق كان في حلقة من حلقات المسلسل التلفزيوني "اكذب علي" التي فيها يستخدم فريق من علماء النفس والمحققين نسخة مشوشة من اختبار الارتباط الضمني لتحديد أي إطفائي من مجموعة من رجال الإطفاء قام بارتكاب جريمة عنصرية، وجدوا أن أحد رجال الإطفاء كان أبطأ من البقية في ربط الكلمات الإيجابية مثل كلمة "مبدئي" مع وجوه لإشخاص سود مثل "باراك أوباما"، وهذا يحسم الأمر. احتج فيما بعد قائلاً «أنا لست عنصرياً». يستجوبه المحقق: «ألا تعتقد أنك كذلك؟»[1] هذا هو نوع التصوير الإعلامي الذي يجعل علماء النفس الاجتماعيين يجفلون. حتى لو تم اختبار رجال الإطفاء على اختبار الارتباط الضمني الفعلي، فإن ذلك لن يساعد في اكتشاف الشخص العنصري. تم تطوير هذه

(1) From *Lie to Me*, Fox, Season 1, Episode 5 ("Unchained").

الأساليب لجمع البيانات الإجمالية حول التحيزات اللاواعية للناس. إنها ليست أجهزة كشف عنصرية.

جادل بعض النقاد على الطرف النقيض الآخر، بأن هذه النتائج لا تخبرنا سوى القليل عن الأفكار النمطية والأحكام المسبقة في العالم الواقعي.[1] من يأبه للمقاييس الدقيقة وغير الملحوظة كفترة الاستجابة أو الاستجابة الموصلية للجلد أو تنشيط اللوزة الدماغية؟ ولكن في الواقع، ترتبط هذه التدابير بالاعتبارات المهمة حقًا،[2] مثل مدى الإحراج الذي يقع فيه شخص ما عند تفاعله مع شخص من عرق آخر. علاوة على ذلك، تظهر التحيزات الضمنية نفسها عندما يتخذ الأشخاص قرارات في العالم الحقيقي مثل ما إذا كان يجب توظيف شخص ما في وظيفة أو مساعدة شخص يصرخ للحصول على المساعدة.

يوضح هذا البحث كيف يمكننا أن نكون في حالة حرب مع أنفسنا. قد ينقسم المرء نفسياً الى نصفين: نصف يعتقد أن العرق يجب ألا يلعب أي دور في قرارات التوظيف (أو حتى قد يعتقد أن الأقليات العرقية يجب أن تحصل على ميزة)، بينما يوجهه نصفه الآخر ضد اختيار شخص أسود. هذا التوتر يمكن أن يعكس الصراع الأخلاقي، أي حين تتصادم وجهة نظر المرء الصريحة عن الصواب مع مشاعره الداخلية.

---

(1) H. Arkes and P. E. Tetlock, "Attributions of Implicit Prejudice, or 'Would Jesse Jackson Fail the Implicit Association Test?'," *Psychological Inquiry*15 (2004): 257–78.

(2) A. G. Greenwald, A. Poehlman, E. Uhlmann, and M. R. Banaji, "Understanding and Interpreting the Implicit Association Test III: Meta-analysis of Predictive Validity," *Journal of Personality and Social Psychology* 97 (2009): 17–41; Banaji and Heiphetz, "Attitudes"; Pearson, Dovidio, and Gaertner, "Nature of Contemporary Prejudice."

أُراهن على أننا، بعد مرور مائة عام من الآن، سنستمر في التفكير في ضوء المجموعات البشرية. سنحافظ على بعض تحيزاتنا ونتمسك ببعض أحكامنا وأفكارنا المسبقة.

ويرجع ذلك جزئياً إلى أن الاختلافات ما بين المجاميع البشرية موجودة بالفعل. على سبيل المثال، غالباً ما يكوّن الأمريكيون صورة نمطية عن الطلاب من بعض الدول الآسيوية على أنهم من الناحية الأكاديمية أكثر نجاحاً من المتوسط. بل إن المتقدمين الآسيويين للجامعات لديهم درجات أعلى من المتوسط في اختبارات التقديم كأختبار سات[١][٢]. الآن، يمكن للمرء أن يجعل مناقشة هذا الأمر من المحرمات، أو أن يجعل مناقشة هذا الأمر من قبل أي شخص آخر من غير الآسيويين من المحرمات، ولكن، في غياب غسيل الأدمغة أو التنويم المغناطيسي الشامل، لا يمكنك إعادة برمجة أدمغة الناس حتى تختفي معرفتهم، ومن المحتمل أن تستمر بعض هذه التعميمات.

الأسباب نفسها التي تجعل المجموعات التي نعتبرها أعراقاً وإثنيات تحمل العديد من أوجه التشابه، تجعل المجموعات التي نعتبرها أُسراً تحمل العديد من المشتركات. فمثلما يتشارك أفراد الأُسرة المباشرة بنفس الجينات التي تزيد من احتمالية حملهم لبعض السمات المميزة، كذلك أفراد المجموعات البشرية الأكبر التي هي عبارة عن مجاميع من

---

(١) هامش المترجم: "اختبار سات" هو اختبار أساسي للالتحاق بالجامعات الأمريكية، وهو أحد الاختبارات التي يستخدمها الجيش لاختبار قدرات الفرد العقلية، وتم إقتراحه من أجل القبول في الجامعات لأول مرة سنة ١٩٢٦، لكن تأجل تطبيقه حتى ١٩٣٣ في جامعة هارفرد بعد قيام رئيسها باستعماله في تقييم قدرات المتقدمين للمنح الدراسية، ويقيس هذا الاختبار المهارات الأساسية للإنسان كالقراءة والفهم وقدرته على التعبير والحساب.

(2) Thomas. J. Espenshade and Alexandria W. Radford, *No Longer Separate, Not Yet Equal: Race and Class in Elite College Admission and Campus Life* (Princeton: Princeton University Press, 2009).

الأُسر. الأهم من ذلك كله، أن الأشخاص الذين يعيشون معاً – عائلات أو مجاميع من العائلات – سيشتركون في بعض الخصائص مع مرور الوقت. مثلاً، سيتناولون بعض الأطعمة الخاصة، ويمارسون أنشطة معينة، ويتكلمون بطرق مميزة، ويحترمون قيماً معينة. التمايز الثقافي يحدث بسرعة، كما نرى في الحالات التي تنقسم فيها الدول مثل ألمانيا الشرقية والغربية، وكوريا الشمالية والجنوبية.

هناك سبب آخر يجعل من تحيزاتنا باقية حتى إشعار آخر، وهو متعلق بطبائعنا الائتلافية والتحالفية. نحن نؤيد مجموعاتنا الخاصة، ويتضح هذا في تجارب المجموعة الدنيوية، وهذا واضح في العالم الحقيقي، حيث تدفعنا روابط البلد والجوار والقرابة، وأوثق الروابط هنا هي رابطة القرابة. كانت هناك كل أنواع المحاولات لحل الروابط العائلية الخاصة واستبدالها بمجموعات أُخرى، مثل الدولة أو الكنيسة، ولكن جميعها فشلت.

في الواقع، يشترك العرق والإثنية في شيء مع القرابة: عند تصنيف الناس على أنهم يقعون في فئة أو أُخرى، حتى أكثر الناس تحرراً وعزماً على مناهضة العنصرية، يفهمون هذا كسؤال عن هوية أقاربهم البيولوجيين. كما يشير عالم النفس فرانسيسكو جيل وايت: عندما يقول شخص ما أنه نصف إيرلندي، وربع إيطالي، وربع مكسيكي، فإن هذا ليس بياناً عن توجهاته أو انتماءاته. إنه بيان حول أُصول أسلافه العرقية[1].

(1) F. Gil-White, "Are Ethnic Groups Biological 'Species' to the Human Brain? Essentialism in Our Cognition of Some Social Categories," *Current Anthropology* 42 (2001): 515–54.

على الجانب المشرق، فإن ميلنا إلى تصنيف أنفسنا والآخرين في مجموعات يمنحنا متعة حقيقية، والناس لا يريدون لثقافاتهم ولغاتهم أن تتلاشى. إنهم يشعرون بالبهجة لمجرد الانتماء إلى مجتمع معين، وعلى الرغم من أن العديد منا يعارض أُولئك الذين يحملون أفكاراً سلبية عن المجموعات الأُخرى، إلا أنه لا يُعتبر من الخطأ أن تفخر بمجموعتك وتهتم لأمرها. عندما كنت طفلاً أترعرع في كيبيك، كان اليهود في مجتمعي يشاركون بفاعلية في مساعدة اليهود في روسيا – غرباء في بلد بعيد بشكل لا يصدق لكنهم كانوا مهمين لأنهم كانوا من جماعتنا. سيشعر المواطنون الفرنسيون بالغضب إذا ما قامت حكومة أجنبية بسجن مواطن فرنسي ظلماً؛ يفخر الإيطاليون بإنجازات الإيطاليين الآخرين الذين لم يسبق أن التقوا بهم أبداً. بينما كنت أكتب هذا الفصل، تلقيت دعوة من أحد الزملاء للذهاب إلى حدث سياسي دعماً لشخص ما، إذا انتُخب «سيكون أول سناتور من أصول صينية يعمل في الجزء القاري من الولايات المتحدة». هل ستندهش لسماع أن الشخص الذي أرسل الدعوة هو نفسه أمريكي من أُصول صينية؟

حتى أُولئك الذين يعارضون بشدة الدين والقومية سوف يبحثون عن مباهج المجتمع بطرق أخرى، من خلال أُسرهم المباشرة، أو دائرة أصدقائهم، أو مجتمعهم المهني. هنا قد تختلف رؤية المرء لنفسه كجزء من مجتمع أساتذة علم النفس، على سبيل المثال، عن رؤية نفسه ككاثوليكي أو يوناني أو أمريكي. لكنه سيبقى يشعر نفس مشاعر الدفء والفخر والانتماء. يذهب بيربي إلى حد وصف تركيزنا على المجموعات البشرية «بأحد الينابيع الطبيعية للخيال البشري والمتعة الإبداعية»[1].

(1) Berreby, *Us and Them*, xiv.

قد يعترض بعضٌ فيقول: إن فوائد طبيعتنا الضيقة الأُفق لا يمكن أن تفوق تكاليفها. فمقابل كل مجموعة انتماء هناك مجموعة خارجية، وهنا تكمن المشكلة. لن يكون لدينا هيروشيما وناغازاكي بدون الأمريكان واليابانيين، ولا مذبحة رواندية دون التوتسي والهوتو، ومع ذلك، ليس من الواضح ما إذا كان هناك أي بديل لتقسيم البشرية إلى مجموعات. لا أحد يعرف ما إذا كانت الأخلاق العالمية حقا ممكنة إنسانياً، وما إذا كنا نستطيع أن نكون غير متحيزين حقاً لروابط الثقافة أو البلد أو الدم مع بقائنا أشخاصاً طيبين ومحترمين.

يلاحظ الفيلسوف كوامي أنتوني أبياه «أنه حتى التواصل مع الغرباء البعيدين سيظل دائماً تواصلاً مع غرباء معينين، وسيبقى الدفء النابع من الهوية المشتركة متاحاً دائماً»[1]. سوف يرسل المسيحيون الأمريكيون الأموال إلى إخوانهم المسيحيين في السودان، وسوف يقوم الكُتّاب بحملة من أجل حرية الكُتّاب في جميع أنحاء العالم، وستعمل النساء في السويد من أجل حقوق المرأة في جنوب آسيا، وهلم جرا. يستشهد أبياه بشيرو في هذه النقطة: «المجتمع والزمالة في المصلحة البشرية سوف يخدمان على أفضل وجه إذا ما منحنا أشد اللطف لأُولئك الذين نحن على أشد صلة بهم»[2].

أيضاً، يمكننا استخدام ذكائنا لتجاوز تحيزاتنا الائتلافية عندما نشعر أنها بدأت تعيثُ في الأرض فساداً. نخلق معاهدات ومنظمات دولية تهدف إلى حماية حقوق الإنسان العالمية. نستخدم إجراءات مثل المراجعة العمياء والاختبارات العمياء التي تم

(1) Kwame Anthony Appiah, *Cosmopolitanism: Ethics in a World of Strangers* (New York: Norton, 2006), 98.
(2) Appiah, *Cosmopolitanism*, xviii.

تصميمها لمنع القضاة من التحيز، عن وعي أو غير وعي، من قبل عرق المرشح - أو أي شيء آخر غير ما هو قيد التقييم. نضع أنظمة الحصص (الكوتا) ومتطلبات التنوع لضمان التمثيل الكافي لمجموعة الأقليات، وسحب القرار من أيدي الأفراد الذين لديهم تفضيلاتهم وأجندتهم الخاصة.

ليس ما أُريد قوله أن الحلول المذكورة أعلاه هي حلول صحيحة. في الواقع، لا يمكن أن تكون جميعها على حق، لأنها تتعارض مع بعضها البعض. (يتم التغاضي عن العرق في عمليات القبول في الجامعات التي تتجاهل العرق؛ بينما تأخذ الحصص (الكوتا) ومتطلبات التنوع العرق صراحةً في الاعتبار). بل إن المسألة هنا هي أنه يمكننا أن نهندس حالات معينة، بمساعدة العرف والقانون، للقضاء على التحيز حيث نعتقد أن التحيز خاطئ، وهذه هي الطريقة التي يحدث بها التقدم الأخلاقي بشكل عام. نحن عادة لا نصبح أفضل من خلال النوايا الحسنة وقوة الإرادة فقط، تماماً كما لا نفقد الوزن أو نتخلى عن التدخين فقط من خلال الرغبة في ذلك والمحاولة بجد، ولكننا مخلوقات ذكية، ويمكننا استخدام ذكائنا لإدارة معلوماتنا وتقييد خياراتنا، مما يسمح لذواتنا الأفضل بالتغلب على تلك المشاعر والشهوات الغريزية التي نعتقد أننا سنكون أفضل حالاً بدونها.

هذه هي الطريقة التي نتعامل بها مع ميلنا الطبيعي لتفضيل مجموعتنا على الآخرين.

الفصل الخامس
كيف نكون صالحين؟

من السذاجة، أن ينكر المرء أن الكثير من الأفعال التي تبدو أنها أفعال إيثارية إنما تتم بدافع المصالح الشخصية. فالكثير من الأعمال الخيرية لا تذهب إلى الأكثر احتياجًا أو الأكثر جدارة، بل إلى المشروعات التي يستفيد منها المانحون أنفسهم، كما هو الحال عندما يقدم الآباء الأثرياء الملايين إلى جامعات النخبة أملاً في قبول أبنائهم. لقد لاحظ عالِم الاجتماع ثورستينفيبلن أن العطاء الخيري هو الطريقة المثلى للإعلان عن ثروة الفرد ومكانته[1]. وهو أيضاً طريقة جيدة لإنشاء علاقات اجتماعية وحميمية وعاطفية[2]؛ لا ضير في ان تُعتبر كرماً ورعاية. رغم هذا، فإن هناك من الناس من يقدم المساعدة للآخرين بطرق لا تعود عليه بمردود شخصي، وهناك من يفعل ذلك من دون أن يكشف حتى عن هويته.

لقد اشتهر عالم النفس في جامعة ييل ستانلي ميلغرام بدراساته المتعلقة حول "طاعة البشر للسلطة" حيث أجرى، من خلالها، تجارب على أشخاص أحضرهم إلى مختبره، فوجد الكثير منهم ينصاعون لأوامر تأمرهم بتوجيه صعقة كهربائية مميتة لشخص غريب. لكن ميلغرام كان مهتماً أيضاً باللطف، وفي عام ١٩٦٥، أجرى تجربة قام فيها بتفريق رسائل مختومة ومعنونة على جميع أنحاء مدينة نيو هافن وذلك برميها على الأرصفة أو وضعها في أكشاك الهاتف والأماكن العامة الأُخرى. معظم الرسائل وصلت إلى

(1) Thorstein Veblen, *The Theory of the Leisure Class: An Economic Study of Institutions* (New York: Random House, 1899).
(2) G. F. Miller, "Sexual Selection for Moral Virtues," *Quarterly Review of Biology* 82 (2007): 97–125.

وجهاتها، مما يعني أن أهالي مدينة نيو هافن قد التقطوها ووضعوها في صناديق البريد – إنها أفعال بسيطة تتسم بالطيبة لا يمكن أبداً أن تبادل بالمثل. لكن هذه الطيبة كانت انتقائية: فقد وجد ميلغرام أن الرسائل المسلمة عادة ماتكون هي المعنونة في المقدمة باسم – كـ «إلى والتر كارناب» مثلاً – ولكن ليس إذا كانت موجهة إلى «أصدقاء الحزب النازي»[١].

وكذلك يتمظهر الخير في نفوسنا بطرق أُخرى[٢]. فمعظم المجتمعات لم تعد تعاقب الناس بتشويههم. فمثلاً اقتراح توماس جيفرسون الذي يقضي بمعاقبة الأُناس السيئين من خلال «فتح فتحة بقطر نصف بوصة في أُنوفهم» لم يعد يعتمد اليوم[٣]. كذلك تغيرت المواقف حول الأُسرة. ففي كثير من البلدان لم يعد من القانوني أن يضرب الرجال زوجاتهم أو أن يضرب الآباء أطفالهم. بل إن بعض الناس يشعرون بالقلق الشديد إزاء مصير الحيوانات لدرجة أنهم أسسوا منظمات لحمايتها، وهناك الكثيرون ممن يؤمنون بحقوق مثل حرية التعبير وحرية المعتقد ويعتقدون أنه من الخطأ إبقاء الآخرين عبيداً أو الأخذ بالتمييز على أساس العرق.

العديد من العلماء والفلاسفة يرون أن الخير المزروع فينا هو دليل على التدخل الإلهي[٤]، ويرى عالم الأحياء فرانسيس كولينز أن هذا النوع من الأخلاق المستنيرة لا

(1) S. Milgram, L. Mann, and S. Harter, "The Lost-Letter Technique: A Tool for Social Research," *Public Opinion Quarterly* 29 (1965): 437–38.

(2) For an extended review, see Steven Pinker, *The Better Angels of Our Nature: Why Violence Has Declined* (New York: Viking, 2011).

(3) Robert M. Pallitto, *Torture and State Violence in the United States: A Short Documentary History* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2011).

(4) Francis Collins, *The Language of God: A Scientist Presents Evidence for Belief* (New York: Free Press, 2006); Dinesh D'Souza, *What's So Great About Christianity* (New York: Regnery, 2007), 237. The Wallace quote comes from his review of

يمكن تفسيره بالتطور البيولوجي، وخلص إلى ضرورة أن الرب الرحيم هو من زرع فينا هذا الحس الأخلاقي، ويخلص المعلق الاجتماعي دينيش دي سوزا إلى أن أفضل وصف "للإيثار الرفيع"، الذي هو الخير تجاه غير الأقارب والذي يكون بلا فوائد وراثية أو مادية مُحْتَمَلة، هو عبارة سي أس لويس «بأنه صوت الله فينا».

في عام ١٨٦٩، لاحظ ألفريد روسل والاس، وهو أحد اثنين ممن اكتشفوا الانتقاء الطبيعي، أن البشرية قد تجاوزت التطور في كثير من النواحي، بما في ذلك «قدراتنا الأخلاقية العليا». وخلص إلى أنه يجب أن يكون هناك دور لقوة عليا في عملية ظهور الجنس البشري.

لكن كيف وصلنا إلى التسامي فوق الأخلاق التي ولدنا بها؟ كيف يؤدي خيالنا وتعاطفنا، وخاصة ذكاؤنا، إلى ظهور رؤية أخلاقية وتقدم أخلاقي؟ كيف أصبحنا أكثر من مجرد أطفال؟

لنبحث في القوى التي تقود هذا التقدم الأخلاقي، ولننظر أولاً إلى قوة العرف. فقد كان بحثي السابق مركزاً على المشاعر الأخلاقية والأحكام الأخلاقية، مع أن هذين الأمرين لا يشكلان أهمية لسلوك جيد.

فإذا لاحظنا إعطاءنا للعامل ما يسمى الإكرامية (البقشيش) والذي هو إيثار بحت، بمعنى مساعدة الآخرين على حساب النفس دون أية فائدة ملموسة، نجد أنه يفتقد عادة

Charles Lyell's *Principles of Geology* and is cited in Robert J. Richards, *Darwin and the Emergence of Evolutionary Theories of Mind and Behavior* (Chicago: University of Chicago Press, 1989).

إلى أي دافع أخلاقي. فأكثر الناس عند دفعها له لا تدفعه بسبب معرفتهم بقلة أُجور العمال واستحقاقهم المساعدة، وهو دافع أخلاقي، وإنما ندفع ذلك وحسب.

نعم، يمكن أن يكون هذا الفعل التلقائي نتيجة لتفكير مسبق: أي أن الشخص الذي أعطى إكرامية فكر، في وقت من الأوقات، في المنطق والأخلاق المترتبة على الإكرامية وتوصل إلى صوابه وأنه الشيء الصحيح الذي يجب علينا فعله، وبمرور الوقت تحول هذا اللطف إلى فعل لا إرادي. هذه هي الطريقة التي نجحنا بها في أنشطة معقدة مثل ربط أحذيتنا، حيث نبدأ القيام بالفعل على أساس تفكيرنا الواعي بضرورته، ولكن سرعان ما يتلاشى الوعي، فنستمر في القيام به بشكل تلقائي، وهذا ما قد يصح على الأفعال الأخلاقية بشكل عام، وكما لاحظ أرسطو، فإن إحدى سمات الأفراد الفاضلين هي أنهم يتطلعون إلى تحويل السلوك الجيد المدروس إلى عادة لا إرادية كي تتطور في الأشخاص الذين يقومون بالشيء الصحيح دون التفكير فيه[1].

ومع ذلك، فإن الكثير من تفاصيل السلوك التي نراها جيدة يتم التقاطها كجزء من ثقافة المرء، كالأعراف والعادات، ولا يتم التفكير فيها مطلقًاً. فهي مثل تعلم الكلام، فعندما تتعلم طفلة تبلغ من العمر عامين أن الكلاب تسمى "كلاب"، فإنها لن تسأل عادة عن سبب امتلاك الكلاب لهذا الاسم المعين أو عن سبب وجود أسماء أصلاً. رغم انها أسئلة جيدة، وقد تشغلها عندما تكبر، لكن يجب على الأطفال الصغار أن يتعلموا عشرات الآلاف من الكلمات عن طريق تقليد ما يفعله الآخرون، وليس عن طريق

(1) For discussion of how moral judgment can turn into moral reflex, see also D. A. Pizarro and P. Bloom, "The Intelligence of Moral Intuitions: Comment on Haidt," *Psychological Review* 110 (2001): 197–198.

التفكير. في الواقع، إن الكثير مما نتعلمه هو ناتج ــ بشكل لاشعوري ــ عن التربية. فعلى سبيل المثال، وكون الشخص يهودياً يدفعه للاحتفاظ بمسافة جسدية معينة عن الآخرين إذا كانت نشأتهم في بيئة مختلفة أو نشأوا بطريقة مختلفة، خلافاً لما لو كنّا من بيئة واحدة. تماماً كما أني ألتفت إلى أسماء الأشياء باللغة الإنجليزية فقط عند سماعي متحدثاً بلغة أُخرى يستخدم كلمات مختلفة في تسميتها.

وقد مر سابقاً قصة هيرودوت وكيف جمع داريوش الإغريقَ الذين كانوا يحرقون جثث آبائهم المتوفين مع الهنود الذين كانوا يأكلون جثث آبائهم المتوفين[1]، فشعرت كل مجموعة بالرعب من تصرفات المجموعة الأُخرى لأنهم اعتقدوا أن عادتهم كانت الطريقة الوحيدة المناسبة لمعاملة الموتى. فقد آمنوا بذلك، ليس لأنهم شاركوا سابقاً في عملية اختيار بين الطرق البديلة لمعاملة الموتى، ولكن لأنهم لم يفكروا قط في البدائل في المقام الأول، وقد أنهى هيرودوت هذه القصة كاتباً: «يمكن للمرء أن يرى بهذا ما يمكن أن تفعله العادة»، ويواصل ليطلق على العرف «سيد الجميع».

فنحن نتأثر بالسلوكيات التي نراها مراراً وتكراراً بشكل أكبر، ولكن حتى التجربة القصيرة يمكن أن يكون لها تأثير. فقد درس الباحثون كيف يتصرف الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ستة أعوام وأحد عشر عاماً بعد مراقبة الأعمال الخيرية للغرباء. ففي تجربة نموذجية، لعب الأطفال لعبة البولينج وحصلوا، بعد ذلك، على عملات وهمية يمكنهم التداول بها للحصول على جوائز. قبل اللعب، كان الأطفال يشاهدون شخصاً

(1) Herodotus, *The Histories*, rev. ed., trans. Aubrey de Selincourt (New York: Penguin, 2003), 3:38.

آخر يلعب، سواء كان شخصاً بالغاً أم طفلاً في مثل أعمارهم، ثم يرون هذا الشخص وهو يتبرع بنسبة من مكافأته في صندوق خيري للفقراء. حينها وجد الباحثون أنه كلما زاد تبرع هذا الشخص الأول، زاد تبرع الطفل. تجربة مشاهدة الشخص الآخر كانت أقوى من الحث الصريح على إعطاء الصدقة.

مع ذلك، وكما يخبرك أي أب أو أُم، فإن الأطفال يلتقطون مع السلوكيات الجيدة سلوكيات أُخرى سيئة. إذا لم يضع الشخص الأول شيئاً في الصندوق، فإن الأطفال لا يضعون شيئاً في كثير من الأحيان أيضاً – رغم أنهم كانوا سيعطون القليل، ومن المثير للاهتمام، أن بعض الدراسات وجدت الأطفال يتأثرون بالسلوك السيئ أكثر من تأثرهم بالسلوك الجيد. ففي مجموعة من التجارب الحديثة التي أجراها عالم النفس بيتر بليك وزملاؤه، شاهد الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ثلاث إلى ست سنوات، أحدَ الوالدين وهو يتبرع بشيء لشخص بالغ آخر. فلاحظ الأطفال في الاختبار ما يعكس الكرم أو الأنانية في سلوك أُمهم أو أبيهم، كأن يعطوا طابعاً واحداً من أصل عشرة طوابع يملكونها، أو تسعة طوابع من أصل عشرة طوابع يملكونها.

في وقت لاحق، عندما كان الأطفال يقسمون أغراضهم الخاصة مع طفل آخر، فعلوا ذلك بتأثير مما فعله آباؤهم. لكن قوة التأثير هذه كانت أقوى عند الأطفال الذين تبرع آباؤهم بالقليل مما هي عليه عند الأبناء الذين تبرع آباؤهم بالكثير. فبدا الأمر كما لو أنهم كانوا يبحثون عن ذريعة ليكونوا أنانيين، وسلوك والدهم السيء وفر لهم تلك الذريعة[1].

(1) P. R. Blake, T. C. Callaghan, J. Corbit, and F. Warneken, "Altruism, Fairness and Social Learning: A Cross-Cultural Approach to Imitative Altruism," paper presented at the Central European University Conference on Cognitive Development, Budapest, Hungary, January 2012.

يمكن للمرء أن يتعلم كيف يكون صالحاً دون الكثير من الدوافع الأخلاقية، وذلك من خلال محاكاة الخير في الآخرين. لكن هذا يدفعنا إلى التساؤل مجدداً: لماذا الآخرون لطيفون؟

من أين تأتي هذه العادات؟

في الولايات المتحدة، قبل مائتي عام، كان استرقاق السود أمراً عادياً يقوم به البيض، وقد اعتبره الكثير من أبناء المجتمع الأمريكي سلوكاً يتماشى مع القواعد الأخلاقية ولا ينافيها، وهو اعتبار مستمد بشكل جزئي من التبرير التوراتي، ومن الإيمان الحقيقي، بأن هذا الترتيب هو الأفضل لجميع أفراد المجتمع، بما في ذلك العبيد. فالطفل الأبيض الذي نشأ في مثل هذا المجتمع سيكون عرضة لامتصاص مثل هذه الآراء، تماماً مثلما يتعلم كيفية التحدث، وإعطاء الإكرامية، والبقاء على مسافة مناسبة من الغرباء.

إن إحدى طرائق التفكير في مواقفنا الأخلاقية المتغيرة هي من حيث "الدائرة الأخلاقية"[1]، وقد وضع هذا التعبيرَ المجازي (الدائرة الأخلاقية) مؤرخ القرن التاسع عشر وليام ليكي، ولكنه أصبح شائعاً بعد ما نشره بيتر سينغر في كتابه "الدائرة المتوسعة" المطبوع عام ١٩٨١ وتشمل الدائرة الأخلاقية الأفراد الذين تعنينا مصائرهم، والذين يهمنا أمرهم.

(1) Peter Singer, *The Expanding Circle: Ethics and Sociobiology* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1981); W. E. H. Lecky, *History of European Morals from Augustus to Charlemagne*, vol. 1 (New York: George Braziller, 1955), 103.

اعتقد ليكي أن الدائرة تبدأ صغيرة وتتوسع عبر الزمن: حيث «يأتي الناس إلى العالم ومشاعرهم الرقيقة الخيرة بحالة أقل قوةً من تلك الأنانية، ووظيفة الأخلاق هي أن تعكس هذا النظام. ... ذات يوم كانت المشاعر الرقيقة الخيرة تطوق الأُسرة الواحدة فحسب، ثم ما لبثت الدائرة أن اتسعت لتضم الطبقة الاجتماعية الواحدة أولاً، وبعدها الأمة، ثم تحالفاً من الأمم، ثم الإنسانية جمعاء، وأخيراً أصبحنا نستشعر مثل هذه الأحاسيس في تعاملات الإنسان مع عالم الحيوان»... في كتابه "أصل الأنسان"، يستشهد داروين بإعجاب بكلام ليكي ويستمر ليشير إلى أنه على مدار وجود جنسنا البشري، أصبحت تعاطفاتنا «أكثر رقة وأوسع انتشاراً، وامتدت من البشر التابعين لجميع الأعراق إلى الأبله والمقعد والأعضاء عديمي الجدوى الآخرين في المجتمع، وفي النهاية إلى الحيوانات الأقل في المستوى»[1].

ملاحظة داروين حول «الأعضاء عديمي الجدوى»، تذكرنا:

أولاً: بالتغييرات العديدة التي جرت على الطريقة التي كنا نتحدث بها عن مجموعات معينة قبل عام ١٨٧١ فنحن لا نجد اليوم أحداً يصف ـ بشكل اعتيادي ـ الأفراد المصابين بإعاقة ذهنية أو جسدية بأنهم "عديمو الجدوى".

وثانياً: والأهم من ذلك، تذكرنا هذه العبارة بأن المحرك الذي يقود إلى توسيع الدائرة الأخلاقية لا يمكن أن يكون مجرد مصلحة ذاتية. حيث أن توسيع الدائرة الأخلاقية لا

(1) Charles Darwin, *The Descent of Man* (1871; repr., London: Penguin, 2004), 149.

يمنحنا بالضرورة أي مكاسب مادية؛ فنحن لا نربح من زيادة اهتمامنا بالمعاقين ذهنياً وجسدياً.

كما أن إحدى القوى التي يمكنها توسيع الدائرة في الاتصال الشخصي – تتمثل عندما يكون الأشخاص متساوين في المركز ويعملون على تحقيق هدف مشترك، حيث أن التفاعلات بين الأفراد غالباً ما تقلل من التعصب والأحكام المسبقة. تُعدّ الوحدات العسكرية والفرق الرياضية مثالين يتم الاستشهاد بهما بشكل متكرر. لكن دراسات مختلفة، من الخمسينات، أكدت على قوة الاتصال الشخصي في مجموعة من الظروف الأُخرى: مثل ربات البيوت البيض اللائي يعشن في المساكن العامة مدمجة الأعراق، وضباط الشرطة البيض الذين تم تكليفهم بشركاء سود، وهكذا[1]. الآباء والأُمهات يكونون عقلانيين عندما يحاولون إطفاء العنصرية في أطفالهم عن طريق وضعهم في مدارس متنوعة عرقياً. لأن الأطفال، في ظل ظروف الاتصال المناسبة، سوف يوسعون دوائرهم الأخلاقية لتشمل أعضاء من أعراق أُخرى.

وثمة عامل مهم آخر في توسيع الدائرة هو الاطلاع على القصص، حيث تشرح الفيلسوفة مارثا نوسباوم كيف تُعلِّم القصص الأطفال التعاطف والتعرف على أشخاص قد تكون وجهات نظرهم وشخصياتهم مختلفة تماماً عن تلك التي لديهم: «نرى شخصيات في القصص شبيهة بتلك التي نراها في الواقع، لكن كيف نرى أنفسنا من خلالها؟ ... ما علمتنا قصص الطفولة فعله هو أن نطرح أسئلة حول الحياة وراء القناع.

(1) Gordon W. Allport, *The Nature of Prejudice* (Reading, MA: Addison-Wesley, 1954). For a review, see T. E. Pettigrew, "Intergroup Contact Theory," *Annual Review of Psychology* 49 (1998): 65–85.

فالعالم الداخلي المتخفي بالشخصية سيفضي بنا إلى عادة التفكر في أن هذه الشخصية، التي تشبهنا إلى حد بعيد، هي مَوْطِن للعواطف والرغبات والمشاريع التي تشبه إلى حد ما عواطفنا ورغباتنا ومشاريعنا، ولكن ذلك أيضاً يجعلنا نتفهم أن هذا العالم الداخلي يتشكل بشكل مختلف من خلال ظروف اجتماعية مختلفة»[١].

لكن القصص ليست ضرورية فيما يتعلق بعقول الآخرين.

كما ناقشنا سابقاً، حتى الأطفال الذين يبلغون من العمر عاماً واحداً يتعاملون مع الأشكال "الشبيهة بالأشخاص" من حولهم، وكأن لديها عواطف ورغبات ومشاريع مختلفة عن تلك الخاصة بهم. لكن نوسباوم تتحدث عن العادة، وليس القدرة، ومن الجدير أن نأخذ، بشكل جدي، دعواها في: أن التعرض للقصص يجعلنا أكثر ميلاً للتفكير في عقول الآخرين. أيضاً، هناك بعض "الأشكال الشبيهة بالأشخاص" التي لا نميل إلى النظر فيها بشكل طبيعي. لم أُفكر مطلقاً في محنة السجناء في الحبس الانفرادي. لكن بعد قراءة مناقشة صحفية مؤثرة[٢]، أشعر الآن بشكل مختلف.

يمكن أن تثير القصص التعاطف تبعاً للحالة، ولكنها يمكن أيضاً أن تقودنا إلى التشكيك في مبادئنا الأخلاقية وعاداتنا السلوكية. يقول عالم النفس ستيفن بينكر: «التعرض للعوالم التي لا يمكن رؤيتها إلا من خلال عيون أجنبي أو مستكشف أو مؤرخ يمكن أن يحوّل معياراً غير مشكوك فيه (هذه هي الطريقة التي يتم بها ذلك) إلى ملاحظة واضحة (هذا ما تصنعه قبيلتنا الآن)»[٣]. هذه هي النقطة التي أثارها هيرودوت

(1) M. Nussbaum, "Exactly and Responsibly: A Defense of Ethical Criticism," *Philosophy and Literature* 22 (1998): 354.

(2) A. Gawande, "Hellhole," *New Yorker*, March 30, 2009, 36–45.

(3) Pinker, *Better Angels*, 175.

عندما روى قصة الإغريق والهنود. السفر يوسع الأُفق، والأدب هو شكل من أشكال السفر. لكن هناك الآن بعض الأشياء التي يتجاهلها هذا التفسير مثل التعقيد الأخلاقي للأدب. كتبت الناقدة الأدبية هيلين فيدلر: إن «التعامل مع القصص الخيالية على أنها حبوب أخلاقية منشطة أو مُقَيّئات أخلاقية أمر بغيض لأي شخص يدرك الدوافع النفسية والأخلاقية المعقدة للعمل الفني»[١]، ويشير الباحث القانوني ريتشارد بوسنر إلى أن العديد من القصص العظيمة تعبر عن قيم فظيعة كالاغتصاب والنهب والقتل والتضحية البشرية والحيوانية والزنا والعبودية في الإلياذة.. معاداة بعض الأعراق والعنصرية والتمييز الجنسي في أعمال شكسبير وديكنز، وهكذا، ويخلص بوسنر إلى أن «عالم الأدب هو فوضى أخلاقية»[٢].

يلاحظ بوسنر كذلك أنه لا يتوفر سوى القليل من الأدلة على أن القراء المداومين على القراءة هم ألطف من الآخرين. فالنازيون كانوا يعرفون القراءة والكتابة؛ وقيل إن وزير الدعاية السياسية في عهد أدولف هتلر وألمانيا النازية جوزيف غوبلز كان يحب المأساة الإغريقية[٣]. لكن قد يختلف بعض علماء النفس هنا مستشهدين بالنتائج الحديثة التي تفيد بأن الأشخاص الذين يقرأون كتب القصص الخيالية لديهم مهارات اجتماعية أعلى إلى حد ما من الأشخاص الذين يفضلون الكتب الواقعية[٤]. لكن حتى لو كان هذا صحيحاً، فلا يعني ذلك أنهم أُناسٌ ألطف. أيضاً، فمن غير الواضح ما الذي يجب أن نستنتجه من هذا

(1) H. Vendler, "The Booby Trap," *New Republic*, October 7, 1996, 34, 37.

(2) R. Posner, "Against Ethical Criticism," *Philosophy and Literature* 21 (1997): 5.

(3) M. Beard, "Do the Classics Have a Future?," *New York Review of Books*, January 12, 2012.

(4) R. A. Mar, K. Oatley, J. Hirsh, J. de la Paz, and J. B. Peterson, "Bookworms Versus Nerds: Exposure to Fiction versus Non-fiction, Divergent Associations with Social Ability, and the Simulation of Fictional Social Worlds," *Journal of Research in Personality* 40 (2006): 694–712.

النوع من التلازم؛ ربما لا تكون القراءة هي التي تجعل المرء أكثر اجتماعية، وأن الحقيقة عكس ذلك؛ أي أن الأشخاص الاجتماعيين يستمتعون بقراءة الكتب القصصية أكثر. فمثلاً تقرأ النساء الكتب القصصية أكثر من الرجال، وقد يكون السبب هو أن النساء، في بعض الجوانب، أكثر اجتماعيةً من الرجال، ومن هذا المنطلق، وجدت جينيفر بارنز، طالبة دراسات عليا سابقة في مختبري، أن البالغين الذين يعانون من أشكال خفيفة من مرض التوحد، وبالتالي يعانون من ضعف اجتماعي، هم أقل اهتماماً بالكتب القصصية والخيالية من الناس العاديين[١]. لذا، وبالرغم من وضوح كون قدرات المرء الاجتماعية والتعاطفية تؤثر على اهتماماته بالقصص الخيالية، إلا أنه لا يمكننا أن نكون على ثقة من أن التأثير يسير في الاتجاه الآخر.

ومع ذلك، فإن القصص الخيالية المناسبة في الوقت المناسب يمكن أن يكون لها تأثير.[٢] هناك أدلة تاريخية مهمة على أن الأدب والأفلام والبرامج التليفزيونية وما شابهها قد أثرت بالفعل على مسار التاريخ البشري، وهذا يدعم تفنيد نوسباوم لوجهة نظر بوسنر. فربما قرأ النازيون الكثير من الكتب، لكنهم لم يقرأوا النوع الصحيح منها. فرواية "كوخ العم توم" المطبوعة عام ١٨٥٢ للكاتبة الأمريكية هيريت بيتشرستو، الكتاب الأكثر مبيعاً في القرن التاسع عشر، ساعدت البيض على تخيل العبودية من منظور العبيد ولعبت دوراً مهماً في تغيير مواقف الأميركيين تجاه العبودية. كما أدت رواية ديكنز "أوليفر

(1) J. L. Barnes, "Fiction, Imagination, and Social Cognition: Insights from Autism," *Poetics* 40 (2012): 299–316.

(2) See also Paul Bloom, *Descartes' Baby: How the Science of Child Development Explains What Makes Us Human* (New York: Basic Books, 2004); Pinker, *Better Angels.*

تويست" إلى حدوث تغييرات في كيفية معاملة الأطفال في بريطانيا في القرن التاسع عشر؛ وعمل ألكسندر سولجينتسين على تعريف الناس بأهوال معسكرات الاعتقال السوفيتية من خلال أفلام مثل "قائمة شيندلر" و "فندق رواندا" التي وسعت فهمنا لمعاناة أُناس آخرين قد لا نواجههم في هذه الحياة، كما لو كانوا في بلدان أو أزمان أُخرى.

أعترف أن هذا مجرد حدس، لكنه مدعوم بأدلة من دول أُخرى، حيث كان لإدخال التلفزيون تأثير ملحوظ على المعتقدات الأخلاقية. فمثلاً يجد روبرت جينسن وإيميلي أوستر أنه عندما وصل التلفاز إلى القرى الهندية الريفية، ازدادت أعداد النساء الملتحقات بالمدارس، وأصبح العنف الأُسري لدى الناس أقل قبولاً، وأصبح هناك انخفاض في حالة تفضيل الأبناء على البنات[1]، ويظن جنسن وأُوستر أن هذه التغييرات ناتجة عن مشاهدة البرامج التلفزيونية الأُسرية التي تميل إلى تقديم المزيد من القيم العالمية، وقد ظهرت نتائج مماثلة من الدراسات التي أُجريت في البرازيل وتنزانيا.

مع ذلك، لا يوجد قانون عام يشير إلى أن الرسائل التي تنقلها القصص يجب أن تكون جيدة أخلاقيا. فمقابل كل قصة توسع الدائرة الأخلاقية، وتحفز الجمهور على أخذ المنظور الآخر البعيد، يمكن للمرء أن يجد قصة أُخرى تقلص تلك الدائرة عن طريق وصفها للأشخاص من خارج المجموعة بالشريرين أو المثيرين للاشمئزاز. أي مقابل كل من "كوخ العم توم" و"قائمة شندلر"، يوجد"ولادة أُمة" و"بروتوكولات حكماء صهيون". فيجب على أية نظرية ترمي للتغيير الأخلاقي أن تشرح لماذا تباع القصص

(1) R. Jensen and E. Oster, "The Power of TV: Cable Television and Women's Status in India," *Quarterly Journal of Economics* 124 (August 2009): 1057–94.

الموسعة للدائرة الأخلاقية أكثر من القصص القاسية؟ ولماذا نحن ـ أساساً ـ متحمسون لكتابة مثل هذه القصص الجيدة.

حتى الان قمنا بتناول بعض القوى التي تقود التغيير الأخلاقي، لكننا تجاهلنا تعقيد العديد من القرارات الأخلاقية، وينطبق ذلك بصورة خاصة على مسألة الدائرة الأخلاقية، حيث تابعنا علماء مثل ليكي وداروين في افتراضهم أنه كلما كانت الدائرة أكبر، كان ذلك أفضل، وهذا موقف معقول بما يكفي للانطلاق منه. قد يقول المرء أن مشكلة الإنسانية الرئيسة حتى الآن هي أن دائرة اهتمامنا تميل إلى أن تكون صغيرة للغاية، وهذا ليس خاطئاً بالضرورة. فيمكن أن لا تكون الدائرة الأكبر هي الأفضل دائماً.

هل يجب أن نوسّع دائرتنا لتشمل الحيوانات؟

فمثلاً كان تعليق قط على النار في باريس في القرن السادس عشر ـ يعد شكلاً مقبولاً من أشكال الترفيه العام، وعلى حد تعبير أحد المؤرخين: «تعالت أصوات المشاهدين، بما في ذلك الملوك والملكات، بالضحك عندما كانت الحيوانات الصارخة من الألم تحترق وتتحمص وتتفحم في النهاية»[1]. لم يعد الفرنسيون يفعلون ذلك اليوم. هل يجب أن تكون الخطوة التالية هي وقف صيد الحيوانات وتناولها واستخدامها في البحث الطبي؟ قد يقول البعض: نعم، يجب أن نشمل هذا أيضاً. لكن ماذا عن العلاج والحماية المناسبين لخلايا الجلد؟ ماذا عن الفيروسات؟ إذن ليس كل شيء له وزن اخلاقي، والدائرة الأخلاقية الأكبر تجعل الحياة أسوأ بالنسبة لهؤلاء الأفراد الذين يتمتعون بحقوق وقيم

(1) Norman Davies, cited in Pinker, *Better Angels*, 145.

أخلاقية، فإذا اخترنا عدم إجراء تجارب على الحيوانات، فقد يعيق ذلك علاج المرض لدى البشر. هذه هي أنواع المعضلات التي يتعين علينا التعامل معها.

إن إدراك هذه المشكلات يوحي بوجود عنصر مفقود في قصتنا حتى الآن، ألا وهو المنطق. ففي بحث مسألة الأخلاق، نقوم بالاستنتاج، ونكتشف التناقضات وأوجه الشبه، ويمكننا تقييم الحجج المتعارضة عن طريق معرفة مدى تطابقها مع المواقف الواقعية والخيالية. عند القيام بكل هذا، فإننا نمارس الطريقة نفسها التي نستخدمها لتطوير النظريات العلمية والتعامل مع المشاكل العملية، كإنشاء مشروع تجاري أو التخطيط إلى أين نذهب في الإجازة، وقد يكون هذا الاستعداد للمطابقة مع الواقع أكثر تطوراً في بعض الناس، لكننا جميعاً نملكه، وقد أدت هذه الطريقة في التفكير والبحث إلى إحراز كل هذا التقدم الأخلاقي عبر التاريخ، تماماً كما استخدمنا المنطق والاستدلال في الاكتشافات العلمية، مثل وجود الديناصورات والألكترونات والجراثيم.

فقد استخدمناهما أيضاً في الاكتشافات الأخلاقية، مثل خطأ العبودية.

وبما أن القدرة على الاستنتاج تأخذ وقتاً لكي تظهر، وبالتالي فإن الحياة الأخلاقية للطفل محدودة بالضرورة، فإن الطفل يمتلك الميول والمشاعر. فقد يكون لديه الدافع لتهدئة الآخرين الذين يشعرون بالألم أو أن يشعر بالغضب من فعل القسوة والظلم أو يفضل الشخص الذي يعاقب المخطئ. لكن ما زال ينقصه الكثير. الأهم من ذلك كله، أن الطفل يفتقر إلى فهم المبادئ الأخلاقية المحايدة مثل المحظورات أو المتطلبات التي تنطبق بالتساوي على الجميع داخل المجتمع.

إن هذه المبادئ هي أساس أنظمة القانون والعدالة، حيث يشير بيتر سينغر إلى أن البيانات الصريحة للحياد تظهر في كل دين وكل فلسفة أخلاقية[1]، ويتم التعبير عنها بأشكال مختلفة للقاعدة الذهبية، كما في أمر المسيح، «وَبِمِثْلِ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يُعَامِلَكُمُ النَّاسُ عَامِلُوهُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً». أو تصريح الحاخام هليل «كل ما تكرهه لنفسك لا تفعله لغيرك من البشر، هذا هو كل ما في التوراة، والباقي ما هو إلا تعليق عليه». ويقول الإسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحبّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه»، وعندما سُئل كونفوشيوس عن كلمة واحدة تلخص الأخلاق، أجاب: «أليست (المُبادلة) هي تلك الكلمة، فما لا تستسيغونه لا تقدِّموه للآخرين»!

واقترح إيمانويل كانط أساسًا للأخلاق: «تصرف دائما على أساس أنك تستطيع أن تجعل من حكمة تصرفك قانوناً عاماً». كما لجأ آدم سميث إلى حكم المراقب المحايد باعتباره المحك لأي حكم أخلاقي، وكتب عالم القانون الإنجليزي جيريميبنتهام أنه في عالم الأخلاق «يجب أن يعد كل فرد على أنه واحد ولا أحد على أنه أكثر من واحد» وذلك في مهاجمته للرأس الأرستقراطي القائل بأن لحياة بعض الناس قيمة أكبر، في جوهرها، من حياة الآخرين، ويشدد راولز على مفهوم حجاب الجهل في نظريته، بحيث أن الأشخاص يُحجبون عن معرفة مكانتهم في المجتمع، ولا يعرفون أيضا عرقهم ولا جنسهم ولا ذكاءهم ولا حتى قوتهم، فكل ما يعرفونه هو معلومات عن هويتهم مثل: اسمه وعمره وجنسه. «فمن وراء حجاب الجهل سنتمكن من إثبات المبادئ التي تحكم

(1) Peter Singer, *The Expanding Circle: Ethics and Sociobiology* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1981).

مؤسساتنا التي سنوافق على العيش في ظلها. كما يجب علينا تصور أننا من سيكون في المجتمع الذي سوف تحكمه هذه المبادئ»، وكتب هنري سيد جويك أن «مصلحة أي فرد في المجتمع ليست أكثر أهمية من مصلحة أي شخص آخر».

ويشير سينغر إلى أن منطق الحياد هو اكتشاف ينشأ على مدار التاريخ البشري من حاجة الإنسان إلى تبرير أفعاله للآخرين. فإذا كان تفسيرك لضرب شخص آخر هو أنك "أردت ذلك" فقط، فهو مجرد تعبير عن الرغبة الأنانية ولا يحمل أي معنى في الحقيقة. فما هو الشيء الذي يميزك حتى تكون لراحتك الأولوية على آلام الآخرين؟ لكن إجابات مثل «لقد ضربني أولاً» أو «سرق طعامي» هي مبررات فعلية لأنها تشير إلى أن أي شخص في نفس الموقف (بما في ذلك الشخص الذي ضربته) كان يمكنه فعل الشيء نفسه، واستشهد سينغر هنا بكلام هيوم، الذي يلاحظ أن «الشخص الذي يقدم مبرراً حقيقياً يجب عليه الخروج عن موقفه الشخصي والخاص، وأن يختار له رؤية مشتركة مع الآخرين». هذا هو ما نعنيه بتقديم سبب، وكما يقول بينكر، معلقاً على كلام سينغر: «بمجرد أن تحاول إقناع شخص ما بتجنب إيذائك من خلال التماس الأسباب التي تدعوه إلى تجنب ذلك، فإنك تفرض على نفسك الالتزام بتجنب الأذى كهدف عام»[1].

إلى الآن كنّا نركز على حالة الضرر المحددة، لكن المنطق يظل أكثر عموماً. فالأفراد الذين يستفيدون من العمل معاً في مشاريع مثل الصيد المشترك أو رعاية الأطفال المشتركة يحتاجون إلى تنسيق سلوكهم، وسيضطر بعض الأشخاص أحياناً للتضحية من أجل

(1) Pinker, *Better Angels*, 648.

المصلحة العامة، ولا يمكن أن ينجح ذلك إلا إذا كانت هناك نظم للثواب والعقاب تطبق بنزاهة داخل المجتمع المحلي، وتتضح الحاجة إلى الحياد أكثر عندما يتعلق الأمر بتوزيع السلع، مثل الأغذية. فإذا حاول فرد ما أن يأخذ كل شيء، بصراخه: «أُريد ذلك!» يتحول الوضع إلى معركة، ويصبح الجميع أسوأ حالا. لكن عبارات على شاكلة «أُريد حصة متساوية» أو «أُريد المزيد لأنني عملت أكثر» يمكن أن تحظى بتقدير الكائنات العقلانية. لأنه، مرة أُخرى، تنطبق هذه المعايير، من حيث المبدأ، علينا جميعاً.

وبموجب هذا التفسير، يَظهر الحياد حلاً منطقياً لمشكلة تنسيق تصرفات الكائنات العقلانية والانتهازِية. لكن التعاطف قد يلعب دوراً أيضاً. فعندما تنظر إلى الأُمور بمنظار الآخرين، يصبح من الواضح أن رغباتك ليست مُفَضّلة على رغبات الآخرين. ليس فقط أنني لا أُريد أن أتعرض للأذى، بل هو أيضًا لا يريد أن يتعرض للأذى، وهي أيضا لا تريد أن تتعرض للأذى، وهلم جرا، وهذا يمكن أن يدعم تعميم أن لا أحد يريد أن يتعرض للأذى، والذي بدوره يمكن أن يدعم توسيع نطاق منع الأذى. فغالباً ما يعزز كل من التعاطف والحياد بعضهما الآخر[1]: فممارسة التعاطف تجعلنا ندرك أننا لسنا مميزين، وهو ما يدعم فكرة المبادئ المحايدة التي تحفزنا على مواصلة التعاطف مع الآخرين.

(1)(1) D. A. Pizarro and P. Bloom, "The Intelligence of Moral Intuitions: Comment on Haidt," *Psychological Review* 110 (2001): 197–98; Martin L. Hoffman, *Empathy and Moral Development: Implications for Caring and Justice* (New York: Cambridge University Press, 2000).

وكمثال على كيفية عمل التعاطف والمنطق معاً، فكر في سلوكيات الوالدين التي يسميها عالم النفس مارتن هوفمان بالتوجيهات[١]. تحدث هذه الحالات عندما يؤذي أحد الأطفال شخصاً ما أو على وشك أن يؤذيه. حينها يحث الوالد الطفل على أن ينظر من منظور الضحية، قائلاً أشياء مثل «إذا ألقيت الثلج في طريقهم، فسيتعين عليهم تنظيفه مجددًا» أو «إنه يشعر بالسوء لأنه كان فخوراً ببرجه الذي هدمته». يقدر هوفمان أن الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سنتين وعشرة أعوام يتلقون حوالي أربعة آلاف توجيهاً من هذا القبيل سنوياً. يمكننا أن ننظر إلى مثل هذه التوجيهات على أنها عمليات استنهاض تعاطفية ومحاولات لترسيخ عادة الأخذ بمنظور الآخرين عند الأطفال. لكنها أيضًا تعمل كحجة متكررة، توضح للطفل مراراً وتكراراً: أنت لست متميزاً من الناحية الأخلاقية.

الأطفال الصغار ليسوا مجرد متلقين سلبيين للحجج الأخلاقية. يمكنهم أيضاً إنشاء مثل هذه الحجج، ونرى هنا نوعاً من مُلَخّص على الكيفية التي أُجبر بها أسلافنا على الاستناد إلى المنطق لتبرير تصرفاتهم. عندما صوّر عالما النفس ميلاني كيلين وآدم روتلاند تفاعلات مجموعة من الأطفال تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات ونصف السنة يلعبون بمفردهم في غرفة، مع عدم وجود بالغين، سجلوا عملية الإقناع الأخلاقي هذه بشكل ممتاز[٢]:

(1) Hoffman, *Empathy and Moral Development.*

(2) Melanie Killen and Adam Rutland, *Children and Social Exclusion: Morality, Prejudice, and Group Identity* (New York: Wiley/Blackwell, 2011), 20–21.

روث: (ماسكاً بدميتين صغيرتين) مهلاً! أُريد الشخص الأخضر. ماذا لو تبادلنا؟ يمكنك الحصول على هذا (يعطي الشخص الأزرق لمايكل)، ويمكنني الحصول على الأخضر. اتفقنا؟ (مد يده ليتناول الشخص الأخضر الذي يحمله مايكل).

مايكل: كلا! لقد تبادلنا للتو. أُريد هذا (يمسك بالأخضر). أُريده الآن. لقد سبق وأن كان بحوزتك.

ليلي: مهلاً، يمكنكما الحصول على ملاعقي إن اردتم؟ (تظهر ملاعقها لمايكل وروث).

روث: لا، أُريد الشخص الأخضر.

مايكل: لن أُبادل أياً من ألعابي (يحوم فوق ألعابه).

ليلي: (تغني) لن أُبادل أياً من ألعابي.

روث: (يغني) لن أُبادل أيا من ألعابي.

ليلي: حسناً، هذا ليس عدلاً لأنني لا أملك أي دمية.

مايكل: (لروث) أعطها واحدة.

روث: ولكن أنت لديك ثلاثة ولا شيء لديها ولدي واحدة. هذا ليس عدلاً.

ليلي: نعم، لأنه ليس لدي أي دمية.

روث (لمايكل): أتعرف ماذا؟ إذا أعطيتني الشخص الأخضر فسأُعطيها الشخص الأحمر عندها سيصبح لدى كل واحد منا واحدة.

مايكل: حسناً، إذا لم تعطني الشخص الأحمر، فلن أدعوك إلى حفلة عيد ميلادي.

ليلي: لكني لا أملك أي شخص.

روث: (لليلي) حسناً، سوف أُعطيك هذا وسآخذ هذا من مايكل ثم سيصبح لدى كل واحد منا واحدة. اتفقنا؟

مايكل: (يعطي الشخص البرتقالي لروث) حسناً، لكن هل يمكننا التبادل مرة أُخرى غداً؟

روث: (يغني) حفلة عيد ميلاد! (يأخذ الشخص البرتقالي من مايكل ويعطي الشخص الأحمر لليلي).

ليلي: (تغني) حفلة عيد ميلاد!

مايكل: (يغني) حفلة عيد ميلاد!

نعلم من الأبحاث التي تمت مراجعتها سابقاً في هذا الكتاب أن الأطفال الصغار يتصرفون ببخل عندما يُطلب منهم توزيع الموارد، وقد يؤيدون بقوة مبدأ التقسيم المتساوي عندما يتعلق الأمر بأشخاص آخرين. لكن عندما يكونون في وضع يمكنهم من توزيع الموارد، فإنهم يميلون إلى الاحتفاظ بحصة الأسد. لكننا لا نرى سوى القليل من البخل نسبياً في التفاعل بين روث وليلي ومايكل. إنهم يتعاملون جيداً مع بعضهم البعض – ويعود السبب في ذلك، إلى أنهم مضطرون لذلك. مثلما أشار سينغر عن أسلافنا القدماء إلى أنه لا يمكنهم الإفلات بتبرير «لأني أريد ذلك» فقط. فهم مجبرون على تقديم المبررات الموضوعية والوفاء بها.

لكن مبرراتهم معقدة نسبياً. كان هناك غناء أكثر مما يمكن أن تسمعه في ندوة فلسفتك المتوسطة، وكان مايكل يهدد روث في مرحلة ما، لكنهم كانوا يلجأون أيضاً إلى مبادئ الحياد اذ لم يكتفوا فقط بذكر مطالبهم أو التعبير عن تفضيلاتهم. يصر كل من ليلي وروث

(ويوافق مايكل في النهاية) على أنه «من العدل» أن يحصل كل طفل على لعبة واحدة على الأقل (كما تقول ليلي، «حسناً، هذا ليس عدلاً لأنني لا أملك أي دمية»)، ويطالب مايكل نفسه بمبدأ يفرض أن يتم مشاركة لعبة بمرور الوقت «أُريده الآن، لقد سبق أن كان بحوزتك».

لم يكن من المحتّم أن ينتهي النزاع حيث انتهى. ربما كان مايكل قد رد على ليلي وروث بحجة أنه كانت هناك أسباب أخرى تجعله يحتفظ بكل ألعابه – ربما كان يمتلكها، أو ربما كان يستمتع بها أكثر من الجميع. ربما يكون قد أقنع الأطفال الآخرين بأن أحد هذه الاعتبارات الأُخرى يمكن أن يلغي مبدأ التقسيم المتساوي، ويمكن أن يأخذنا المنطق في اتجاهات مفاجئة.

إن التزامنا بمبادئ الحياد، يمكن أن يتفوق على مصلحتنا الذاتية. فنحن نضحي لنفعل ما نشعر بأنه صحيح، ومن الأمثلة على ذلك أوسكار شيندلر الذي خاطر بكل شيء لإنقاذ الآخرين من المحرقة، وبول روسساباجينا الذي آوى التوتسي أثناء الإبادة الجماعية في رواندا.

يجب أن نضع هؤلاء في الاعتبار عندما ننظر إلى الرأي السائد بأننا عبيد للمشاعر (الخوف أو التعصب أو الشهوة) – وأن أحكامنا وأفعالنا الأخلاقية هي نتاج آليات عصبية ليس لدينا وعي بها ولا سيطرة واعية عليها. إذا كانت هذه النظرة إلى طبيعتنا الأخلاقية صحيحة، لكان علينا أن نتمسك بها ونتعلم التعايش معها، ولكن هو أمر غير صحيح، وتدحضه التجربة اليومية، والتاريخ، وعلم النفس التنموي.

واتضح بدلاً من ذلك أن النظرية الصحيحة لحياتنا الأخلاقية لها جزءان. فهي تبدأ بما نولد به، وهذا غني بشكل مدهش، وعليه فالأطفال هم كائنات أخلاقية جهزها الله بالتعاطف والرحمة والقدرة على الحكم على تصرفات الآخرين، وحتى بعض الفهم البدائي للعدالة والإنصاف. لكننا أكثر من مجرد أطفال. فجزء مهم من أخلاقنا يظهر الكثير مما يجعلنا بشراً على طول تاريخ البشرية والتنمية الفردية. فهي نتاج تعاطفنا وخيالنا وقدرتنا الرائعة على التفكير والاستنتاج.

الفهرس

إشادات بكتاب مجرد أطفال..... ٣
مقدمة الشعبة..... ٧
المقدمة..... ١١
الفصل الأول الحياة الأخلاقية للأطفال..... ١٧
الفصل الثاني التعاطف والشفقة..... ٤٣
الفصل الثالث العدالة والمكانة والعقاب..... ٧٣
الفصل الرابع الآخرون..... ١٢٣
الفصل الخامس كيف نكون صالحين..... ١٥٩
الفهرس..... ١٨٣